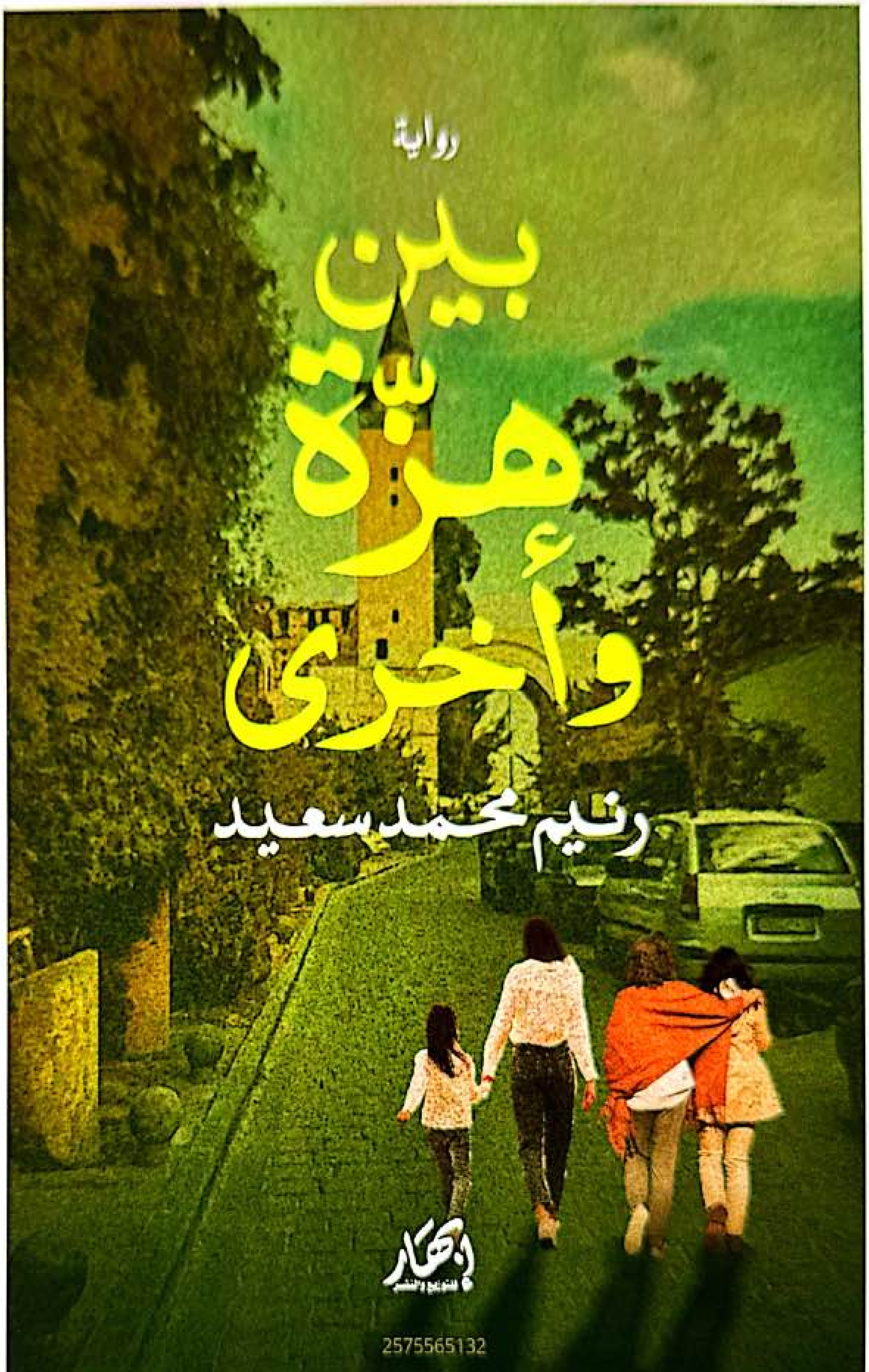
رواية
بين هزة وأخرى
رنيم محمد سعيد
إبهار للتوزيع والنشر
2575565132

ابهار للتوزيع والنشر

اسم الكتـاب: بين هزَّة وأخرى

اسم المؤلــف: رنيم محمد سعيد

رواية

المراجعة اللغوية: ياسمين أشرف

إخـــراج فني: هيـــلانا حنا

تصميم الغلاف: مـــروة صلاح

الطبعة الأولى 2024

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي
تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف
العمري الصادر عن مجلس الإمارات للإعلام.

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتبـاس أو تقليـد أو إعادة طبـع أو نشـر دون موافقة كتابيـة، يُعرِّض صاحبه للمساءَلة القانونية.
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمـادة الـواردة في الكتـاب فهي خاصـة بالكـاتب فقط لا غير.

Info@ebharbook.com
www.Ebharbook.com

00971522282688

Office no. 103 - 1st floor - El-Khan st
Sharjah - Emirates

"لم تكن أناملي من خطت هذا الكتاب، ولا أفكاري ما كتبت به... بل أناملكم وأفكاركم أنتم، فلولاكم ما كتبت يوماً! "

ماما بابا، رامز، رامي، رينيت، رين ورواد.

إلى حبيبي الوحيد... سعد

إلى سكاكر حياتي.. بناتي "آنا وإيلا" أهدي هذا الكتاب.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقّش

بين هزّة وأخرى

جميع الحقوق محفوظة لشاة رَقش

6 شباط 2023

تلبّدت الغيوم في سماء تلك البلاد حاجبة الشمس لأيام كثيرة.

برقت السماء، ورعدت الأرض. هطل المطر بشدة وكأنه يصرخ ويستغيث، يحارب الأرض بارتطامه بها رافضًا معانقتها، غابت الشمس لأيام وكأنها تخجل من أن تظهر نفسها، اشتد البرد وساد الصقيع، فاختبأ الناس في منازلهم، من لديه مدفأة حطب أَوْقَدَ الحطب بها، ومن لم يملك حتى ثمن الحطب، اكتفى ببطانية سميكة تلّحف بها متدفئًا بجدران منزله التي لم تخذله يومًا، لم تجرحه أو تقسو عليه مهما قست عليه الحياة، فكانت جدران المنازل ولسنين ملاذًا لسكان تلك البلاد وسترهم الوحيد...

إنّه شباط، بمعتقد الجدّة، هو الشهر الذي ينبغي أن تتجاوزه حيّة كي تضمن لنفسها أن تحيا عامًا آخر، ففي شهر شباط تُقبض أرواح العجزة، ولأنها عجوز، كان على بناتها أن يَزُرْنَها دوريًا لقضـــاء الليل عندها كي لا تنام وحيدة أو كي لا تموت وحيدة -بصورة أصح-

ولذلك وفي ذلك اليوم بالتحديد وبينما كان دور ابنتها الصغرى أمل أن تبات عندها، قرّرت الدكتورة حُلي القادمة في زيارة من فيينا أن تأخذ والدتها ليلى المقيمة في دمشق في زيارة خاطفة إلى اللاذقية لقضاء ليلة في منزل جدتها، وهكذا شاءت الأقدار أن تجتمع تلك النساء الأربع في

منزل الجدة وأن يمضين معها سهرة من العمر، وبكلمات أدق، سهرة عن العمر كله . . .

اجتمعن أربعتهن في غرفة الجلوس الصغيرة، كانت مدفأة الحطب تلتهب، تشتعل وتخبو جاعلة من الغرفة فرنٌ صغير.

تورّدت خدودهن جميعًا، كما تورّدت ضحكاتهن، وقصصهن التي تشاركنها فيما مضى، ولازلن يشعرن بالإثارة ليتكلمن عنها مرارًا وتكرارًا.

كانت الجدة كعادتها سيدة الحديث، وبينما هي تتحدث راحت تفوح رائحة الفستق الذي يتحمص فوق مدفأة الحطب، أعدّت الخالة أمل الشاي فتناولن كأسًا وربما كأسان إلا حلّي التي استمرت باحتساء الشاي وقرمشة الفستق حتى انتهت آخر قطرة من إبريق الشاي، فهي بين أمها وخالتها وجدتها تعود طفلة في الثالثة من عمرها مهما بلغ بها العمر من كبر . . .

عند الساعة الثانية صباحًا، وبعد أن تسلّل النُّعاس إلى جفونهن، وخمد الحطب في المدفأة فانطفأ وميضه، قررن الخلود للنوم، فوقفت أمل لمساعدة والدتها بالوصول إلى سريرها وكذلك تبعهتا كُلًا من حُلي ووالدتها ليلى.

كان لغرفة النوم التي يزيد عمرها عن ستين عامًا رائحة رطوبة عذبة، وهي رائحة تسكن عقولهنّ وقلوبهنّ جميعًا فلطالما زرن منزل الضيعة هذا في مواسم الزيتون والليمون وفي العطل الربيعية والصيفية، رائحة تحمل

شيئًا من رطوبة الساحل ورطوبة الأرض المنخفضة والمحاطة بأشجار السرو والتي اختيرت ليبنى عليها بيت القــرية هذا منذ ما يزيد عن نصف قرن.

استلقت الجدة على السرير الوحيد في الغرفة، سرير حديدي ذو نوابض، بينما افترشت حلي ووالدتها وخالتها أمل الفراش الإسفنجية التي غطّت أرض الغرفة، تلّحفن جميعهن جيدًا دَرْءًا للبرد، فاقتربت حلي من خالتها أمل وعانقتها من الخلف كي تتدفأ بجسدها أو كي تعبر لها كم تحبها، وبينما هنّ يغرقن في غفوتهن الأولى، اهتزّت الأرض، هزّة .. هزّتان وثلاث . . .

استيقظت حلي مذعورة وراحت تصرخ "زلزاااال" بينما راحت المروحة السقفية التي لم تستخدم منذ سنين -لانعدام الكهرباء -ترقص جيئة وذهابًا، قفزن جميعهن هلعًا باتجاه الباب، إلا ليلى التي اتجهت لمساعدة والدتها في النهوض من السرير، راحت أجزاء من السقف تنهار والأحجار تتكسر متطايرة شرقًا وغربًا، وبينما تسارع حُلي لفتح باب الغرفة للهروب، اهتزت الأرض بقوة أكبر رافضة هروبهنّ من قدرهنّ الذي ينتظرهن في هذه الغرفة، وقعت الجدة على الأرض ووقعت ليلى فوقها ووقع السقف الذي يحمل طابقًا آخر فوقه، علت الاستغاثات وكلمة واحدة راحت ترتفع "يا الله" بينما ينهار الكون كله فوق رؤوسهن.

حُشرت أمل وحلي تحت إطار الباب الذي انهار أيضًا، مصيبهنّ بجروح بالغة، فأصبح هناك جبل ركام كبير فصلهن تمامًا عن الجدة وليلى اللّاتي سقطتا قرب التخت الحديدي، امتلأت الغرفة بالحطام، وارتفعت غمامة

غبارية قاطعة الأكسجين عن الروح، وأما الجدران التي سترت لسنين سكانها، كانت الخنجر الذي نحر أعناقهم في ذلك الصباح ...

غابت حلي عن الوعي لثوانٍ، ثم فتحت عينيها لتجد الكون وقد انهار تمامًا من حولها، مستلقيةٌ على الأرض وفوق صدرها وأكتافها يقبع حمل ثقيل من الأحجار والباطون، حاولت التحرك دون جدوى، الدمار ملأ المكان، شعرت وكأنها دفنت في سابع أرض، راحت تسعل لإزالة الأتربة التي علقت بحلقها، لم تستطع أن تُمَيز إن كان ما تعيشه كابوسًا أم حقيقة، فَتَمَلَّكتها رغبة عتيقة بالبكاء حتى الموت، فراحت تبكي.

بعد دقائق من البكاء المكبوت، فتحت فمها محاولة الصراخ، لم تستطع، ولكنها استمرت بالمحاولة، بصوت هامس في البداية ..

ماما...خالتو ...تاتا انتو مناح؟

ماما... خالتو ...تاتا انتو مناح؟

ثم راح صوتها يرتفع شيئًا فشيئًا بينما تشهق باكية...

ماما خالتو تاتا طمنوني انكون مناح ؟

ماما خالتو تاتا أمانة ردوا علي

وراح صوت نحيبها يعلو حتى صار صراخًا يملأ الأرض: يا الله ... طمني انو ماما وتاتا وخالتو مناح ... بترجاك يا الله تطمأني

فيينا 2021 - الدكتورة حُلي

الخيانة... الكلمة التي نخاف نطقها أو التفكير بها، الجريمة التي يستحيل أن نغفر لصاحبها، هي ذاتها الشعور الحلو الذي انتابني عندما خُنتك للمرة الأولى، هي ذاتها الحب الذي نبض في قلبي بعد سنين من الجفاء بقربك ...

كنت مؤمنة -على مدى سنين حياتي- بأنّ الخيانة هي الجرم الوحيد الذي يستحيل من بعده الإكمال بالزواج، مهما كانت المبررات، ولطالما أصدرت أحكامًا مجحفة بحقّ كل من خان دون أن أنظر بالأسباب، ولطالما أعلنت أن الانفصال هو الحكمة الوحيدة بعد الخيانة، فكيف نكمل حياتنا مع من خاننا وخان حبنا ووفائنا...

وكبرت وكبر عقلي معي وتغيرت كل قناعاتي، اقتلعتُ قناعاتي من جذورها، وتبنيتُ أفكار جديدة، في هذه المرة لم تكن أفكاري متبناة من تجارب غيري وقناعاتهم، بل كبرت أفكاري وتبلورت من تجربتي الخاصة في الحياة ...

اسمي حُلي، الاسم الذي اختارته أمي لي منذ ولـــدت، فلازمني دون مغادرة، حُلي ويعني ما يتحلى به المرء من مجوهرات وأحجار ثمينة، لطالما كنت ياقوتة أمي الثمينة، الطفلة التي ما برأت تتغنى بها، بذكائها وبأخلاقها أمام الناس.

لم تتغنى يوما أمي بجمالي حتى أنني اعتقدت لسنين بأنني عادية، فتاة عادية، لا شيء يميزني عن نظيراتي إلا أخلاقي العالية واجتهادي، وعشت حياتي كلها مؤمنة بذلك.

لم يشغل بالي مظهري يومًا، بل لطالما شغل بالي عقلي، لذلك كنت طموحة جدًا ومجتهدة ومليئة بالأهداف.

وبينما انشغلت صديقاتي بعمليات التجميل كنت مشغولة بكلية الطب، وبينما كنّ يحلمن بالعريس كنت أحلم بالسفر للاختصاص، وفعلا حققت أحلامي وأحلام أمي كلها وأصبحت طبيبة ... طبيبة عيون.

لم أكن مجرد طبيبة بل طبيبة جميلة، إلا أنني لم أدرك أنني جميلة حتى اقتربت من الأربعين، لقد استغرقت سنينًا لأدرك أن جسدي مثالي وأن عيني ساحرتان وأن خدودي تدعو للحب، وكما تغني السيدة فيروز

"حلوة والخصر بيلوي ومابتعرف إنها حلوة

لا تفيقها على حالا بركي شغلتلا بالها"

وأظنني أبدعت بالدراسة لأن بالي لم ينشغل يومًا بجمالي ...

هكذا تزوجت معظم صديقاتي عندما تخرجن بينما سافرت إلى النمسا لإكمال الاختصاص في طب العيون...

كنت سعيدة بكل لحظة أمضيتها في النمسا رغم صعوبتها، كنت أرى في

كل تفصيل مشهد من فيلم، كيف لا وأنا بطلة الفيلم الذي حلمته لسنين، كيف لا وكل تفصيل في حياتي يصلح لأن يكون مشهدًا في فيلم ...

خلال سنين غربتي عشت تجربتي اهتمام أو ثلاثة لكنني لم أجد ما أبحث عنه في أي ممن عبروا حياتي، لذلك التزمت بالمواصفات التي رسمتها لفتى أحلامي دون أن أتنازل عن أيّ منها "وفيٌّ ومخلص، حنون ويحب العائلة، لبق وهادىء، ناجح، واثق من نفسه وبي، منفتح، لايهم إن كان رومنسيًا، رومنسيتي ستكفي زواجنا كي يبقى نابضًا بالحب، وأما عن صفاته الحقيقية فكان ينبغي لي أن ألخصها بكلمتين "عكس والدي!" وأما ذاك الذي قال " كلّ فتاة بأبيها معجبة" فهو بلا شك يجهل الحقيقة!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقَش

دمشق المزة - 1990 - الجدّة

وقفت وظهرها حانٍ، تحرّك قهوتها على غاز صغير في مطبخ قديم، غرفتان وفسحة سماوية هو منزلها الذي قطنته في السنوات الأربعين الماضية مع زوجها الطيب الذي لم تكره شيئًا في حياتها بقدر كرهها لطيبته...

كان لها ست أولاد كبروا وتزوجوا جميعًا وبقي لديها أصغرهما، أمل المهندسة التي ترى فيها نجاحها الوحيد كأم، وأخاها عدنان الذي أنهى الثانوية واعتزل المنزل فانعكس فيه فشلها كله كأم...

أخوان يجسدان النقيض لأمّ لم تعترف يومًا بالرمادي فكانت إما أن تحب أو تكره، ذات رأي حاد وطبع حاد وأفكار تكاد تجرح لحدّتها، امرأة كما يمكن أن ندعوها "أخت الرجال" أو أن الرجال يكتسبون رجولتهم من إخوتها ...

راحت تغلي القهوة بينما راحت فكرة واحدة تغلي في دماغها، ابنها، ابنها الوحيد والأصغر لخمس فتيات والذي يكاد يكون أكثرهن خجلا وطيبة، هي التي لم تخشى شيئًا في الحياة سوى العين الحاسدة والقدر الأسود والناس وكلامهم والفقر والمرض باتت تخشى شيئًا جديدًا ألا وهو صنع رجل من هذا الولد الذي يكاد يُدميها بفشله ...

عاشت يتيمة، هي تذكر جيدا زوجة أخيها التي ربتها، وربّت بها أولاد

القرية، تذكر أخاها الضعيف الذي لم يكن سندًا لها يوما، بل كان ذئبًا افترس ضعفها وأخذ نصيبها من ورثة والديها، تذكر زوجها الرجل الطيب الذي كان أول من تقدم لخطبتها فوافق أخاها عليه ليتخلص من وجودها وتكاليف إعالتها . . .

كانت تقارب السبعة عشر عامًا عندما تزوجت أسعد الموظف الحكومي، الذي أسكنها لشهور وحيدة في بيت القرية الصغير في جبلة قبل أن يقرر نقلها معه إلى دمشق حيث يعمل، فسافرت معه واستقرا في البيت الصغير هذا الواقع في حي المزة، البيت المستأجر والذي لم يتغير فيه شيئًا مذ دخلته وحتى اللحظة، عدا عن كونه قَدِمَ وَبَهَتْ فتلاشت معالمه . . .

غَلَت القهوة، أطفأت النار من تحتها وبقيت نــار قلبها تتّقد، حملت فنجان قهوتها إلى فسحتها السماوية، جلست على كرسي قديم من القش وأمامها طاولة خشبية، كان الطقس صيفًا لكن جدران هذا المنزل القديم تحافظ على رطوبته وبرودته ولعلها حسنة من حسنات القدم . . .

كانت جدران بيتها مصنوعة من التبن، ومطلية بدهان أبيض، تقشّر بفعل الزمن فظهرت المواد الأولية التي صنع منها هذا المنزل في أربعينيات القرن الماضي، تبنٌ وخشب.

أخذت تحتسي قهوتها بينما أخذت الأفكار تتلوّى في عقله،

كيف تصنع منه رجلًا ؟!

كيف تصنع منه رجلًا ؟!

كيف تصنع منه رجلًا ؟!

سؤال راح يأكل تلافيف دماغها . . .

..*.*.*

دمشق المزة - 1970 - ليلى

اسمي ليلى، الابنة الكبيرة لأسرتي، الفتاة التي ربّتها والدتي بحزم وحذر متأملة أن تحقق بها كلّ أحلامها . . .

وفعلًا، حتّى بلوغي سن الرابعة عشر كنت عند حسن ظن أمي بي، الفتاة التي تهتم بدرسها وتحصل على مجموع عالٍ في المدرسة وتنال استحسان المدرسات. . .

أذكر كم كانت والدتي قاسية، تلك القسوة التي لم أتمكن من تبريرها في طفولتي، لكنني وعندما كبرت أدركت أن قسوتها جاءت كردة فعل على هدوء والدي وبرود أعصابه، هدوءه جعل منها كتلة نار متّقدة، كان مثالا للسذاجة والطيبة وكانت مثالا للحذر والقوة، حذرة من كل شيء، من الناس، من الحسد، من الفقر، وربما من الغنى أيضًا.

لكنها امرأة عظيمة، فهي من صنعت إخوتي وربتهم وأعالتهم ماديًا ومعنويًا، كانت كما يقال (أختّ الرجال) أو ربما اكتسب الذكور رجولتهم من إخوتها . . .

أذكر بيتنا في المزة، المزة التي كانت وستبقى الحي الأجمل والأقرب إلى قلبي، وأما اسمها فيقال أنه يوناني في أصله ومعناه الرابية، ويقال أيضًا بأنها سميت بالمزة نسبة إلى طعم الصبار الحلو الذي اشتهرت به حواكرها والذي لطالما غرز أشواكه في يدي على طريق عودتي من المدرسة، حيث

اعتدتُ التوقف قرب شجيرات الصبار والتنافس مع أصدقائي في قطف ثمارها وإزالة قشرتها الشائكة بأيدينا العارية، وهي لحظات تبدو لذاكرتي غضّة وحديثة مهما مضى عليها من السنين، لتبقى معها نكهة تلك الثمار الأشهى على قلبي.

لبيتنا في المزة رائحته المميزة، الجدران الرطبة، الدفء والأمان الذي يقلّ شعورنا به مع تقدمنا في العمر، كان يكفيني أن أدخل المنزل كي أشعر بالأمان، لقد كنت طفلة سعيدة كثيرة الحركة، ألعب كالصبيان وأذهب يوميًا إلى مدرستنا سَيْرًا على الأقدام، لنصل إلى بابها فأدخلها مبتسمة وسعيدة.

ما تزال رائحة المقاعد الخشب تفوح في ذاكرتي، ووجه مدرستي منقوش في مخيلتي.

كانت تدعى الآنسة "نجاح" وكانت معجبة باجتهادي بينما كنت معجبة بكل شيء فيها، تصفيفة شعرها العسلي الكثيف، أكتافها المفرودة بثقة، كلامها، ابتسامتها، تنورتها المكسي التي لطالما حلمت بأني سأرتدي مثلها يومًا ما عندما أصبح مدرسة مثلها.

وفي آخر صيف لي في منزلنا، زرعت أول ابتسامة على وجه والدتي وآخر ابتسامة، كان ذلك تمامًا قبل أن أدمغ وجهها بالحزن مدى الحياة.

كنا يومها في حزيران 1970، الصيف حار ولكن الشمس في مغيب، كنت ألعب في الحارة مع أولاد الجيران، بيوت متقاربة مصنوعة من الطين،

وأمام باب كل منها مسطبة إسمنتية تجلس عليها نساء الحي في المساءات الحارة ليتبادلن الأحاديث ويتشاركن القصص.

يومها كانت والدتي تجلس مع جارتنا أم علي- الجارة التي غيرت حياتنا- أمام باب دارنا، وبينما أركض مع صبيان الحي، رأيت مُدرستي الغالية نجاح تسير في حارتنا، مرتدينة تنورتها المكسي رمادية اللون وقميصها الأزرق اللولي. غمرتني السعادة، توترت وانفعلت وكأنّ الرئيس يزور حينا، ركضت نحوها مبتسمة بينما ركض معي أولاد الحي، وعندما رأتني أمي أركض نحو المُدرسة، وقفت مع جارتنا أم علي واتجهتا نحونا، رحبتا بالآنسة نجاح وجال بينهما حديث أذكر منه جملة واحدة قالتها الآنسة نجاح لوالدتي "أنت والدة ليلى، عليك أن تكوني فخورة بها لأنها فتاة مجتهدة وذكية ما شاء الله".

وأما الشيء الآخر الذي لن أنساه من ذلك المساء هو الفخر الذي لم أكن قد فهمت أبدًا كيف يبدو إلى أن ارتفعت معالمه إلى وجه والدتي، فظهرت السعادة في عينيها بينما تمتدح المدرسة ابنتها ليلى، كأنها تبارك بقولها والدتي وتربت على كتفها وتهنئها بالنصر ، وليس أي نصر هو ذاك بل النصر بعينه أمام جارتنا أم علي التي لم تنفك يومًا من أن تفتخر بأطفالها، بينما تخجل والدتي من الافتخار بشيء، كانت تلك لحظة فخر بألف لحظة، وكأن التعب والإرهاق من تربية خمس بنات تلاشى وحلّت محله سعادة النجاح في التربية والأمومة التي كادت أن تستحق التمجيد قبل أن تمحقها

حماقي وطفولتي الغبية ....

فيينا -2021 – الدكتورة حُلي

نشأتُ في عائلة ميسورة الحال، كان والدي مشهورا في المنطقة، من أكبر تجار الجملة في دمشق، وكنا نعيش في بيت جميل، لم يكن لي أخوة بنات ولكن أمي ليلى كانت ومازالت بالنسبة لي كل الحياة، امرأة هادئة جدًا، مسالمة جدًا، لم ترفع صوتها يوما علي أو على إخوتي، كانت متسامحة وصامتة وتكاد تكون قديسة. لم يكن تربيتها لثلاث شبان سهلا عليها ولكنها لم تشتكي يوما كما أن الله أكرمها بي _كما تقول دومًا _ الابنة التي انتظرتها طويلا، آخر العنقود، حلّي.

إخوتي الشبان الثلاث يكبروني في العمر كثيرا، كبيرهم قَيْس يزيدني ب 12 عامًا وهو حرفيا بمثابة أبي، هو من جلس معي بعد كل امتحان في الشهادتين "الإعدادية والثانوية، مستفسرًا عن إجاباتي وتوقعاتي بالنتيجة ومحفزًا إياي على الاجتهاد، هو من رافقني لكل حفلات التخرج في المدرسة، هو من حمل كاميرا الفيديو وانشغل بتصـوري في حفل التخرج من كلية الطب.

هو من صدّق أوراقي الثبوتية كلّها عندما تخرجت وبدأت أحلم بالسفر، هو من جلس معي لساعات نتناقش بالحب وفتى الأحلام، هو من أقلني إلى المطار يوم سافرت إلى النمسا، وهو من يستقبلني في زياراتي كلها، هو مثال الرجولة في نظري، هو أبي الذي اكتفيت به.

أما والدي، الحاضر الغائب، فقد كان دومًا غارقًا بعمله ونساءه، بينما استلمت والدتي بمفردها مهمة تربيتنا وتعليمنا، كانت متفرغة تمامًا لاحتياجاتنا، ويرافقها الندم، الندم لأنها لم تتمكن يومًا من إكمال جامعتها.

ما أذكره من طفولتي، هو غرفة الجلوس في بيتنا، طقم الصوفى الأخضر اللون، أنا وأمي نلعب الشطرنج أو الورق (الشدّة) في إحدى زواياه، بينما يجلس إخوتي ثلاثتهم يتابعون فيلمًا أجنبيًا تبثه القناة السورية الثانية، لم يكن إخوتي يومًا محظوظين بإكمال الفيلم لأن صوتا يعرفونه جيدا كان يطرق آذانهم في إحدى لحظات الفيلم الحاسمة، وهو صوت خطوات والدي بينما يصعد السلّم وصوت اصطكاك سلسلة المفاتيح التي يحملها، وماهي إلا لحظات حتى يتبخّر إخوتي الثلاث، ويركضون شرقًا نحو غرفتهم، تماما قبل ثوان قليلة من أن يفتح باب الدار ويطل من ورائه والدي مقطب الحاجبين، ليجدنا أنا وأمي متربعتان على الكنبة بينما يبث التلفاز فيلمًا أجنبيًا.

وكما هي الحظوظ في الحياة دوما، القُبلة التي تلهّف إخوتي لرؤيتها بين البطل والبطلة لا تحدث إلا في اللحظة التي يرمق بها والدي التلفاز، ليتسمّر وجهه بمشاهد القبلة الحارة، فيصرخ قائلا "حوِّلي التلفاز إلى محطة محترمة، لا تتوقفين عن متابعة الفسق والفجور" وهنا أهرب أنا بدوري نحو غرفة النوم بينما تنسل والدتي نحو المطبخ لتعدّ العشاء، ويجلس والدي على الكنبة، يتابع الأخبار ويدخن السجائر بعد أن يصرخ قائلا "أحضري لي منفضة السجائر يا أم قيس" فتحضر له والدتي منفضة السجائر وتعود إلى

المطبخ لتعد له العشاء.

اعتاد إخوتي على التهامس والضحك سرًا في غرفتهم خصوصًا ناجي وهو أخي الأوسط ويزيدني 11 عامًا، ذو ظل خفيف كثير المزاح، غالبا ما يرمي نكاته في غرفة النوم كأن يقول "لعنة الله على حظنا الخراء، تمنيت أن أرى قبلة واحدة دون أمل، كل مساء يحظى والدكم بمشهد القبلة دوننا جميعًا" فيضحكون ثلاثتهم

"والله أنا لا ألوم شكّه وظنه السيء بوالدتكم، لأنه وعند كل مساء يدخل المنزل ليجدها تتابع أفلام السيكس"

فيقاطعه قيس قائلًا " أتسمي مشهد القبلة بالسيكس "

يستأنفون ثلاثتهم الضحك حتى تكاد تنفجر خواصرهم من الضحك المكبوت، وليس هناك أكثر نشوة من الضحك المكبوت المسروق خوفًا من سلطة أحدهم.

وبينما يكملون سهرتهم بالثرثرة، يمثلون الانشغال بالفروض خشية من دخول والدي عليهم فجأة، لذلك غالبًا ما ترى أحدهم يمسك بكتاب مدرسي، وآخر يطالع رواية غرامية مجلدة بالتجليد المدرسي الأزرق السميك كي لا يظهر لا عنوانها ولا فحواها، وأما أخي داني الذي يكبرني بتسع أعوام فيفضل الاستلقاء في سريره مدعيًا أنه نائم، وهكذا يسهرون ثلاثتهم حتى منتصف الليل يتسامرون ويتحدثون، يضحكون ويحلمون بالحرية والحب.

وكالعادة تدخل عليهم والدتي لتطمأن عليهم قبل أن تنام ولتنهرهم قليلا كأن تقول " كم مرة أخبرتكم أن تغيروا المحطة التلفازية قبل أن تهربوا إلى غرفتكم، تتسببون لي بالمشاكل عند كل مساء"

فيضحك ناجي "وما هي نوع المشاكل التي نتسبب لك بها يا حجة"

يضحك الجميع إلا والدتي التي تقول بتوتر " تصبحوا على خير " ثم تغادر الغرفة.

..*.*.*

المزة - 1990 - الجدة

هناك أشياء كثيرة نعجز عن تفسيرها، أو ربما هناك الأشياء كلها التي نعجز عن تفسيرها في هذه الحياة، فما نستطيع تفسيره يكاد لا يتعدّى واحد بالمئة من الأشياء الكثيرة الأخرى المجهولة. وأما الجدّة فقد كانت قد غرقت في العجز عن فهم ابنها، كيف يفكر؟ بماذا يشغل باله؟ ورغم عجزها عن فهمه إلا أن قرارها بات واضحًا كاليقين ... ستصنع منه رجلًا مهما كلف الأمر.

دخلت ابنتها المنزل فرحبت بها، بينما تحركت شاردة نحو المطبخ لتعد الغداء (مطبق البطاطا والباذنجان) وهو أحد أشهر وأشهى الأطباق التي تعدها الجدة منذ الأزل، طبخة ساحلية بامتياز، بطاطا وباذنجان وفليفلة مقليان بزيت الزيتون تعلوهما صلصة البندورة الملح والتوم والقليل من الفلفل الأسود.

وضعت الجدّة المقلاة التي عفى عليها الزمان لكنها لم تعفو عنها بعد، مقلاة من النحاس الذي فقد شكله ولونه وربما إحساسه بينما أمضى سنينه كلّها يتلوى فوق النار، أشعلت النار وانتظرت الزيت الذي يملأ المقلاة كي يسخن ويصبح جاهزًا للقلي.

لحقت بها ابنتها إلى المطبخ بعد أن ارتدت البيجامة

- دعيني أساعدك ماما

- شكرًا - إذا أردتي مساعدتي، أعدّي السلطة لأخاك

بهدوء مطلق اتجهت الابنة نحو سلة الخيار والبندورة وبدأت بغسيل الخضار، كان الصمت يعم المكان فلم تكن الجدة قد وجهت أي سؤال لابنتها عن يومها ولم تكن الابنة قد حدثت أمها عن شيء بالمقابل، هناك فقط كانت رائحة زيت الزيتون الذي يغلي على النار وانعكاس النار على الجدران التي راحت تخبو وتضيء منيرة المطبخ المعتم تارة ومطفأة إياه تارة أخرى.

كانت أمل أصغر بنات الجدة وأكثرهن هدوءًا، بسيطة، ودودة، محبة، وقليلة الكلام، لم تتزوج بعد لكن قطر الزواج لم يتجاوزها بعد فهي ماتزال في بداية دراستها في كلية الهندسة، وأما عن قلبها فقد كان يضج حبًا وينبض بالحياة. كانت أمل أجمل إخوتها وأكثرهن طاقة وحياة، عدا عن أنها تدرس الهندسة وينتظرها مستقبل مشرق بحسب معايير المجتمع في تسعينيات القرن الماضي.

لم تنطق أمل بكلمة في تلك الظهيرة فقد كان لها ما يشغل بالها، ويشغل قلبها في آن معًا، فليس هناك ما يمكن أن نقوله عنها عدا عن أنها مغرومة .

لم تكن أمل قد تكلمت لأي كان عن قصة الحب التي تجمعها بأستاذها بالجامعة إلا لقيس، الابن الأكبر لأختها ليلى والذي كان صديقها المقرب

في كلية الهندسة المدنية فهما يدرسان الفرع ذاته علمًا أنها تكبره بعامان، إلا أنّ قيس قد دخل الجامعة في سن السابعة عشر بينما دخلتها في التاسعة عشر بعد أن أعادت البكالوريا لتحسن نتائجها وتدخل كلية الهندسة التي لطالما حلمت بها.

كان أمل وقيس صديقان مقربان منذ طفولتهما، يجمعهما الهدوء والاهتمامات نفسها، عشقهما للأميرة ديانا، أغاني خالد الشيخ، قصائد نزار قباني، خصيصًا تلك القصيدة التي طبعت على ورقة بيضاء وعلقت على جدار غرفة نوم قيس وإخوته

عيناكِ والدمع الأسود فوقهما يتساقط أنغام بياني،

عيناكِ وتبغي وكحولي والكأس العاشر أعماني

هلّ أرحل عنك وقصتنا أجمل من عودة نيسان

وكل ما كان رومنسيًا ووريًا في تلك السنين، كما جمعتهما في سنين المراهقة روايات عبير وأغنيات عبد الحليم، وقصائد محمود درويش وأفلام بوليوود.

كانت أمل هادئة للغاية، صامتة معظم الوقت ولا يظهر وجهها الآخر الصاخب إلا عندما تزور أختها ليلى فتمضي الوقت بصحبة أولادها يتابعون التلفاز، يرقصون يغنون يضحكون، ولذلك كانت قصة حبها سرٌ عميق لم يعرف به أحد إلا قيس.

دمشق - 1970 - ليلى

لم يكن وحده وجه والدتي من زرعت عليه الابتسامة في ذلك الصيف، بل كان هناك وجها آخر يضيء ابتسامًا كلما تلاقت عينانا في الحي.

عمار، الشاب الذي زار حينا في ذلك الصيف قالبًا حياتنا رأسًا على عقب. طويل، نحيف مسمّر بقبلة من الشمس، بوجه حاد المعالم وعينان عميقتان تلتهبان حياةً، بزيه العسكري وقامته الشامخة. اعتاد على أن يزور حيينا متبخترا عند كل خميس ليبيت لدى أخته جارتنا أم علي- الجارة التي غيرت حياتنا .

كان عمار رفيق أحلامي في ذلك الصيف، الحب الذي عشته قبل أن أعرف أن هناك ما يدعى حبًا، كنت طفلة في الرابعة عشر من العمر، لم تظهر بعد على جسدي معالم الأنوثة، ولم ينضج عقلي قدر أنملة، طفلة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، أمضيت الصيف في لعب الغميضة والسبع حجار مع أطفال الحارة صباحًا بينما ألتفت للعناية بأختي الصغيرة أمل عندما تذهب والدتي لبيع البسكوت الأجنبي المهرب والعلكة على اتستراد المزة.

كانت والدتي تكدح لتعيل بناتها وتساعد والدي بمصروفهن الكبير بينما لا يكفينا راتبه الصغير، وهو الذي وظفته الحكومة على شهادة السرتفيكة في إحدى مؤسساتها.

كان ذلك صيف 1970، لم نمضي ذاك الصيف في بيت الضيعة كالعادة لأن والدتي كانت في بداية حملها وخشي عليها بابا من السفر، كما خشت هي على نفسها من العين، لذلك امتنعت عن السفر الى قريتنا في جبلة حيث قد ينتشر خبر حملها بثوان ولن ينتهي بعدها القِيلَ والقَال. أرادت أن تخفي حملها وأن تدعو الله بصمت أن يرزقها بصبي، هذه كانت قناعاتها، وهكذا لم يعلم أحد بحملها إلا هي ووالدي وأنا، أنا التي سمعتها في ذلك المساء عندما زَفَّت الخبر لوالدي وعلمتُ بقرارهما بالامتناع عن زيارة القرية لذلك الصيف، كان حزني كبيرًا ليلتها لأني لن أسافر إلى اللاذقية حيث أمضي الصيف عادة مع ابن خالتي غدير، لذلك بدا الصيف حزينًا جدًا إلى أن ظهر عمار في الحي.

وفي ذات الموعد لصيف كامل، كل خميس، وبينما ألعب مع أولاد الحي، يعبر بنا عمار رامقًا إياي بنظرة تعريني، تقبض على روحي للحظات تقذفني عاليًا لأحلق مع سرب الحمامات التي يربيها جارنا، ثم أعود إلى الأرض سعيدة بلهاء.

كنت أنتظر مروره لأعيش مرة أخرى هذا الشعور الغريب الذي لم أشعره في حياتي، وهكذا بات مروره بي كل خميس، طقس أنتظره بشوق، يعبر، يرمقني بنظراته، أموت للحظات ثم أعيش، لأعود للعب مع أولاد الحي مرة أخرى .

مضت أسابيع عدّة قبل أن أسمع صوته للمرة الأولى، اقترب مني بطوله

الفارع وعيناه الساحرتان، تحركت شفتاه بينما تبسمرتُ في مكاني

- انتي ليلى بنت أم ليلى

أجبته بلهفة وسعادة

- بتعرف أمي؟

- طبعًا هي جـــارة أختي المفضلة في الشام وأهلها جيران أهلي في الضيعة

ابتسمت له والتزمت الصمت .

زادت أحاديثنا المقتضبة في ذلك الصيف، إلى أن أخبرني يومًا بلحظة خاطفة

- انتي كتير حلوة، بتتزوجيني؟

وأذكر أنني طرت عاليًا وحلّقت مع سروب الحمام ولم أعد إلى الأرض إلا بعد أن فات الأوان .

مضى ذلك الصيف سريعًا وعدنا إلى المدرسة، وفي أول يوم دراسي لي، انتظرني أمام باب المدرسة فبدى كأبطال القصص بل أجمل، بهندامه العسكري وسماره المعتق وعينيه التي لم أرى أجمل منهما، ورحنا نسير سويًا للحظات مسروقة قبل أن تخرج إخوتي من المدرسة ويشاهدننا معًا .

أخبرني يومها أنه أخبر أخته عن حبه لي وأنها ستزور والدتي كي تطلب

يدي للزواج، تسارعت نبضات قلبي، كدت أختنق لسرعتها، تلبّكت، ابتسمت خجلًا، والتزمت الصمت كعادتي.

أذكر ردّ والدتي جيدا لأخته عندما زارتنا في ذلك المساء لتطلب يدي لأخوها عمار

- ليلى ماتزال طفلة هي لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، وأمامها الطريق طويل قبل أن تصبح جاهزة للزواج، تعلمين جيدا يا أم علي أني لن أقبل بتزويجها في سن مبكرة، أريدها أن تتابع تعليمها وتدخل الجامعة، هذا ما تتمنينه لبناتك أيضًا، أليس كذلك؟

صمطت أم علي لدقيقة قبل أن تهز رأسها في إشارة لموافقتها لكل ما تقوله والدتي.

عندما غادرت جارتنا المنزل، استغربت والدتي جدًا من طلبها، فهي تعرف والدتي جيدًا وتعرف كم تعقد آمالا عريضة عليّ بالتحديد، ولكنها رغم ذلك لم تشغل بالها بموضوع اعتبرته منتهيًا وغير قابل للنقاش حتى.

كلا... كان جوابها مرفقًا بامتعاضة ونقطة في آخر السطر.

وكان أيلول خفيفًا كعادته، أنا وأخواتي صباحًا في المدرسة، أبي في عمله وعندما نعود، نتناول الغـداء، قبل أن تبدأ والدتي بتجهيز صينية العلكة والبسكـوت للتتوجه نحو الشارع العام حيث يمكنها البيع والاسترزاق.

كانت ماما إمرأة جبارة، في موسم الزيتون هي أول من يصل القرية

مستعدة لقطاف الموسم، وأما في باقي الأيام فهي تسعى دون يأس لتحسين الأحوال المادية فتعمل تارة كخياطة، تارة كبائعة.

لم أشعر يومًا بأننا فقراء، ولم أعرف ما يعنيه أن تكون فقيرًا، كان طبق القش الذي نلتف حوله يوميًا عند عودة والدي من العمل غنيًا بالطعام اللذيذ الذي لم يعنينا يومًا افتقاده لللحم أو الدجاج، مطبق باذنجان وبطاطا، فول مقلي بالزيت والتوم، فاصوليا خضراء مع اللبن والكثير من الخبز القادر على ملء بطوننا حبًا واكتفاء.

وأما والدي فقد كان رجلًا كريمًا، يأتي المنزل دومًا محمّلًا بالأشياء، ليمون حامض، تفاح، بندورة وخضار أخرى شهية، وأما فاكهتي المفضلة فقد كانت الليمون الحامض مع الملح، أعلم أنها ليست فاكهة ولكنها لذيذة وتكاد تكون أشهى من الفاكهة حتى.

كان والدي هادئًا جدًا وكنا نحبّه ونخشاه، صامت دومًا ومبتسم، وقور ذو هيبة، وكثير العبادة، يقرأ في القــرآن يوميًا ويدعو لله بأن يحمي بناته.

في أحد الأيام سمعتْ والدتي من أولاد الحي أن عمار يزور مدرستنا، ويتحدث إليّ، فاشتعلت النار في صدرها وأظنها رغبت جدًا بأن تمسكني وتبرحني ضربًا، لكنها عوضًا عن ذلك بدأت بالصراخ، فهربتُ نحو زاوية الفسحة السماوية لبيتنا والتزمتُ الصمت منتظرة منها أن تضربني

- هذا شاب أزعر، يريد أن يتسلى بك ويدمر حياتك، لو أن لديك خبرة في

الحياة لرأيت الخبث في عينيه ولكنك طفلة حمقاء وطيبة كوالدك، أقسم بالله أن أخبر والدك كي يبرحك ضربًا

خفت كثيرًا يومها من ضرب والدي لي، والدي الذي لطالما أحبني وغمرني بحنانه، هو لم يضربني يومًا هذا ما قلته في قلبي، ومجرد تفكيري بأنه قد يضربني كاد أن يخنقني.

عندما عاد بابا من العمـــل في ذلك اليوم، التففنا جميعًا حول صدر القش لتناول الطعام، أذكر تمامًا غداء ذلك اليوم، فاصولياء خضراء مقلاة بزيت الزيتون والثوم وبجانبه زبدية لبن رائب، صحن خضار مملوء بالفجل والبصل، لا تزال نكهة الفاصولياء تلك تحت لساني، لا بل ما زلت أستحضر تلك اللحظة في كل مرة أتناول فيها الفاصولياء المقلاة بالزيت والثوم، هي لقمة تلك التي تناولتها قبل أن تخبر والدتي أبي عمّا حدث، فنظر إلي نظرة آلمتني قبل أن يلقي كفه على خدي ويصفعني بكل ما أوتيَ من قوة.

جرحني كفّه كثيرًا، لو أن أمي أشبعتني ضربًا ما كنت قد حزنت كحزتي يومها من كف والدي، والدي الحنون الطيب الذي لم يصرخ في وجهي يومًا، ولم يوبخني يومًا، ولكنه يومها صفعني بكل ما أوتي من قهر، فغادرت الطعام وانسحبت إلى الفرشة الوحيدة التي اعتدنا النوم عليها في الغرفة ذاتها ، واجهشت بالبكاء.

المزّة - 1990 - عدنان - وحيد ومدلل

اعتاد عدنان على أن ينام حتى منتصف النهار، وكانت والدته تموت غيظًا لرؤيته يفترش السرير الخشبي المتوسط الحجم والذي زين مؤخرًا غرفة النوم اليتيمة معلنًا أن الحضارة قد تمر في دروب الفقراء مهما أبعدتهم عنها المسافات.

كان سريرًا طبيعيًا ولكنه يتجاوز في مضمونه هذا المعنى بكثير، فالشعور الذي يمنحه لعدنان يكاد يتجاوز كونه سريرا، فهو المستقبل الذي يحلم بتحقيقه، هو الحب الذي يحلم بعيشه، هو الأمان الذي يتمنى امتلاكه وهو الشعور بالرفاهية التي لم يعرف عنها شيئًا . . .

احتكر عدنان السرير لنفسه دون أي اعتراض من الجدة التي تعرف جيدًا أن ابنتها أمل لا تأبه لهذه الأشياء، فقد اعتادت منذ طفولتها على النوم على الفرشة الصوف التي تعتلي السرير الحديد قرب والدتها، دون أن تكترث يومًا لكوْن الفرشة الصوف تفترش الأرض، سريرا من الحديد أم سريرًا خشبيًا، فبالنسبة لها، لن يتغير ملمس الفرشة ولا قساوتها بتغير السطح الذي تفترشه، بل ستبقى قاسية متكتلة، ولن تلين إلا بضربات الجدّة التي تعمد كل صيف إلى فك الفراش الإسفنجي وتشميس صوفه بعد أن تنهال عليه ضربًا بعصاة من الخشب، وكانت تلك عادة موسمية عند كل نساء الحي اللاتي ينتظرن الصيف كي يعتمرن أسطح البيوت ويفرغن

طاقاتهن السلبية، فقرهن، رغباتهن المدفونة، وربما أحلامهن المعلقة في ضرب الصوف لتفتيته ثم إعادة تعبئته في الفراش الذي يبقى طريًا لأشهر قليلة لا أكثر قبل أن يعود صوفه إلى التكتل والعصيان من جديد.

وأما السرير الخشبي فقد كان هدية ليلى البنت الأكبر للجدة والتي كانت ميسورة الحال مما زاد عطاياها لوالدتها في السنين الأخيرة، فهي من اشترت مدفأة المازوت وطنجرة التيفال المخبأة في الخزانة الخشبية، وطقم صحون الروميو والجولييت المخبأ لعرس أمل، وغيرها من الأشياء الأخرى الكثيرة التي لم تستعمل بعد.

كان عدنان طفلا مهــذبًا جميلًا ومدللا، وأما دَلالهُ فقد جاء كنتيجة عفوية لكونه الصبي الوحيد وآخر العنقود لأسرة مؤلفة من خمس فتيات، تقول الجدة أن قدومه كان هدية إلهية بعد كل ما قاسته في حياتها خصيصًا في ذلك العام الذي ولد فيه عدنان .

ولد عدنان قبل أن تكمل والدته الشهر السابع في حمله، ولد سبيعيا كما يقولون، في ديسمبر كانون الأول من عام 1970 فقد كانت رغبتها في إنجاب الصبي شديدة وقوية وملحة لسنين، باستثناء السنة التي ولد فيها والتي كانت سنة سوداء على الجدّة حتى أنها نسيت فيها تماما كم رغبت بإنجاب صبي. ولأنها نسيت أمنياتها في ذلك العام، نسيت أحلامها، لأنها قاست وبكت ويأست وتعذبت كافأها الله بعدنان تماما في ٣٠ كانون الأول أي قبل أن ينتهي ذاك العام الأسود بيوم واحد لا أكثر.

عندما ولد عدنان، كانت قد يأست الجدة من التربية بعد تربيتها لخمس بنات، وبعد أن ثبت لها تماما فشلها كأم بهروب ليلى من المنزل، لذلك هي لم تربي عدنان بل سيطرت عليه سيطرة كاملة حارمة إياه كل شيء في هذه الحياة، بدءًا من اللعب والتسلية في الحارة، انتهاء بدروسه وواجباته. ومع ذلك الحزم المطلق كان هناك في الجهة المقابلة دلع مفرط فلم يعتد يومًا على أن يزيل صحنه بعد أن ينهيه ولا أن يلقي القمامة في الحاوية عند مدخل الحارة، أو حتى أن يجلب بيجامته وحذاءه من الخزانة بل كان يجهل كل شيء حتى مكان كؤوس الماء في المطبخ، لأنه وببساطة اعتاد على أن يحصل على الماء حتى قبل أن يطلبه، كيف لا وقد كان الأخ الأصغر لخمسة فتيات وإن كان لم يبقى منهن إلا أربعة عند ولادته.

وهذا التناقض بين حزم الأم ودلال أخواته له صنع منه شابا لا يعرف ما يريد في الحياة، كسولًا خمولًا عاجزًا حتى عن قتل ذبابة.

ولذلك وبعد أن أنهى دراسته في الثانوية بمعدل قليل اختار أن ينام، طويلًا وطويلًا ليلًا ونهارًا وكأن النوم متعته الوحيدة مؤنسه الوحيد وهدفه الوحيد .

فيينا -2021 – حلي والحب

هو الحب الذي انتظرته لسنين، قلبي الذي لم يسلبه أحد كان هو القلب الذي أصبح ملكًا له وبالمجان، كيف لا وقد جاء على قياس أحلامي، مفصلًا كي يكون حبيبي، الشاب الألماني المنفتح، الراقي والحنون، الرجل الذي تمنيته زوجًا وحبيبًا ووالدًا لأطفالي، وهو ذاته الزوج الذي خنته بعد عشر سنين من زواجنا.

من يصدق ؟!

تزوجنا، الشاب الألماني الغني الذي زادني جمالا وزهوا، الذي رفع درجاتي بنظر الجميع حتى أصبحت مَضْرَب مثل بالذكاء الدراسي والإجتماعي على حد سواء. كيف لا وقد خطفت الملياردير الأوروبي، العريس اللقطة كما تدعوه الحاسدات والصديقات والمحبات على حد سواء.

تزوجنا وأنجبت طفلين ألمانيين بروح سورية، جميلين، وعشنا سنينًا رائعة من السفر والشياكة والرحلات والأوتيلات والهدايا والفرط، فرط من كل شيء إلا شيء واحد، لو سألتموني عن مشاعري قبل شهر واحد لقلت بأنني أسعد امرأة في هذه الدنيا، وقد أخشى أن أحسد نفسي لفرط سعادتي، لكن الحياة المتقلبة والتي لا نتوقعها في معظم الأوقات، القادرة على إذهالنا في كل مرة، أذهلتني، بل صبرت علي عشر سنين كي أراها جيدا، أمضيت

سنين كأسعد زوجة قبل أن أفتح عيني وأبصر العكس ... أذهلتْني حقًا هذه الحياة.

على ما يبدو أن حياتنا لا تتغير بل ما يتغير هو نحن وكيف نرى ونعيش هذه الحياة، فنحن من نتفاءل تارة ونحن من نكتئِب، نحن من نُغرم بالأشخاص الخطأ ونحن من نخون من أحبنا، ونحن من ندمن على الأشياء السيئة، نحن من نثرثر ونؤذي أنفسنا بثرثرتنا، ونحن من نندب حظوظنا ونرفض تغييرها، نحن من نضحي ونبكي على تضحياتنا، في الحقيقة نحن الحياة التي نصنعها لأنفسنا في كل مرة وعند كل زمن....

لذلك وعندما اتخذت القرار بأن أرى حياتي عن كثب وجدتها خاوية، خاوية من الروح ومليئة بالمادة، المادة التي نركض جميعًا ورائها ناسيين كم يعني أن يكـــون لحياتنا معنى.

لم يكن هناك ما يجمعنا أنا وزوجي على الإطلاق، حتى أن سعادتي بأن خلافاتنا قليلة ومشاكلنا قليلة لم تكن إلا حماقة، فكيف نختلف وليس هناك ما يجمعنا أساسًا، ذاكرتنا مختلفة، ذكرياتنا مختلفة، رائحة الطعام السوري الشهي المطبوخ بزيت الزيتون لا تعني له شيئًا، وطعامه المفضل لا يغري شهيتي، يستمع معي إلى فيروز على مضض ويشعر بأنها تنوح لا تغني، لكنه يسايرني فقط بالاستماع إليها صباح كل يوم وإن طَرِبت لجملة من أغانيها استهجن سعادتي وعجز عن فهمها، لا يمكن أن تجمعنا أمسية في رمضان فأنا أعشق التسمر أمام التلفاز لمتابعة المسلسلات السورية

والعربية بينما يحاول أن يجد ما يلهي نفسه به إلى أن ينتهي الموسم الرمضاني الذي لا يلامس قلبه وذاكرته ولا يعنيه حتى ولو حاول مجاملتي بالصيام ليوم أو يومين.

عشقه للتنس لم يحرك في إلا عضلة أو عضلتين بينما ظلت مشاعري إتجاه تلك الرياضة -التي عجزت عن ممارستها- مشاعر واهنة وغير محسوسة.

ومؤخرًا توقفنا عن مسايرة بعضنا بما يستهوينا فبات لكل منا وقته الخاص واهتماماته الخاصة، فأصبحنا خَطَّيْن متوازيَيْن لا يلتقيا، لديه عمله الطويل، ثم ملعب التنس الذي يمضي فيه ساعات في التمرن، ثم فيلم ما على نتفليكس، ولدي دوامي الطويل، احتياجات الأطفال، حتى أننا توقفنا عن تناول الطعام معًا منذ سنين لأن مواعيد عملنا لا تسمح لنا بأن نلتقي حتى في يوم العطلة، كان رجلًا مسالما هادئا قليل الكلام، يسايرني في كل قراراتي وقليلا ما نختلف، بينما كنت أنا كتلة نار متقدة أحب أن أضحك بصوت عال، أرقص، أسافر، وهو ما جعله يغرم بي في البداية، فأخذنا نسافر سنويا لزيارة بلاد مختلفة، زرنا إيطاليا، سويسرا، فرنسا، كندة، كما زرنا الكثير من البلاد الأسيوية التي لطالما عشق طقسها الدافئ وطعامها اللذيذ كتايلاند والمالديفز والسيشل.

وأما الأولاد فقد كنت الآمر الناهي في كل ما يخصهم بدءا من المدارس إلى النوادي انتهاء بلباسهم وطعامهم وجدول نومهم. أستطيع أن أقول إني

عشت مع زوجي سنينًا من السلام والسعادة المطلقة، ولكن السلام الذي عَنْوَنَ حياتنا تحول فجأة إلى السبب الرئيسي لكرهي للحيـاة التي أعيشها.

دمشق – 1970 – ليلى والحب

كانت دمشق في ذلك العام تعيش زَهْوَهَا وجمالها كعاشقة، تجذب الناس إليها من كل أقصاع سوريا، كانت حلمًا لكل سوري من شمالها لأقصى جنوبها .

وكنت أعيش الحب بدوري، فتتالت زيارات عمّار إلى مدرستي رغم توبيخ والدي لي، وذلك الشعور العابر بالسعادة بات الشعور كله الذي يتملكني، أنا الطفلة التي لم تكمل الرابعة عشرة من عمرها بعد، كنت أعيش الحب بكل معانيه العميقة، أبكي سرًا عندما لا يأتي، وأذوب لمجرد رؤياه، أتلهف للقائه، أراه في منامي وفي يقظتي، أشرد في معظم الأوقات وحتى عشقي لأكل الليمون الحامض مع الملح تلاشى مع كل مصادر سعادتي الأخرى ليبقى هناك عمّار المصدر الوحيد لكل سعادة الأرض في نظري.

كان جميع أبناء الحي الذين يلعبون معي من الفتيان، وكنت ألعب كالصبيان، أرمي الكرة، أفوز في السبع حجارات، أجري وأصرخ وأُلاكم، كنت مصبينة -كما يقولون-ولكنني تغيرت بعد عمّار، أبقى وحيدة على زاوية بيتنا أجلس على المصطبة أراقب الناس وأترقب عبوره، وأما صبيان الحي فلطالما استغربوا من تصرفاتي الغريبة وبرودي وعدم رغبتي بمجاراة ألعابهم الصبيانية..

هكذا مضى أيلول غريبًا على غير عادته، وجاء تشرين، بدأ الطقس بروده

المعتاد فلملم الخريف أوراقه البنية ونسيمه اللطيف مفسحًا المجال للشتاء المثلج القاسي، الشتاء الذي دخل حياتنا دون أن يغادرها.

في تشرين الأول، وبعد يوم طويل في المدرسة، وجدت عمّار بانتظاري، مرتديًا بدلته العسكرية، واقفًا يستند إلى السور، اقترب مني ما إن رآني، راح قلبي يتراقص فرحًا ورهبة، فرحًا بالحب وخوفًا من الحب ذاته.

ذاك الشعور الغريب من الغبطة والمرارة، النشوة والألم، مزيج من نقيضيْن يتملكني في كل مرة أراه بها.

قال لي يومها "لنتزوج" كلمة واحدة نطقها من شفتيه ثم صمت.

ابتلعت ريقي وتوقف نبض قلبي

- سأنتظرك مساء عند الساعة السابعة عند نهاية الحي وسنهرب سويًا ونتزوج نتزوج ... كلمة في آخر السطر غرسها في قلبي ومضى دون أي إضافة.

لم أعد يومها إلى البيت سيرًا على الأقدام بل مشيت على قلبي وروحي ومخاوفي وسذاجتي وطفولتي وحياتي وهشمت بخطواتي كل ما كان مقدرًا لي ولعائلتي.

وصلت المنزل دون أن أكلم أحدا، كانت والدتي مشغولة بإعداد بسطة العلكة المهربة التي ستذهب لبيعها على الأتستراد بينما جلسن أخواتي يلعبن بقربي، قالت لي أمي قبل أن تغادر

- اهتمي بأخواتك ريثما أعود

كانت كثيرة العصبية في تلك الأيام ممتلئة بهموم الحياة، متعبة من تربية البنات ومن الحَبَل والخوف من إنجاب ابنة سادسة، ومن عجزها عن إنجاب صبي يخلف هذه العائلة. لقد أرهقتها تعليقات الناس، دعائهم المتواصل لها بإنجاب صبي، آلمها النقص الذي لا يرى الناس غيره في حياتها وكأنه سقم ينبغي علاجه فلا يكفون عن الدعاء لها بالشفاء.

كان لي أربع أخوات من البنات، وكنت أعرف تماما أن الكَدْر الذي ينعكس على وجه والدتي ماهو إلا بسببنا، خمس بنات في مجتمع يقدّس الرجال، كانت أمل وهي أصغر إخوتي ما تزال في عامها الأول، تعلمت السير مؤخرًا في ذلك الصيف فباتت مصدر سعادة لنا جميعا، نلعب بها ومعها، فتحولت إلى الدمية التي نحلم بالحصول عليها، وبدلا من حصولنا على دمية من الصوف، كان لدينا أمل دميتنا الوحيدة والحقيقية، تبكي فنضحكها، تضحك فنضحك معها، نتراقص حولها فرحين بها وبحركاتها وأما أنا فلقد كنت سعيدة بالمسؤولية التي حملتها صغيرة، أهتم بأمل أركض ورائها، أحميها، أغير حفاضها، أطعمها إن جاعت وأهدهد لها كي تنام، كل ذلك وأكثر بينما والدتي في عملها ووالدي يستلقي في إحدى زوايا المنزل يطالع الكتب أو يقرأ القرآن.

اعتدنا على الجلوس جميعا في تلك الغرفة التي ندعوها بيتنا، جدران

مصنوعة من التبن والمفروشة بفرشتي صوف كبيرتين، واحدة لنا وواحدة تتشاركها والدتي مع أبي وأمل. رائحة تلك الغرفة الرطب لا يزال يسكن قلبي ويعبق حنينًا بذكريات سنين تمنيت لو لم أمحوها.

ذهبتْ والدتي يومها إلى العمل والتزمتُ البيت مع إخوتي، كان مساءً طويلا مرت دقائقه ببطء شديد، كبرت فيه دهرا أو أكثر، بينما أفكر ب عمّار أتخيل نفسي في أحضانه نستمع لأغاني محمد عبد الوهاب، ثم أتخيل نفسي في المطبخ أجهز له طبق المجدرة ونتغدى معا، ثم أرى نفسي أغفى بين يديه .

..*.*.*

المزة - 1990 – المهندسة أمل

اسمي أمل، الاسم الذي اختاره أبي لي على أمل أن يحظى بصبي من بعدي، وأشكر ربي أنه لم يدعوني "كفى" وهو اسم إحدى صديقاتي في المدرسة الإبتدائية والتي كانت الابنة الثالثة ل رجل يكره البنات، وعندما ولدتها أمها أطلق والدها عليها اسم "كفى" وكأنه يهدد الله بعدم إرسال مزيد من البنات، ولكن الله لم يستجب لتهديده وأنجب ابنة رابعة بعدها ثم تزوج امرأة ثانية لتنجب له الصبيان، ولا أدري إن كان قد حظي بصبي بعد ذلك لأنهم تركوا المزة في ذات العام فلم أسمع أخبارها بعد ذلك.

كنتُ الابنة الخامسة في عائلتي، غير أن أبي لم يكره البنات، ولم يتزوج بامرأة ثانية، لقد أحبنا جميعا، إلا أنه تمنى أن يحظى بصبي كي ينهي انتقاد الناس له وكي يرتاح بوجود ذَكَر وسند لبناته، لذلك أسماني أمل وبقي معانقًا الأمل الذي لم ييأس منه أبدا...

ولدتُ وعشت حياتي كلهـا في بيتنا الصغيـر في حي المزة، الحي الذي لطالما أحببت، كانت طفولتي هادئة من دون مشكلات تذكر كذلك كانت مراهقتي، ولطالما كنت مقربة لوالدتي، فلم أعصي لها رغبة يوما...

وهكذا أمضيت حياتي كلها كظلها، أنفذ ما تطلب وأتبنى ما تقول، حتى أنني لم أكتسب الكثير من الصداقات في حياتي لأن والدتي كرهت الصديقات منذ أن طعنتها جارتنا أم علي في ظهرها، كان ذلك في عام

1970 عندما أكملت عامي الأول.

احتل أولاد أختي ليلى جزءًا كبيرًا من طفولتي ومراهقتي وشبابي، فكبرنا معًا وشكّلنا فريقًا مدهشا برفقة عدنان أخي الذي يصغرني بعامان، نقرأ القصص، نتشارك الأسرار، نروي الحكايات المرعبة ونلهوا، ولكنني كنت مُقرَّبة من قيس، لأنه يعرف اهتماماتي جيدًا. ما إن تشتري أختي ليلى له قصة حتى يقرأها ويحضرها لي كي أقرأها بدوري، لكننا لم نلعب قط مع أطفال الحي الآخرين، لأن أمي منعتنا من اللعب في الحي، فلطالما قالت أن أولاد الحي ليسو إلا مجموعة من الأولاد قليلي التهذيب، لذلك اعتدت الجلوس بقربها على المصطبة في المساءات الصيفية الحارة دون أن ألعب مع أحد منتظرة زيارة أختي ليلى وأولادها كي ألعب معهم حيث نلهو بكل ما هو متوفر في حياتنا، ابتداء من بذور الزيتون المأكول التي كنا ندعوها "بونبون" إلى أوراق الشجر التي كنا نصنع منها غلاف للبونبون، إلى السبع حجار والطميمة " الغميضة" ودقة عيش "الشرطي والعساكر" وغيرها من الألعاب الكثيرة التي لم نسأم منها قط.

لطالما كان قيس وناجي نافذتنا إلى الحياة، فحين اشتروا جهاز الفيديو الذي كان أجمل اختراعات الثمانينات، كنا نرجو والدتي أن تسمح لنا بزيارتهم لنتابع الأفلام الهندية، كنت أجلس معهم مبهورة بالإختراع الجديد الذي دخل حياتنا وغيرها تماما

ومن بين جميع أحفادها، كانت والدتي تُميز طفلًا واحدًا فقط هو ناجي

الابن الأوسط لليلى، والتي لطالما أعجبها ذكاءه الحاد وشخصيته القوية، كنا جميعا هادئين ومتزنين إلا ناجي فقد كان يشع فطنة بشخصية مستقلة وحس فكاهي، مما جعل والدتي تستمتع باستفزازه بينما يتجاوب معها دون أن يستسلم أو ييأس، ولعل والدتي تمنت بقلبها أن يكون أخي عدنان كناجي ولكن الوراثة كانت اللاعب الأشرس في تكوين شخصية كل منهما.

المزة - تشرين الأول 1970 -

ليلة هروب ليلى

تمامًا عند الساعة السابعة مساء، بعد أن عادت والدتي من العمل وانشغلت بإعداد العشاء في المطبخ، وبينما كان والدي مستلقيًا على الفراش الصوف وأخواتي يلعبن بقربه، اتخذت أول وآخر وأصعب قرار في حياتي.

ارتديتُ معطفًا من الصوف الخفيف سكري اللون فوق البيجامة الخريفية التي كنت أرتديها، وَضَّبْتُ شعري وشددته للخلف، لبست حذائي بحذر شديد، فتحت باب الدار، وهربت.

كان الجو باردًا وكأن تشرين يعلن عن شتاء قارس بسماءه البنفسجية اللون، وغيومه المتفرقة المحتارة في وجهتها كحيرتي تمامًا لحظتها.

انتشرت رائحة زيت القلي المنبعثة من بيتنا معلنة أن الباذنجان والبطاطا المقلية بزيت الزيتون ستكون عشـاءنا لذلك المساء.

سرت بخوف في الشارع محملة بكل المشاعر المضطربة، وأما الطريق القصير المؤدي لرأس الحارة فقد كان طويلا جدا قطعته بترددٍ تام بينما راح انقباض عجيب يسيطر على أسفل بطني فراحت نبضات قلبي تتسارع، قُرعت الطبول في صدري الذي راح يعلو ويهبط رهبة وخوفًا ....

ما إن وصلت نهاية حارتنا حتى رأيت عمّار، لم أدري إن كانت رؤياه قد أراحتني أم آلمتني، لعلي تمنيت أن أذهب ولا أجده فأعود إلى منزلنا طفلة والدتي الناجحة والذكية، ولعلني تمنيت أن أجده فأهرب وإياه لأعيش الحب الذي أسمعه في أغاني أم كلثوم وأشعر بألحانه تتغلل بداخلي.

كان هناك واقفًا بعينه اللوزتين وجسده النحيل وقبعته العسكرية التي يرتديها في كل الأوقات، ابتسم لي عندما رآني وأمسكني من كتفي، فبدأت أرتجف من البرد وراحت أسناني تصطك وركبتي تتراقصان رهبةً، نظر في عيني وقال "ليكي لا تخافي من حدا طالما انتي معي".

نظرت في عينيه لأول مرة بينما راح جسدي يرتجف ويداي تهتزان دون أن أتمكن من النطق بأي كلمة، وسار بي نحو السيارة التكسي التي أقلتنا نحو اللاذقية.

..*.*.*

المزة - 1990 – الجدّة - لكلّ معضلة حل

كانت الجدة تسير باتجاه دكان الصوف الواقع في أطراف مابقي من أحياء المزة القديمة، فقد بدأت الحكومة السورية في تلك الفترة بمصادرة بيوت التراب التي كانت على قانون استئجار قديم وتعويض ساكنيها بمبلغ مادي مقبول، ثمّ بدأت بتشييد برجيات راحت تنتشر في أطراف استراد المزة.

كانت الجدة تشعر بضيق شديد في صدرها لذلك قررت السير قليلا للتفكير جيدًا بما يمكن عمله لـ عدنان، وبينما تسير، عَبَرَ بِهَا ابن جيرانهم الذي كان في عمر عدنان تقريبا، ابتسم للجدة وابتسمت له، ثم قالت:

- مبارك نجاحك بالشهادة الثانوية، ما التخصص الذي تنوي دراسته في الجامعة

- الله يبارك فيكي يا خالتي، والله أنا أفكر بالانضمام للكلية الحربية

اخترقت كلمة الكلية عقل الجدة كطلقة انعاش، شـردت قليلا، ثم سألت:

- هل تحتاج إلى معدل عالي كي تدرس في الكلية الحربية؟

- هناك يوم للتقديم ثم يختارون منا الأقوى والأذكى

ابتسمت الجدة

- الله يحمي شبوبيتك، لن يجدوا أقوى ولا أذكى منك

أضافت

- متى موعد المقابلة؟

- بعد ما يقارب العشرون يومًا، ولكن ينبغي التقديم حالا قبل أن يغلقو باب التقديم

أَصْغَتْ الجدة جيدا لكلمات الشاب، شكرته وعادت أدراجها نحو المنزل بخطوات متسارعة بظهرها ألحان بينما تتقافز الأفكار في عقلها كالقرود على أغصان الشجر.

وصلت المنزل، وجدت عدنان يفترش السرير، هزت رأسها ممتعضة وأطلقت زفرة قوية، ثم راحت تتمشى في فسحة دارها جيئة وذهابا وكأنها تنتظر أحدا أو خبرا من أحد.

بعد قليل من الوقت، دخلت إلى عدنان، وسألته

- لماذا لا تقدم أوراقك إلى الكلية الحربية

ضحك عدنان الذي كان قد استيقظ للتو، وأجاب مستهزءًا

- ولماذا برأيك قد يقبلون بي، لطولي الفارع، لقوتي البدنية أم لأن والدي ضابط كبير في الدولة وواسطته تكفني

قالت الجدة

- لن تخسر شيئًا إن حاولت!

تنهنه في وجه والدته

- لا إله إلا الله، لن يقبلو بي، ليس لدي ما يؤهلني للإنتساب للكيلة الحربية

حاولت الجدة أن تطيل صبرها الذي نفذ منذ سنين

- يا ولدي يا حبيبي، دعنا نحاول وإن رفضوك لن نخسر شيئًا

بقي عدنان صامتًا والنار تشتعل في عروقه فقال بانفعال

- لن أذهب، لا أريد أن أذل نفسي للآخرين وأنا أدري جيدًا النتيجة

حاولت والدته مرة أخرى أن تتمالك أعصابها، فأخذت شهيقًا عميقًا ثم زفيرًا، محاولة عدم الإنفجار في وجهه.

خرجت واتجهت نحو المطبخ، جلست على كرسي الخيزران في المطبخ المعتم وانتظرت، كانت تنتظر فكرة، فرجًا وربما سندًا، أو رجلًا يهز هذا الشاب الخمول من كتفه ويوقظه من غيبوبته النفسية.

جلست وجسلت وجلست، حتى اهتز باب الدار الخشبي ودخلت أمل، اتجهت أمل مباشرة نحو المطبخ باحثة عن والدتها وإذا بها تجدها جالسة على كرسيها الخيزران وحيدة في الظلمة، استغربت أمل من جلوس والدتها هكذا

- مرحبًا ماما، كيفك حالك، هل أنتي بخير؟

نظرت الجدة في عيني ابنتها دون أن تجيب

استفسرت أمل

- ماما، أأنتي بخير؟

- دعيني وشأني

كان تصرف الجدة غريبًا جدًا في ذلك اليوم، إلا أنها لم تنتظر طويلا حتى حَدَّثت ابنتها عن كل ما يجول في خاطرها، وقررت أن تعطيها كل أوراق أخيها المطلوبة للتقديم على الكلية الحربية، وما على أمل إلا أن تقدم له طلبا للإلتحاق.

- كيف سنقنعه بالذهاب إلى المقابلة؟

أجابت الجدة:

- الحل بيدي الله

..*.*.*

فيينا - 2021 – الدكتورة حلي -

الحب بنكهة القهوة

كان الجو ربيعًا، وما أجمل ربيع فيينا، وكم ضعيفة أنا أمام الربيع...

خرجتُ يومها من باب المستشفى مبكرًا واتجهت نحو أقرب مقهى، كنت متلهفة لكوب من القهوة أحتسيه في ذلك الجو اللطيف من موسم الربيع القصير هنا.

لدي حكايتي الخاصة مع القهوة، فأنا لا أشرب القهوة للذتها ولا لتأثير الكفايين في خلاياي، بل أشربها لأن إمساكي بكوب القهوة، وفي كل مرة، يخلق بداخلي ذلك الشعور الغريب بالرضا، وبأن ما أعيشه الآن كان حلمًا يومًا ما، أنا الطبيبة التي تعيش في بلد أوروبي، أخرج من المشفى على عجل لأحتسي القهوة الخالية من الكافايين المخفوقة بالحليب الخالي من الدهون، مزيج من الكلمات التي تبعث الدوبامين إلى أعلى مستوياته مذكرة إياي بأنني المرأة المستقلة التي حلمت بها يومًا ما.

كل أحلامي هذه خلقتها هوليوود، وبطلات هوليوود المتمكنات والمستقلات، ويبقى السؤال أي حلم ستخلقه هوليوود الآن في قلوب وأفكار أطفالي بينما تعج أفلامها بالشذوذ والعنف!

في ذلك اليوم خرجت لأحتسي القهوة بمفردي، فجلست على أحد

الكراسي المطلة على شارع شليتر غاسيه الجميل الذي لطالما عشقت بنيانه القديم، وعشقت رائحة القهوة اللذيذة التي تنبعث من مقاهيه. وبينما كنت أمارس طقسي المفضل في هذه الحياة، شعرت بنظرات أحدهم، رفعت رأسي ورأيت زميلي في المستشفى ويدعى الدكتور سام، كان سام أحد أجمل الأطباء في مشفانا، طبيب سوري طويل القامة، أنيق فوق العادة، جنتل مان حقيقي، متزوج ولديه ثلاث أطفال.

قابلت زوجته صدفة مرة بينما كنت أتجول في أحد المراكز التجارية قبيل الكريسماس وصدمني فرق الجمال بينهما، كان قمرًا يشع بجانبها بينما أفضل مايمكنني قوله عنها أنها غير جذابة، ربما شقراء بعينين ملونتين لكنها غير جذابة، لم يشغل تفكيري يومها ذلك الفرق في الجمال ونسيت الموضوع مباشرة، بينما تابعت علاقتي الرسمية مع سام في العمل.

سام الذي يخلق في كل يوم مناسبة ليتغزل بجمالي، أناقتي، هدوئي، ابتسامتي، ذكائي، في كل مرة أصادفه فيها أسمع كلمة جميلة وربما كلمتين، أبتسم له مجاملة وأمضي وكأن ما سمعته لم يتعدى كونه مجاملة منمقة من زميل في المهنة.

وأما يومها في المقهى، فقد ألقى تحيته علي، رمقني بابتسامة جذابة، وجلس على طاولة أخرى ممسكًا كوب قهوته بيد والهاتف المتحرك بيد أخرى، شعرت أني قد أكون فظّة إن لم أدعوه للجلوس معي، فنحن طبيبان متمدنان ومن الطبيعي جدًا أن نتاول كوبا من القهوة معًا، نظرت إليه،

ابتسمت مجاملة وقلت – إن كنت لوحدك، تفضل للجلوس معي نتشارك القهوة معًا

ابتسم لي بدوره، وقف وأمسك بكوبه ثم جاء للجلوس بقربي، جلسنا معًا، تحدثنا قليلًا عن العمل، عن الغربة، عن أولادنا، وعن الحياة.

كان الطقس يبعث على السعادة، وببساطة شديدة أسعدتني صحبة هذا الطبيب الجميل، فلم أشعر بأنّ ساعة كاملة مرت بتلك السرعة.

تشكَّرته على الاستراحة الجميلة وتشكَّرني بالمقابل على هذا الوقت الممتع، ومضينا في طريقين مختلفين، غير مدركين أن طرقاتنا تقاطعت سلفًا وأن هنالك طريقًا واحدًا فقط بانتظارنا ...

..*.*.*

فيينا - سام - طبيب سوري جميل

قَدِم سام من سوريا في عام ٢٠١١، تماما عند بداية الأحداث المأساوية، كان الأول على دفعته في جراحة القلب، ومنذ بدأ الربيع العربي في البلدان الشقيقة، اتخذ قراره بالسفر للحاق بخاله محمد الأستاذ في الهندسة المدنية والذي كان قد غادر سوريا منذ عشرين عامًا بعد أن تزوجت حبيبته من رجل آخر.

وهكذا درس سام اللغة الألمانية في معهد اللغات في المزة ثم ساعده خاله على التقدم بأوراقه للسفارة النمساوية، وهكذا لحق سام بخاله وعاش لديه في سنته الأولى في فيينا.

وكأي طبيب سوري يطأ أرض أوروبا، كان عليه أن يدرس ويمتحن في عدد من المواد قبل أن يمارس المهنة، ولذلك وبعد عام على وجوده هناك تمكن من تعديل شهادته، فانتقل للعيش في منزل صغير بمفرده قبل أن يستقدم عروسته التي خطبتها له أمه.

وهي إحدى الفتيات الملتزمات، مهندسة، ابنة عائلة شامية مرموقة، بينما كان هو من أبناء داريا التابعة لريف دمشق.

كانت سعادة والدة سام لا توصف بإتمام هذا الزواج، لسببين أولهما: حصولها على عروس دمشقية، وثانيهما: إرتياحها لضمان زواج ابنها من فتاة من بلده قبل أن يضيع في فيينا فيمتنع عن الزواج كما فعل أخاها الذي

هاجر إلى فيينا منذ سنين فامتنع عن الزواج.

ولأن سام من داريا بينما والدته شامية -بكلمات أعمق- من داخل سور دمشق أي شامية بحق كما يقال، ما كان منها إلا أن تبحث له عن عروس شامية أيضًا، وهكذا اختالت في بحثها على الفتاة المناسبة لولدها الطبيب المغترب.

فزارت بيوتًا وتفقدت فتيات على امتداد دمشق من المالكي نزولا للمزة مرورًا بالميدان وباب الجابية والمهاجرين، ولم تقبل إلا بفتاة متعلمة وشرطها أن تكون الأولى على جامعتها تمامًا كابنها، فوقع الاختيار بعد عام من البحث على نور ابنة أحد تجار دمشق الذي يقطن في المهاجرين والتي تكمل ابنته الماجستير في الهندسة المدنية.

كانت نور -العروس التي وقع عليها الاختيار- الأولى على دفعتها وهذا ما أشبع غرور والدة سام التي أعجبت بالعروس البيضاء الممتلئة ذات العيون الزرقاء وأعجبت بعائلتها كما أعجبت بذكائها، وفعلًا تم عقد القران غيابيًا على سام الذي لم يتمكن من زيارة سوريا بسبب الأحداث التي اشتعلت فبات لهيبها يملأ الدنيا.

وتقرر أن تسافر العروسة إلى عريسها حالما تنتهي أوراق الدعوة، وفعلا أتمت العائلة مراسم زفاف صغير، ارتدت فيه نور فستانًا أبيض كانت قد اختارته بعناية من إحدى أهم دور فساتين الزفاف في دمشق، وحضرت

صديقاتها عرسها الذي اقتصر على النساء، رقصن جميعًا حولها وحسدنها جميعًا أيضا على الحظ الشديد الذي اختارها لأن تصبح زوجة طبيب في فيينا، وليس أي طبيب!

ففي البداية وعندما زفت نور خبر خطبتها على صديقاتها وقريباتها توقعن أن يكون العريس أربعينيًا، خمسينًا، عجوزًا، قصيرًا، بشعًا، مقرفًا، أي وصف قد يخفف من حزنهن على أنفسهن ولكن الغيظ الحقيقي وقع في اللحظة التي شاركتهن بها باسم الخطيب وهنا تسارعت أنامل الصبايا نحو الفيس البوك بحثا عن صفحته الشخصية، حيث وقعت الكارثة بإيجادهن صور شاب جميل ببشرة بيضاء وعيون لوزية و غمازتان تثيران الحب والرغبة، طويل عريض، مرتب وأنيق كأبطال الأفلام وزد على ذلك طبيب في فيينا .

تعذَّبت نور كثيرًا في الحصول على موافقات السفر، أولًا لأنها تدرس الماجستير والذي تخلّت عنه بسهولة مقابل العريس اللقطة، ولكن المشكلة الثانية كانت في كونها قد عُيّنت مهندسة في المحافظة أي "موظفة في الدولة" ولذلك لم تتمكن من تقديم استقالتها بسهولة، حتى أنّ موافقة الوزير على استقالتها كانت أشبه بمعجزة دفع والدها لأجلها مليون ليرة سورية بين رشاوي وهدايا، ولأن المعاملات الحكومية كانت كثيرة ومعقدة أعزت نور السبب في تعقيدها إلى الحسد الذي لا بدّ وأن كان السبب في كل التعسير الذي جرى في معاملات استقالتها.

لذلك قررت المهندسة البالغة من العمر ٢٥ عامًا فقط أن تحذف صور محبسها من الفيس بوك وأن تضع عوضًا عنه سورة الفلق، كما حذفت صورتها الشخصية وأنزلت محلها صورة عين زرقاء مكتوب تحتها جملة واحدة "ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد"، واعتزلت رؤية أي من صديقاتها والتزمت بالمنزل حتى يوم السفر.

في الصباح الباكر من يوم سفرها، ارتدت نور بدلتها البيضاء التي اشترتها خصيصًا للسفر، تنورة مكسرة بيضاء وجاكيت كم بيضاء، بينما غطت شعرها بإيشارب أبيض مزينًا بدبوس فضي اللون، كانت سعيدة جدًا يومها، ودّعت والدتها التي راحت تبكي، ودعت إخوتها الشباب الذين يصغرونها سنًّا، وانطلقت من المنزل الواقع في المهاجرين.

وبينما كان والدها يقود السيارة نحو لبنان، كانت تطير بعينيها الزرقاوان في تفاصيل سوريا التي تغادرها اليوم وستعود إليها يومًا نمساوية ومغتربة في زيارات خاطفة لا أكثر.

كان كل من يجلس في غرفة الانتظار في مطار بيروت،

يعرف بنظرة من عينيه أنّ عروسًا على وشك أن تركب الطائرة، فالطقم الأبيض الذي ترتديه والدبوس الفضي الذي يزين وشاح رأسها بالإضافة إلى الكندرة الكعب البيضاء، كلّ هذه التفاصيل وشت بأن عروسًا سورية تسافر للمرة الأولى في حياتها، وتحمل مع بياض ملابسها كل الأحلام البيضاء

التي تحلم بها مهما تغيرت التفاصيل والوجهات.

وصلت نور إلى مطار ڤِيينا بعد رحلة طويلة وشاقة، وكان في انتظارها زوجها سام الذي سيراها للمرة الأولى في حياته، لذلك وقبل خروجها من الطيارة، أخرجت مرآتها وجددت مكياجها الذي زال إثر السفر، تعطّرت ثم نزلت من الطيارة.

كان الطقس باردًا للغاية، وما إن خرجت من المطار حتى وجدت الطبيب الجميل الذي أصبح زوجها في انتظارها، كان سعيدًا جدًا بها.

لم يعرف إن انبغى له أن يغمر هذا الملاك الأبيض أم يصافحه فقط، هو ابن داريا، الشاب الملتزم دينيًا، لم يكن متمرسًا في معاملة الفتيات لذلك لم يعرف كيف يستقبل زوجته التي يراها للمرة الأولى، فاكتفى بمصافحتها وكي لا يبدو غريبًا اقترب منها وقبل جبينها، بينما أعطاها باقة الورد الحمراء التي انتقاها بحذر لهذه اللحظة.

قاد سام سيارته وبقربه زوجته التي ستشاركه الكرسي المجاور في السنين القادمة، لم يعرف كيف يخفي ارتباكه وخجله فالتزم الصمت بينما راح دماغه يبحث عن أي حديث.

وبينما يحاول دماغه بصعوبة البحث عن حديث، كانت هي تجلس بحذر على الكرسي المجاور وعيناها تحلقان في سماء البلد الجديد.

وبعد قليل من الصمت أخذ يتحدث إليها فسألها عن رحلتها واطمأنّ أنّ

كل شيء سار على ما يرام، فأخبرته باقتضاب بأن الأمور سارت جيدًا.

عندما وصلا المنزل، جالت نور بنظرها في منزلها الصغير، كان منزلًا صغيرًا للغاية مقارنة ببيت عائلتها في دمشق، صالون صغير جدًا تفترشه كنبة ثلاثية كُحلية اللون وأخرى مفردة رمادية اللون وتلفاز، وهناك غـــرفة نوم مفروشة جديدًا بسرير وخزانة في الحائط ومرآة.

كانت إضاءة المنزل خافتة، وسقفه مرتفع، لكن عفشه جديد، جلست العروس على طرف الكنبة، بعدما جالت ببصرها في أرجاء المنزل، بدت على وجهها علامات عدم الاستحسان، لم يعجبها ما رأت ولكنها التزمت الصمت، شعر سام بالإحراج من الضيف الجديد، فاستعجل بغسل يديه واتجه نحو المطبخ حيث كان العشاء جاهزًا، لقد طلب المشاوِي من أحد المحلات التركية الموجودة في فيينا، لكن اللحم قد برد فقرر أن يضعه في الفرن كي يسخن قليلا.

في هذه الأثناء خرج لعروسته وقال لها "أنتي ست هالبيت، فيكي تتفتلي فيه عراحتك وتلبسي شي مريح، أكيد تعبتي من السفر"، ابتسمت عروسه له ثم وقفت واتجهت مباشرة نحو غرفة النوم، فتحت حقيبتها ثم أقفلت الباب، تناولت ما سترتديه ثم خرجت من غرفة النوم نحو الحمام.

دخلت نور الحمام وبدأت بالاستحمام ثم ارتدت قميص نومها الأبيض الذي اشترته خصيصًا من أغلى محلات الحديقة في دمشق، وكانت قد

تخيلت نفسها مرتدية إياه مرارًا وتكرارًا.

عندما خرج سام من المطبخ ليضع اللمســات الأخيرة

على العشاء الذي أعده على الطاولة، وجد بانتظاره عروسته الجميلة مرتدية ثوب لانجري حريري وفوقه قميص أبيض طويل وشفاف، كانت تجلس بخجل عند طرف الكنبة فشعر بالدم يصعد إلى رأسه، لأنه لم يتوقع هذا القدر من الجمال، بياضٌ يلبس بياضًا، قال مرتبكًا " على مهلنا خلينا نتعشى هلّا"، فأحرج بكلماته تلك العذراء التي كانت بانتظاره، فارتبكت هي الأخرى، مما جعله يندم على ماقاله وكي يتدارك الموقف قال لها "دخيل رب هالجمال كلو" فابتسمت ليظهر صف من الأسنان الناصعة البيضاء التي ضافت لجمالها جمالًا آخر .

ضحك لها بينما راح قلبه يطرق سعادة بآية الجمال التي ستصبح له مدى الحياة "تعالي ناكول" قال لها، فتحركت من الزاوية وهي تتدلع أو أنها خلقت دلوعة وجلست بقربه وتناولا العشاء معًا.

بعد العشاء، اقترب منها واشتم رائحة الياسمين من عنقها الدمشقي المغري، فراح يقبلها بينما تتلوى بين ذراعيه، خاف عليها من ألم الليلة الأولى بعد رحلتها الطويلة، فلم يكمل وقال:

- أمامنا العمر كله، كي نستمتع بكل ما نرغب بالاستمتاع به، ما رأيك بأن تنامي وترتاحي الليلة

فشعرت نور بالخيبة، تركته واتجهت نحو الحمام، وهناك راحت تبكي وكأنها فشلت في المهمة التي أوكلت لها والتي رغبت بإتمامها كاملة قبل أن تتصل بوالدتها لتطمأنها عن كل شيء، عن وصولها سالمة أولًا وعن نجاح ليلتها الأولى ثانيًا.

لذلك مسحت دموعها في الحمام واتخذت قرارها ثم عادت مرة أخرى نحو الصالون، اقتربت منه وهمست في إذنه:

- لا أريد أن أترك الأشياء الحلوة للغد

ثم حركت جفنيها بهدوء وإثارة ورفعت عينيها لعينيه وكانت تلك هي المرة الأولى التي تتلاقى بها عينيه بعينيها، فانتشرت الرغبة في عروقه وشعر بسيخ نار يشتعل في جسده فاقترب منها واشتعل الحب في ذلك المنزل الصغير في فيينا .

اللّاذقية - 1970 - والفستق الأخضر

ركبتُ في التاكسي مع عمّار، وانطلق بنا السائق نحو جبال اللّاذقية حيث يعيش أهل عمّار، أمضيت الرحلة وأنا أبكي، لم نتبادل أي كلمة رغم معرفة السائق بالموضوع فقد كان صديقًا ل عمار في الثكنة العسكرية التي يعمل بها، وكان قد عرض عليه مبلغًا ما لقاء إيصالنا إلى بيت أهله في اللاذقية. كان حزني يومها من النوع الصامت المكبوت وهو حزن بدأ معي في ذلك المساء ولازمني في السنين الأربعين التي تلت تلك الليلة.

لم أتمكن من رؤية شيء في ذلك الطريق، كل ما شعرت به هو آلام شديدة في أسفل البطن وبرد من النوع الذي يأكل العظام والذي يترافق عادة مع الندم والحسرة.

عندما وصلنا اللاذقية، غادرت السيارة لأجد نفسي في بستان مظلم تفوح منه رائحة الفستق الأخضر.

رائحة التراب الرطب الممزوج برائحة الفستق الأخضر تلك بقيت عالقة في ذاكرتي لسنين وكلما شممتها عادت بي الذاكرة لتلك اللحظة وكل المشاعر المضطربة التي رافقتها لأعيشها مرارًا وتكرارًا بكل مافيها من خوف وقلق وترقب.

دخلنا المنزل القرويْ المصنوع من التبن والمفروش بالفرشات الصوف، كانو جميعًا نائمين، إلَّا أنّ والدة عمّار استيقظت على صوت طرق الباب

فصدمتها رؤيتي حتى أنها راحت تصرخ بأعلى صوتها على عمار موقظة الجميع، أبقيت نظري منخفضًا وتملكني الشعور بالعار فأخذت أحدق في الأرض دون أن أمتلك أدنى جُرأة للنظر في عيني أي أحد، كان هناك ثلاث فتيات في عمر يقارب عمري وثلاث شبان بأعمار متقاربة أيضًا، راحو يتفحصوني، حتى تمنيت لو أموت.

أمسكتْ إحدى الفتيات بيدي وأخذتني نحو الغرفة المجاورة بينما راح صوت عمار يعلو وهو يصرخ على والديه، جَفلت لشدة خوفي، وخلال وقت قصير وصلت أم علي -جارتنا التي غيرت حياتنا ومعها زوجها أبو علي، كانو في زيارة للقرية في تلك الأيام، لاهتمام بأرض الليمون التي يملكونها، وعندما دخل زوج جارتنا أم علي، حاول تهدأة الجميع

- يا عمار لقد خطفت طفلة من بيت أهلها وتريد الزواج منها، غير ممكن، فكيف لم تفكر في والديها، إنهما جيراننا ولا يستحقون ماتفعله بهم

استمر عمّار بالصراخ وكأنه لا يسمع أو لا يريد أن يسمع

- ستصبح زوجتي، لو أنهم طيبون كما تقول لما رفضوني ولتزوجتها برضاهم ولكنهم رفضوا وهذه نتيجة أفعالهم

أصر أبو علي على رأيه وألحَّ على ضرورة عودتي مباشرة إلى والدتي، ولكن عمار لم يصغي وهنا لجأ أبو علي لزوجته التي كان لها كلمتها عند عمار وعائلته

- ألن تقولي شيئًا يا أم علي، أم أنك تعلمين منذ البداية وتلتزمين الصمت

أزاحت أم علي نظرها عن زوجها والتزمت الصمت فأصر

- أم ليلى جارتك وصديقة عمرك، لا تستحق منك هذا التصرف، أتقبلين أن يحدث شيئًا كهذا لبناتك؟

استمرت بالصمت.

دوما ما يمنحنا الله الفرصة التي نرتد بها عن ذنوبنا ونردع الشر في داخلنا ونعود لإنسانيتنا، ولكن بعضنا يرفض الفرص ويستلذ بالشر، أسكت أبو علي الجميع، لقد كان رجلا يخاف الله، وقال بحزم

- سنعيد ليلى لوالدتها غدًا صباحًا، ثم عاد لينظر إلى زوجته منتظرًا منها تأييده

كان الرأي رأيها لأنها كبيرة أفراد هذه العائلة، وهي التي تهتم بعمار في دمشق، ولكنها قالت بعد صمت طويل

- لقد فات الأوان على إرجاع ليلى

وهنا عاد الهرج والمرج في المنزل الذي لم ينتهي الجدال فيه يومًا.

وتبين لاحقا أن أم علي كانت من خططت لكل هذا حتى أنها ساعدت عمار في إيجار التاكسي الذي أقلني في ذلك المساء إلى اللاذقية.

أم علي، كانت صديقة والدتي المقربة، بيتها في الحارة نفسها، وكانتا تمضيان معظم أوقاتهما معًا، تعجنان وتخبزان وتتشاركان الطبخ فيما يغيب زوجيهما في العمل ولطالما رأيت في أم علي نسخة عن والدتي فهي سيدة قوية، تدير شؤون بيتها بحزم، تكره الخطأ وتسافر بصورة دورية إلى القرية حيث تهتم بأراضي العائلة، تزرع المحاصيل وتهتم بموسمين أساسيين هما موسم الليمون وموسم الزيتون.

لم أفهم في تلك الأيام معنى أن تشجع أم علي أخوها عمار على إقناعي بالزواج خطيفة، من دون موافقة والدي، واستغرقتني الحياة أربعين عامًا لأدرك أن أم علي طعنت صديقتها المقربة في ظهرها عندما قبلت بذلك، طعنت والدتي في قلبها وكنت أنا السكينة الحادة التي اخترقت ذلك القلب ودمرت لسنين تلك العائلة.

..*.*.*

دمشق – 1990 -

الحب بنكهة الهندسة المدنية

اعتادت أمل على الذهاب يوميًا إلى كلية الهندسة المدنية، التي شيدت في ستينيات القرن الماضي في البرامكة، دمشق، وكانت آنذاك حلمًا للكثيرين ممن يرغبون بأن يصبحو مهندسي الغد، فلم يكن في سوريا آنذاك إلا الجامعات الحكومية التي ضمت تحت سقفها كل السوريين على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم.

صرح جامعي جميل، بناء يطل على الحداثة والمستقبل الذي كانت تراه سوريا نصب أعينها في تلك الأيام.

لم تكن أمل إلا إحدى الفتيات الهادءات واللطيفات، لم يكن لها أثر في الجامعة ولكن علاماتها المتميزة جعلت منها شخصية معروفة بين طلاب دفعتها، وكان قيْس صديقها الوحيد في الجامعة وبسببه أصبح لديها الكثير من الأصدقاء، فقط كان قيس شابًا محبوبًا واجتماعيًا، فلطالما اعتاد على أن يُنَفس عن الكبت الذي يعيشه في المنزل بالكثير من الضحك والتسلية في الجامعة، ولم يكن لأحد بأن يشك ولو للحظة أنّ قيس كان خجولا انطوائيًا في بيت عائلته وأنه عانى كثيرًا من مشاكل الثقة بالنفس في طفولته، حتى أنه عاش سنين طفولته كلها بمعالم حزينة ووجه يرفض الضحك، ولكن الجامعة غيرته فقد تحول إلى شاب وسيم تعشقه الفتيات

وكان حصوله على سيارة مازدا حديثة الصنع كهدية من والده سببًا إضافيًا لشعبيته بين أبناء الكلية.

وفي أحد الأيام وبينما كان يجلس مع أمل يراجعان مادة الهندسة الوصفية قبل الدخول للامتحان العملي، جاءهم المعيد الذي يدرسهم هذه المادة وبدأ حديثه معهم عن الأسئلة المتوقعة وطريقة الإجابة عن الاسئة الكتابية التي تحتوي شرحًا مفصلًا، ثم أخبرهم عن أكثر الاسئلة المتكررة والتي ينبغي مراجعتها لضمان النجاح.

استغرب قيس من مبادرة المعيد وتنبه لنظرات الإعجاب والقلق التي تظهر عليه عندما تلتقي عيناه بأمل، فلم يصعب عليه رؤية الحب الذي يختفي في عينيه، وما إن انتهى من كلامه ومضى، حتى نظر قيس نحو خالته أمل وقال:

- الله على الحب كم هو فاضح

ردت له أمل النظرة مع امتعاضة

- اهتم بدرسك والتزم الصمت

عندما نجحت أمل بالمادة بمعدل عال، وبينما كانت تقف أمام نشرة العلامات سمعت من يهمس بإذنها

- نتيجة رائعة

فتغلغلت في قلبها رائحة عطر ستلاحقها لعمرها القادم، عندما التفتت للخلف وجدت وجهًا جميلًا لشاب مهندم يبتسم لها، كان هو وجه العميد، فردت له الابتسامة

- شكرًا

- تعالي نتمشى قليلًا، وإن قبلتي عزيمتي على فنجان قهوة سأكون سعيدًا جدًا

ارتبكت أمل التي لم تكن معتادة على هذا النوع من الاهتمام

- شكرًا، ولكنني عائدة إلى المنزل

فقال متوترًا وكأنه يقذف كلامه في البحـــر ويركض.

- لنتمشى قليلًا إلى موقف الباص

وفعلًا سارا معًا باتجاه موقف الباصات

يَدَّعى محمد، المهندس المعيد في كلية الهندسة المدنية، يكمل الماجستير، ويطمح بالدكتوراه، أشقر أنيق وهادىء، كان الشاب الأول الذي يُبدي إعجابه بأمل على مدى حياتها كاملة، كانت هادئة ورصينة وكان محمد مشابها لها في رزانتها وهدوئها، راح يسير بقربها ويحدثها عن حياته، عائلته، أخواته، والده الذي يمتلك محلًا للساعات مقابل قلعة دمشق، والذي يقع تمامًا أمام تمثال صلاح الدين، هذا المحل الذي يمضي

فيه المساء ليعطي المجال لوالده بالعودة الى المنزل كي يستريح.

ومع الأيام أصبحت مشاوير الطريق التي يمشيها محمد مع أمل روتينًا سعيدًا يملأهما بالحب والرضا، والذي ينتهي دومًا بركوبها الباص، بينما يعود أدراجه سيرًا على الأقدام لأن منزله لا يبعد كثيرًا عن الجامعة، في مشوارهما الثاني نحو موقف الباص سألها عن قيس وقالت له "إنه ابن اختي" فانصدم جدًا، فقد ظن أنه ابن عمها أو خالها، أو أي شيء من هذا القبيل وهذا ما كان يخشاه ويجعله مترددًا في الكلام إليها، ولكنه وعندما عرف مؤخرًا بقصة حب قيس لأجمل فتاة في الكلية وهي القصة التي صدحت في ذلك العام، تشجع للتقرب من أمل،

- إذن أنتي خالته

ضحكت أمل ضحكتها الجميلة النادرة وقالت " نعم"

- كم هو محظوظ بامتلاكه خالة جميلة مثلك

..*.*.*

فينا -2021 –

سيدة تدخل الأربعين بكامل مشمشها

محمود درويش

زوجي الوفي، لقد آمنت إيمانًا مطلقًا وعلى مدى سنين أنّ زوجي من أفضل الرجال على الإطلاق، كما آمنت بأني أكثر النساء حظًا في هذا الكوكب.

وكنت قد تجاهلت تمامًا أنوثتي التي فقدتها بقربه، وكوني درجة ثانية في حياته، وبأن لديه قائمة طويلة من الأولويات التي آتي دومًا بعدها.

كنت قد تجاهلت كم نحن عائلة رسمية تفتقد للضحك الغير المبرر، للجنون، للفرح، حتى أننا نحتفل بكل المناسبات بطريقة واحدة، باقة ورد وهدية ثمينة بدون أي عاطفة، لهفة أو حب.

كنت قد تجاهلت سيل الكلام الجـــارح الذي اعتاد أن يُسمعني إياه عن دون قصد ومازحًا وجادًا في كثير من الأوقات. حتى أني آمنت أني لست بأنثى وبأني امرأة متسلطة وغير جميلة، واقتنعت بأن لدي شعر خفيف وأعين ذابلة وضحكة صاخبة مزعجة .

لقد تبنيت باطنيًا كل ما قاله عني، بينما بقي في نظري الزوج الوفي، الكائن المقدس في قلبي وفي مخيلتي، لأنه واضح وذو قلب طيب وليس

لديه إلا أسرته والأهم من ذلك (لأنه لا يخون).

وهكذا مرت السنين وأنا سعيدة ... ومغمضة ...

مغمضة العينين، أذكر جملة اعتادت جدتي أن تقولها لوالدتي عندما كنت طفلة " افتحي عينيكي يا بنتي "

بينما اعتادت ماما أن تجيبها دومًا " دعيني مغمضة، لا أريد أن أفتح عيني "

ولم أكن أفهم تمامًا الكلام المشفر الذي يتكلمونه أمامي، ولكنني علمت لاحقًا أنهن يتكلمن عن والدي، والدي الذي تزوج ماما خطيفة عندما كانت طفلة ثم خانها مع كل نساء الأرض دون أن تكرهه للحظة بل بقيت مغرمة فيه ووفية له.

لم يخونني زوجي، وأما أفكاري عن الزوج الشرير فاختزلتها بالخيانة فقط، لذلك لم أشعر يوما بأن زوجي شرير، فاستغرقت سنينًا كي أدرك أن للشر وجوه مختلفة وأنني أنا الأخرى بحاجة لأن أفتح عيني وألا أبقى مغمضة.

في عيد ميلادي التاسع والثلاثين، لبست فستانًا أحمر، وكنت قد صبغت شعري بالأحمر الداكن، ولبست كندرة بكعب ناعم وركبت سيارتي نحو المركز الطبي الذي أعمل به.

كالعادة انبهر الزملاء بجمالي وأناقتي، جميعهم، الأطباء والممرضات

والطاقم الإداري، حتى أنهم اجتمعوا في كافيه المستشفى وأحضروا قالب من الكيك للإحتفال بعيد ميلادي، وكنت سعيدة جدًا لأنني أعشق احتفالات عيد ميلادي وأتمنى أن تطول ولاتنتهي، وكالعادة رنّ هاتفي وإذا به زوجي الذي عايدني قائلًا:

- كل عام وأنتي بخير حبيبتي، دعينا نزور محل الذهب بعد الدوام كي أشتري لك هدية.

عبرت له عن امتناني وشكرته

- أُوه حقًا، ميرسي حبيبي

وفعلا التقينا بعد الدوام، كان يقف بسيارته عند زاوية الشارع، مشيت باتجاهه، وركبت معه بالسيارة، كنت قد أخبرته منذ تزوجنا أني أحب الذهب كهدية لعيد ميلادي ومنذ ذلك الحين اعتاد على أن يشتري لي الذهب.

عندما ركبت معه بالسيارة، رمقني بنظرة بطرف عينيه

- متى صبغتي شعرك بالأحمر، بالمناسبة لا يليق بك أبدًا

التزمت الصمت، وبعد لحظة نظر نحو فستاني

- يا إلهي، انظري إلى كم فستانك الملوث، ماهذه البقعة على طرف الكم

نظرت نحو كم الفستان ثم أجبت بهدوء

- آه، يبدو أني لطخته بالكريمة بينما أقطع الكيكة بمناسبة عيد ميلادي ... بسيطة ستزول بالغسيل

قال منفعلًا

- البقعة ظاهرة بوضوح وهذه ليست بسيطة

صَمَتُّ ...

بعدما ركن السيارة، تابعنا السير مشيًا، فمسكت بيديه فأمسك يدي ورفعها قريبًا من عينيه وقال مستهزئًا

- ما هذا الطلاء الباهت، لماذا لم تجددين طلاء أظافرك، أيعجبك مظهرك هكذا ؟

التزمت الصمت، وأنا أعرف جيدًا أنه يستفزني بكلامه عن طلاء الأظافر الذي بهت لونه ...

عادة لا أحتمل كل هذا النقد الجارح، ولكنني كنت سعيدة جدًا بعيد ميلادي وكنت سعيدة بكلام زملائي في العمل، وكنت سعيدة بفستاني الأحمر، وشعري الأحمر وطلاء الأظافر الأحمر القديم الذي زين يداي، كنت سعيدة لدرجة تمكنت فيها من الصمت وعدم الانفجار، ففي كل مرة ينتقدني فبها أنفجر وأصرخ وأنهار، ثم أبدو أنا المذنبة لأني رفعت صوتي، ولأني انهرت، ولأني هدمت النزهة مع زوجي ولم أُقَدِّر كم كان متعبًا، ورغم ذلك تجاهل تعبه واصطحبني كي أشتري هدية عيد ميلادي.

تابعنا سيرنا فقال:

- بدأ العمر يظهر عليكي، لا يليق بك النحف الزائد، تبدين في الأربعين

ابتلعت لساني بينما اشتعلت النار في قلبي، دخلنا محل الدهب الذي يمتلكه ويعمل به رجل عراقي وزوجته، كان رجلًا كبيرًا بينما بدت زوجته في نصف عمره، ليس لأنه فعلًا يكبرها بكثير بل لأنها تنبض بالحياة، شعرها الأشقر الطويل الأظافر الاصطناعية المطلية بالأحمر، الجينز الضيق الذي ترتديه والعدسات اللاصقة الزرقاء، والذهب الذي يزين رسغيها ورقبتها، لو لم تخبرنا أن لديهما أربع أولاد وأن ابنتهم الكبيرة متزوجة لما صدقت بأنها زوجة هذا الرجل الستيني الرمادي الشعر، البارد الروح والجسد.

أعجب بنا البائع وزوجته ووجدوا فينا زوجان سعيدان محظوظان، ولذلك قرروا أن يكسبوننا كزبائن وكأصدقاء، وحصلت على هدية عيد ميلادي بسعر خاص .

أخذنا الهدية، شكرته كثيرًا وعدنا إلى المنزل، وضعنا قالب الكيك الذي طلبته مسبقًا من سيدة سورية تصنع كيكة الجزر بحرفية عالية، احتفلنا مع الأولاد، التقطنا صورًا للذكرى، وهي نفسها الصور التي ألصقتها على صفحة الفيس بوك الخاصة بي، ثم نمنا أنا والأولاد بينما سهر هو على التلفاز .

في الليل، بكيت كثيرًا، حاولت أن أنام دون أن أقدر، ودون أن أعرف من

أين هبط كل الحزن على قلبي، شعرت بحاجتي الماسة لحضنه كي أغفو عليه، فتحت الموبايل وأرسلت إليه واتساب

- حبيبي أشعر بالأرق ولا أدري لماذا، أحتاج إلى حضنك كي أغفو عليه،

قرأ الرسالة ولم يرد عليها.

بعد نصف ساعة أمضيتها باكية في سريري، قررت أن أخرج إليه، فوجدته مستلقيًا يلعب بالموبايل، نظرت إليه لكنه تجاهل وجودي.

في تلك اللحظة تمامًا شعرت ببركان يستعر في قلبي، وشعرت بكل شعلة لهيب وهي تحرق خلاياي، فكانت تلك هي المرة الأولى التي أعيش بها هذا الشعور بكل مراراته، عدت إلى سريري وبدلًا من أن أنام سهرت مع ذكرياتي، مرت بذاكرتي كل لحظة عشتها معه، مع جفاءه مع عجزه عن الحب، مع بروده وعدم اكتراثه، ورأيت نفسي كيف أذبل وأموت دون أن أدري.

لم أتمكن من النوم ليلتها إلا عندما اتخذت قرارًا واحدًا، جريء وضروري، سأخونه .

وفي اللحظة التي فتحت فيها عيني في اليوم التالي، فتحت فيها قلبي للحب ...

..*.*.*

اللاذقية - 1970 - الهزّة الأولى

نمت ليلتها في زاوية الفرشات الصوف بالقرب من أخوات عمار، كنت أرتجف بردًا وخوفًا، إلّا أنّ إحدى أخواته والتي كانت تنام بقربي، نظرت إلي وسألتني

- أتحبين عمار

لم أجب، فأضافت

- نامي وغدًا ستجد حُسنى حلًّا لك

لم أفهم ليلتها مَنْ حُسنى، ولكن تبين لاحقًا أنّ حُسنى هي أم علي جارتنا.

لم أتمكن من النوم يومها، فقد بدا كل ما حولي غريبًا وموحشًا، حتى أنني بكيت الليل بطوله وتمنيت لو تشرق الشمس لأجد أنّ هذا الكابوس قد انتهى وأنني في بيتنا وأمي لاتزال في المطبخ تقلي الباذنجان وأمل تلعب بحضني، بينما يجلس والدي في إحدى الزوايا يقرأ كتابًا.

في الصباح التالي، استيقظت أخوات عمار واستعددن للذهاب إلى المدرسة، فيما التزمت زاويتي في الفرشة، كنّ رشيقات وجميلات وبنفس عمري تقريبًا أي أنهن جميعًا في الإعدادية.

عندما ذهبن إلى المدرسة وهدأ المنزل، قدم أبو علي ومعه سيارة تاكسي

وقال أنه ينبغي علينا أن ننزل إلى دمشق كي نكتب كتابنا أمام الشيخ وبحضور والدي، ركبت بالتاكسي مع عمار وأبو علي وعدنا إلى دمشق، على طول الطريق كنت أحلم بوالدتي وكيف سأركض لأحضنها وأحضن أخواتي وأقبل يد والدي وأرجوهم برغبتي الشديدة بالبقاء بقربهم، ولكن الحقيقة كانت مغايرة لكل أحلام اليقظة الممزوجة بالدموع على ذلك الطريق، الطريق الذي سأعيش عليه ولسنين قادمة أجمل وأبشع الذكريات.

عندما وصلت بيت أهلي كان خاليًا من أخواتي اللاتي ذهبن إلى المدرسة، أما والدتي فقد كانت تقف كالصنم، تحمل أمل بين ذراعيها، عيناها مزرقتان لكثرة البكاء، وهالة كبيرة سوداء تحيط بهما، لم تسمح لعينيها بالنظر إلي، وأما والدي فقط كان ممسكًا بمسبحة يسبح بها.

لم أتمكن من الاقتراب منهم كما أنهم لم ينظـروا إلي، جلست منزوية مكورة إلى نفسي وأما الحديث الذي جال يومها فلا أذكر منه شيئا، كل ما أذكره هو عيني والدتي الباهتتان والحزينتان، وشعوري القاتل بالندم .

لم تمض إلا دقائق على جلستنا تلك، عدت بعدها مكسورة القلب والجناح إلى التاكسي التي أقلتني مرة أخرى نحو الساحل ونحو الحياة الجديدة والغريبة تمامًا .

كانت والدة عمار قد جهزت غرفة صغيرة لنا، عمليًا كانت هي الغرفة التي تنام فيها البقرة في أيام الشتاء والبرد، أخبرني عمار أن أخواته الطيبات

قد غسلن الغرفة جيدًا وجهزنها لنا فتحدث لي عن طيبتهن وكم سأسعد بالعيش معهن، كذلك حكا لي عن والدته التي هي امرأة جبارة فهي من يشرف على أراضيهم في الساحل بينما يغيب والده كثيرًا ويسافر إلى محافظات أخرى حيث يملك أراضي هناك.

كانت رائحة الرَّوَث لاتزال تغمر الغرفة التي أصبحت بيتي لأشهر لاحقة، أما السرير الحديد ذو النوابض والذي افترش غرفتنا فقد كان سريرنا أنا وعمار، السرير الذي حدثت عليه أشياء كثيرة بينما كنت مغمضة العينين، خائفة مذعورة وغائبة عن هذه الدنيا.

وفي زحمة الحياة الجديدة، وجدت لنفسي مؤنسًا وهو أخوات عمار اللاتي كن في مثل سني ولكني كبرت قبلهنّ، فبينما يذهبن كل يوم إلى المدرسة كنت أبقى لأنظف المنزل وأساعد والدته في الطبخ، وأما عند عودتهن فقد كنت أعود طفلة مثلهن، نلعب معًا الغُميضة في بستان الليمون، نزرع معًا المحاصيل، نلهو كثيرًا ونمرح، يتكلمن عن شباب الضيعة ولكلّ منهن حبيب سري، وقصص غرامية لا تخطر على البال.

في كل تلك الأيام والليالي كانت والدتي حاضرة في قلبي، وكنت أبكي يوميًا غيابها خصوصًا عندما أطبخ طبق الباذنجان والفاصولياء بالزيت والثوم، كلها طبخات لم تعلّمني إياها أمي لأنها رأت فيّ طبيبة المستقبل ولم ترغب بأن تلطخ يدي طبيبة بالطبخ وأعمال المطبخ.

أما أم عمار فقد علمتني كل شيء عن الطبخ بدءً بالعجن والخبز، البرغل، السلق، والسبانخ وغيرها من الطبخات التي كنا نطبخها بكميات كبيرة لإشباع بطون ثلاث فتيات وثلاث شبان، بينما كانت أم علي وهي الأكبر بين الإخوة متزوجة في الشام، وأما عمار والذي كان أكبر الصبية فقد كان يتغيب طيلة الأسبوع في دمشق ويزورنا كل خميس.

تملكني طويلًا ذاك النوع من الحنين المترافق بالندم، حنين من النوع الذي يكوي الفؤاد نحو والدتي التي تمنيت لو أحضنها ولو لمرة واحدة وأشبع قلبي من رائحتها الطيبة.

وأما المدرسة فقد أصبحت حلم حياتي والندم الآخر الذي سيأكل أطرافي مدى الحياة.

..*.*.*

فيينا – 2012 - الدكتور سام والعسل

أغرم الدكتور سام بعروسه الجديدة، التي زينت حياته بكل تفصيل يخطر على البال، من الدلع الذي يجري في عروقها، إلى الطعام اللذيذ الذي تتقن صنعه إلى الترتيب الغريب والنظام الذي جعل حياته مختلفة تمامًا عما كانت عليه.

أما والدته والتي كان يتواصل معها يوميًا، نسيها تقريبا، فاتبع تعليمات زوجته حرفيًا، حتى أنه وبعد شهر على وصولها نطق بيقين تام الجملة التالية "نحن الآن أسرة لها أسرارها وكينونتها، وأما الأهل فيمكن أن نحادثهم بالمناسبات وأيام العطل فقط، دون أن نتشارك معهم تفاصيل يومنا " وهذا الكلام الذي نطقه لم يكن إلا ثمرة الأفكار التي راحت زوجته تزرعها في عقله وتسقيها يوميًا بصبر وتأنٍّ إلى أن قال لها أخيرًا ما أرادت بشدة أن تسمعه يقول.

ابتسمت له يومها

- حبيبي أنت، ما تطلبه أوامر

كانت ذكية، تعرف كيف تعامل الرجل وتتكلم إليه، متى تجعل منه رجلًا ومتى طفلًا ومتى حبيبًا.

كان لها إيقاعها في كل شيء، متى تضحك ومتى تتكلم، متى تبكي ومتى تتألم، حتى أن حبه لها صار أضعاف مضاعفة، فصار يتنفس الهواء

نزولًا عند رغبتها فقط.

وأما والدته التي كانت تعيش في داريا في أكثر سنين سوريا حربًا، فقط حزنت على خسارة ابنها أضعاف مضاعفة على حزنها على بيتها الذي تهدم في الحرب، وعلى وطنها الذي اشتعلت النار به.

ابنها الذي كان مصدر فخرها وسعادتها، لم يعد يتصل بها وإن اتصل فغالبًا ما يتحدث برسمية بينما يجلس بقرب زوجته التي تحدث حماتها "والدة زوجها" هي الأخرى وتكلمها بالكلام الملبق

- أنا أحبك جدًا يا أمي، أرجوك أن توصلي سلامي لعمي والشباب، إن احتجتوا شيئًا اتصلوا بنا مباشرة وبإذن الله سنساعدكم بكل ما تحتاجونه، سام يحبـــك جدًا أيضًا ويطلب منك الرضا والدعاء.

تغلق الخط لتعاد المحادثة ذاتها كلما أذنت العروس لزوجها بالحديث إلى أسرته، وأما أم سام فقد اشتاقت كثيرًا لابنها واشتهت لو يكلمها ولو لمرة واحدة من العمل ليحدثها عن حياته الجديدة ويطمئنها عنه، إلا أنه لن يفعل ذلك إلا بعد مرور 10 أعوام.

استمرت الحال على ماهي عليه، هو نائم بالعسل ووالدته تشعر بأن زوجته تنسج عنكبوتا حوله مانعة إياه من الإيتاء بأي فعل من دون وجودها، ورغم ذلك، كان كل ما تمنته الأم هو أن يكون ابنها سعيدًا لا أكثر.

لقد كان ل نور العروس الجديدة، حكاياتها الكثيرة التي تقصها على سام

عند كل مساء، قصص عن جيرانها في دمشق، قصص عن صديقاتها، قصص عن أقاربها وعماتها، قصص تحمل عبرة عند كل مساء.

وفي أحد الأمسيات أعدت نور السفرة لسهرة رومنسية بقرب زوجها، قطعت الفواكه الطازجة، أعدت الفوشار والمكسرات، أشعلت الشموع وارتدت حريرًا أسود اللون فوق لانجري من الدانتيل الأسود وتعطرت ثم جلست بقرب سام لتسأله عن يومه في المشفى فأخبرها عن يومه ثم أخبرته بكم هي سعيدة لأنها بيت أسراره ولأنه يحكي لها كل شيء عن يومه ثم حكت له قصة والديها

- عندما تزوج ماما وبابا، كان والدي يشكو كل مشكلاتنا لعائلته، حتى بدأوا يتدخلون في حياتنا، فكانوا السبب بأن أمضي طفولتي في منزل تملؤه المشاكل، مرت علينا سنينًا بشعة، لذلك قررت أني وعندما أتزوج لن أشارك حياتي مع عائلتي بل سأحتفظ بها وبأسراراها لي ول زوجي بينما سألتزم بالحب والإحترام لعائلتي وعائلته بالدرجة نفسها

ابتسم سام لزوجته

- بالطبع حبيبتي، الغلط الأكبر الذي يقترفه المرء هو أن يسمح لعائلته الكبيرة أن تتدخل بعائلته الصغيرة

- حبيبي، ليت والدي امتلك الوعي الذي تمتلكه، لو كان مثلك لعشت طفولة رائعة

ضحك سام ضحكته المثيرة واقترب من نـــور هامسًا

- أولادك الذين سنوصي عليهم الآن، سيكونون الأكثر حظًا لأنك والدتهم

لم ينم سام يومًا إلا سعيدًا بقرب زوجته، إلا أن حياتهم الإجتماعية كانت تتضاءل يومًا بعد يوم دون أن ينتبه، لم يبقى لديه أي صديق لأن نور لا تثق بالأصدقاء، حتى خاله امتنع عن رؤيته لأنه أعزب ولأنها غير مقتنعة بنمط حياة رجل أعزب في فيينا، وأما صفحة سام على الفيس بوك فقد أقنعته بإلغائها لأنه طبيب ولأنه أرقى بكثير من صفحة سخيفة على الفيس بوك، وفعلًا تخلى سام عن صفحته التي حملت الكثير من ذكرياته بدءً من كلية الطب في جامعة دمشق مرورًا بأحلامه وقناعاته وآراءه بكل ما حدث في سوريا في سنين الحرب إنتهاء بصورتهما معًا يوم وصولها إلى فيينا والتي كانت آخر صورة زَيَّنَتْ صفحة الفيس بوك الذي ألغاه بإقفال الصفحة ونسيان كلمة السر، كل ذلك وأكثر اختفى من حياته بكبسة زر واحدة.

وأما المنزل الضيق الذي بكت يوم دخوله وانصدمت بحجمه فقد أقنعت زوجها بتغييره بعد عام تمامًا وذلك عندما كانت على وشك ولادة عمر "ولي العهد" كما تسميه، وهكذا انتقلت العائلة الى شليتر غاسيه وهو أحد الأحياء الغالية في فيينا.

بانتقال نور وسام إلى منزلهم الجديد، تنفست الصعداء، بعد أن رسمت الخطوط العريضة لحياتها الزوجية، بدءً من سلوك زوجها الذي عَدَّلته على

قياس رغبتها، مرورًا بكونها حامل في الشهر التاسع بولي العهد، انتهاء بالحي الذي يليق بها.

فأصبح بإمكانها الآن التفرغ لإثارة الغيظ في قلب كل من يشتهيه، التقطت صورًا للمنزل وأرسلتها لوالدتها التي ستتولى موضوع التباهي أما الأقارب قبل أن تنقل لابنتها حرفيًا كل ردة فعل، رمشة عين، وبلعة ريق صدرت عن قريباتها، وكالعادة ستنقل لها تفاصيل حدثت وأخرى كثيرة لم تحدث ولكن تمليح الأخبار يعتبر ضرورة لجعل ثرثرتهما اليومية لساعات طويلة بنكهات مختلفة.

..*.*.*

اللاذقية - 1970 – صديق الطفولة الضائعة

كان ل عمار ثلاث أخوات بالإضافة إلى أم علي، أكبرهن تبلغ من العمر سبعة عشر عاما، وأصغرهن تبلغ ثلاثة عشر عامًا.

وفي ظهيرة أحد الأيام المشمسة من شهر كانون الأول وبعد أن كان قد مضى شهر على زواج ليلى من عمار، جلست الفتيات الثلاث رفقة ليلى تحت شجرة التوت الكبيرة التي تزين مدخل المنزل، وبينما هن يجلسن يتهامستن ويضحكن، جاءهم ضيف غريب، شاب في مقتبل العمر يبدو على ملامحه أنه لم يتجاوز الخامسة عشر من عمره بعد.

ما إن طل من مفرق الطرق، حتى غيرت الفتيات من جلستهن ونظرن نحو الغريب الجميل، فصرخت بهما ميس أختهم الكبيرة

- ماحلّ بكما إنتي وهي، تذبن بمجرد مرور أي شاب

فصمتن مترقبات الزائر الغريب، بينما التفتت ليلى للخلف ورأت الشاب القادم من بعيد فبات الغريب مألوفاُ لقلبها، فوقفت بسرعة وركضت اتجاهه كطفلة ضائعة قد تعرفت للتو على ملامح والدتها بين الحشود.

عندما وصلت إليه توقفت فجأة متوترة، ضائعة، محتارة كيف تحييه بعد أن فارقت الطفولة وأصبحت زوجة، هل تقبله من خده كما اعتادت فيما مضى أم تصافحه باليد، ارتبكت لتذكرها مكانها وموقعها الجديد، فوقفت قبالته دون أي سلام من أي نوع كان.

وقفت أمامه مضطربة فمدّ يده نحوها وفعلت المثل، ابتسم لها ابتسامة عريضة عرض السماء، بينما طفحت الدموع نحو عينيها، وراحت تبكي فراح يبكي معها، استغربت الفتيات من مشهد البكاء الغريب فالتزمن الصمت دون أن يقترين بل استمتعن بمتابعة المشهد الغريب وكأنه لقطة من فيلم رومنسي، اقترب غدير من ليلى وقال "ليش هيك عملتي؟" صمتت فهي لا تملك ولن تملك يوما جوابًا لهذا السؤال، همس

لقد كنت بوصلتنا جميعًا، أذكى واحدة فينا، أشطر واحدة، وكنا نغار منك وننتظر أخبار نجاحك وتفوقك، والآن تزوجتي ودمرتي نفسك وتركتينا من دون بوصلة، لماذا؟

لم تنطق ليلى بحرف تاركة لدموع عينيها دورهما في الكلام، شعرت ميس بضرورة الاقتراب من الضيف الغريب، فالتفتت ليلى نحو مَيْس بعد أن مسحت دموعها

- هذا غدير ابن خالتي

ابتسمت ميس ل غدير وقالت له

- أهلًا بك، تفضل بالدخول

مشى غدير باتجاه مدخل المنزل، ليجد نفسه جالسًا مع أربعة صبايا ينبضن بالحياة تحت شجرة التوت الكبيرة التي سيُصنع تحتها ولأجيال متتالية الكثير من الذكريات التي لا تنسى .

ذهبت ميس لتنادي إخوتها الشباب الذين كانو يعملون في جمع محصول الفستق الأخضر، ابتسم غدير للصبايا وجلس يفسر لهن زيارته العفوية لابنة خالته والتي سيخجل من أن يزورها مرة أخرى إلى أن تنتقل إلى دمشق، وحينها فقط سيكون السند الذي سيساعد ليلى في تحقيق حلمها .

غدير، ابن خالة ليلى والصديق المقرب لقلبها، يعيش مع أسرته في قريتهم في الساحل السوري، وقد اعتادت ليلى القدوم إليه مع والديها في مواسم الليمون والزيتون حيث كان غدير صديقها في مغامرات الصيف والإجازات الجميلة والتي لطالما عَجّت بالذكريات.

شاب أسمر نحيل، بوجنتين مكتنزتان ومبسم جميل، تزينه غمازتان ساخرتان، كانت ليلى بالنسبة له قدوة وصديقة وليس هناك ما هو أعمق وأغلى من أصدقاء الطفولة، حيث اعتادا ولسنين أن يمضيا الصيف معًا، يتحدثان عن المدرسة، الامتحانات، وما إن تبدأ ليلى بالحديث عن مدرستها في حي المزة في دمشق، وآنستها نجاح وصديقاتها، حتى يشرد غدير بمخيلته ويجول بأحلامه في دمشق، المدينة التي يحلم بالعيش بها .

يلعبان معًا لساعات بين البساتين، يقطفان الكرمنتينا اللذيذة من الشجر، يغنيان ويتهامسان، يصطادان الشراغف "صغار الضفادع" من الجدول القريب من المنزل، ويسرقون الحصرم من عريشة العنب التي تتسلق برندة الجيران.

لطالما عشقت ليلى كل شيء حامض، الليمون الحامض، الحصرم الحامض، المشمش الذي لم ينضج بعد، والتفاح الصغير الأخضر الحامض وكل ما هو حامض في هذه الدنيا، ولذلك وفي آخر زيارة لليلى إلى القرية في الصيف ما قبل الماضي، قرر غدير أن يأخذها إلى بستان التفاح الذي انتبه لوجوده في نزهاته مع والده نحو أرضهم البعيدة في الوادي، وفعلا انطلقا صباحًا بعد أن ذهبت عائلتهما نحو أرض الزيتون وبقيت أخوات ليلى برعاية أخت عمار التي كانت تكبره بعشر سنوات.

راحا يومها يسيران معًا بيدين متشابكتين، طفلان في الثانية عشرة من العمر، يتبعان صوت الطيور ونعيق الضفادع وحفيف الشجر، وبعد طول المسير اكتشف غدير أنه ضل الطريق، لكنه التزم الصمت ولم يظهر لليلى خوفه وتوتره، بل استمر بالسير بنزعته الذكورية والقيادية منذ الصغر، إلا أن ليلى قلقت وشعرت أنهما يعجزان عن الوصول لبستان التفاح وبأنهما ابتعدا كثيرًا عن المنزل، فبدأت بالبكاء منتظرة من غدير أن يطمأنها ويحارب مخاوفها إلا أنه راح يبكي هو الآخر.

كان ذاك مساء صيفيًا ذو نهار طويل، وعندما شارفت شمسه على المغيب عبر بهم أحد الفلاحين الذي لم يتأكدو حتى اللحظة إن كان ملاكا أُرسل من السماء أم فلاحًا حقيقيًا، فقد ظهر فجأ مع جحشته الصغيرة ووجدهما يجلسان على صخرة مضنينان من التعب، سألهما عن اسم قريتهم فأخبروه باسم قريتهم، فدعاهما لامتطاء الجحشة التي يجرها كي يوصلهما

لقريتهم، وفعلًا ركبا الجحشة فسار بهما نحو حدود قريتهم، وما أن تبين غدير معالم الضيعة وتعرف على طريق العودة حتى صرخ قائلًا "شكرًا يالله، شكرًا إلك يا عمو" ثم نزل مسرعًا عن الجحشة وساعد ليلى على النزول وعاد أدراجهما راكضان نحو المنزل حيث كانت والدة غدير بانتظارهما بعد أن جُنَّت من البحث عنهما.

ما إن رأت والدة غدير ابنها حتى انهالت عليه ضربًا، وبينما راح يتلوى من ضربات والدته، استمر في استراق النظر ل ليلى والابتسام لها مطمئنًا إياها، إلى أن انتهـت والدته من ضربه فركض مسرعًا نحو ليلى وقال

- يا الله يا ليلى، هذه أطيب قَتْله أتناولها في حياتي، ألف قتلة من أم غدير ولا أن نتوه في الجرود

ضحك بصوت عال فراحت تضحك معه ثم صرخ بوجه محمر لكثرة الكفوف

- شكرا إلك يا الله

..*.*.*

دمشق - 1990– أمل والأحلام الوردية

جمعت أمل ووالدتها كل الأوراق المطلوبة لتقديم طلب انتساب عدنان للكلية الحربية، ووضعتاه في ظرف كبير كانت قد اشترته أمل من مكتبة الجامعة. في الصباح الباكر حملت أمل الظرف الأبيض ومضت لتقديمه محملة بدعاء والدتها وابتهالاتها لله، وما إن غادرت المنزل متجهة نحو موقف السيرفيس، حتى أخذت الجدة تتخيل ابنها ضابطًا كبيرًا في الدولة، يحمل على كتفيه العريضين الكثير من الرتب، ويمشي شامخًا في الحارة التي عاشت فيها لسنين برأس حان وقلب مخذول.

منذ تلك الليلة، الليلة التي هربت بها ليلى، لم تتمكن الجدة من أن تستعيد ابتسامتها، رغم ولادتها لـ عدنان الذي كان حلمها لسنين، ورغم تزويجها لبناتها الثلاث، ورغم نجاح أمل في البكالوريا ودراستها في كلية الهندسة، ورغم كل الأحداث الجميلة التي عاشتها بعد ذلك الحدث.

ببساطة لم يتمكن الزمن من جبر ما كسر من قلبها، حتى أن مخيلتها وقدرتها على التفاؤل باتت معدومة.

هناك حزن وسم قلبها، وخوف زرع في خلاياها من كل ماهو حولها، حتى أنها نسيت كيف تتفاءل، كيف تحلم أو تضحك من قلبها.

اليوم وبينما ترى ابنتها تحمل أوراق عدنان وتسير نحو موقف الباص، استطاعت وللمرة الأولى منذ ثمانية عشرة عامًا أن تتخيل شيئًا عذبًا داعب

قلبها، أفرحها، زرع فيها بهجة خجولة ألا وهو منظر عدنان يسير في الحارة مزينا بالبدلة العسكرية ومحملًا بالرتب على كتفيه، عدنان الرجل الذي لم تيأس من صنعه بعد.

عندما انتهت أمل من تقديم الأوراق، عادت أدراجها نحو كلية الهندسة لمتابعة محاضراتها، وهناك رأت محمد، ابتسمت له ورقص قلبها الخجول رقصته المعتادة، وسارا معًا، سألها عن سبب تغيبها عن المحاضرة الصباحية

- ذهبت إلى الكلية الحربية للتقدم بطلب انتساب عدنان إليها

استغرب محمد كثيرًا من الجملة التي سمعها ودار في ذهنه سؤالان:

الأول ما الذي يدفع فتاة بأن تأخذ أوراق أخاها لتسجيله في الكلية، لماذا لا يقوم بذلك بنفسه؟ من رجل المنزل هو أم هي؟

أما سؤاله الثاني فقد كان ما الذي سيكتسبه شاب من الدخول في حياة الجيش الصعبة والمعقدة والتي تخلو من المستقبل؟

سؤالان لن يخطرَا إلا في ذهن شاب لا ينتمي إلى الساحل السوري، لأن قلوب وعقول أبناء الساحل تقوم على مبدئين أساسيين أولهما "الفتاة كالشاب خُلقت للكفاج لا للدلال" وأما المبدأ الثاني فهو "بوجك عالجيش" بما معناه اجعل الجيش غايتك ووجهتك، أي أن الشاب وبمجرد انتهائه من البكالوريا يتم إرساله إلى الجيش وكأن الجيش هو المستقبل.

أخفى محمد تساؤلاته وقرر ألا يحرج أمل بها، وأن يستمتع بوجهها الرقيق وابتسامتها الصافية في ذلك الصباح. وعوضًا عن ذلك راح يحكي لها عن عائلته وكم هو متعلق بها، حكى لها عن عمله في محل الساعات يوميًا لوقت متأخر، وعن العشاء اللذيذ الذي تعده له والدتـه عند عودته إلى المنزل.

حكى لها عن عشقه لقصائد نزار قباني، سألته:

- أي قصيدة هي الأقرب إلى قلبك؟

- قررت يا وطني اغتيالك بالسفر

- اقرأها لي إن كنت تحفظها

ابتسم

- طبعًا

قرّرتُ

يا وطني اغتيالَكَ بالسفَرْ

وحجزتُ تذكرتي ،

وودّعتُ السّنابلَ ، والجداولَ ، والشَّجرْ

وأخذتُ في جيبي تصاويرَ الحقولِ ،

أخذتُ إمضاءَ القمرْ

وأخذتُ وجهَ حبيبتي

وأخذتُ رائحةَ المطرْ ..

قلبي عليكَ .. وأنتَ يا وطني تنامُ على حجر

ابتسم قلب أمل لسماعها القصيدة بلسانه

- أتحب السفر

- أنا لا أحب السفر بل أحلم بالسفر وسأسافر يومًا ما

هزَّت رأسها وتعجبت من ثقته بقراراته

- لماذا؟

- السفر هو الحياة وهو المستقبل، أحلم بأن أكمل الدكتوراه في أوربا

هزت رأسها دون تعليق، فسألها

- ألا تحبين السفر؟

- لم يخطر يومًا على بالي حتى في أقصى أحلامي

- تخيلي معي، أن نسافر معًا إلى أوربا، ونعيش هناك، فنستمتع بكل ما هو جميل في تلك البلاد كأن نتمشى ع نهر الراين فنتبع مجراه ونسافر من هولندا إلى ألمانيا ومن ألمانيا إلى سويسرا، وخلال العطل نزور بارس كنيسة

سانت ستيفنز في فيينا، أو كاتدرائية كولونيا في ألمانيا

قاطعته مستفسرة

- لقد فاجأتني

- لماذا ؟

- لم اتوقع أنك تقبل أن تزور الكنائس

ضحك ضحكته الخجولة فاختفت عيناه الصغيرتان خلف القليل من التجاعيد التي زادته جاذبية، لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين بعد لكن سحنته تعكس نضوج ابن الأربعين

- إنك تضحكينني، هذه أماكن أثرية، من الطبيعي جدًا أن نزورها، كي نتعرف على الحضارات الأخرى

- ضحكتيني هدون أماكن أثرية عادي نزورون ونتعرف عهالحضارات التي سبقت الإسلام

تلاشت معالم أمل عندما سمعت كلمة الإسلام، هي تعلم جيدًا أنها مسلمة، وتعلم جيدًا أن أمها تصلي الفروض كلها وتدعو لله ليلًا نهارًا، لكن كلمة إسلام طعنت قلبها وذكرتها أنها تنتمي لإسلام يختلف عن إسلامه وأنهما من طائفتين مختلفتين وأن كل ما تعيشه بقربه سينقلب عليها يومًا ما، سواء تزوجته أم تركته، في الحالتين هناك الكثير مما ستخسره.

دمشق - أم سام

من عام 2012 حتى عام 2022

انقطعت علاقة أم سام كليًّا بابنها، وباتت تبحث عن أخباره عن طريق خاله الذي يعيش أيضًا في فيينا، الذي يضحك عليها

- ألستِ من اختارت هذه العروس، لا تقلقي عليه فأحوالها ممتازة، ولكنه ممنوع عن التواصل معي ومع غيري، الحكومة لديه في المنزل ألعن من المخابرات السورية

وأما عندما يتصل سام بها فلا يتكلم إلا برسمية، فتعرف أن نور تجلس بقربه، حتى الواتساب مراقب، فهي تخشى أن ترسل له أي شيء عليه لأنها عرفت أيضًا بأنها تتصفح الهاتف المتحرك الخاص به وتفتعل المشاكل لمجرد معرفتها بأنه يتكلم مع والدته أو أخواته.

لقد تحول سام، من سام ابن والدته إلى زوج نور وهي حقيقة آلمت والدته كثيرًا، ولكنها لم تملك أن تفعل معها شيئًا سوى أن تتمنى له السعادة وراح البال، دون أن تدري أن نور لن تجعله يعيش راحة البال بل ستستمر بانتقاده مدعية عدم رضاها عن تصرفاته إلى أن يتحول إلى رجل يلهث لإرضائها .

فيينا - 2021 - أحلام رمادية

ارتديت بنطالًا أبيض عريضًا وقميصًا حريريًّا أبيض اللون يتناسب مع شيئين أولهما الموضة في هذه الأيام وثانيهما حبي الجديد لذاتي ونظرتي الوردية للكون.

وضعت سترة عفنية على كتفي تحسبًا لنسمة حب باردة، وَدَّعت أولادي في باص المدرسة واتجهت نحو سيارتي، ركبت بها، وصلت هاتفي المحمول إلى سيارتي ورحت أستمع لفيروز، بينما أقود باتجاه المركز الطبي الذي أعمل فيه، كانت فيروز تغني

تعا ولا تجي وكذوب عليي الكذبة مش خطية

وعدني إنو رح تجي وتعاااا ولا تجي

الأغنية التي لطالما استوقفتني كلماتها وتهت في معناها، واليوم فقط شعرت أن فيروز تغني لي، تغني لي أنا الامرأة التي طرقت باب الأربعين، التي أشحد الحب من زوجي، وأتمنى لو يكذب علي ويدّعي الحب ولو لمرة واحدة، سألت نفسي بينما أقود سيارتي في شوارع فيينا، ماذا سيكون شعور والدتي عندما تعرف أن زوجي هجرني منذ زمن، وأننا تخاوينا، هي التي تعترف -ولو ليس بالكلام- بأهمية العلاقة بين الزوجين، هي التي ورغم كل ما عانته من زوجها، لم تهجر سريره، ضحت بكل ما تملك لتحافظ على أسرتها وربما لتثبت للكون أن غلطتها الفادحة في تلك الليلة لن تدمر حياتها

بالكامل لذلك بنت منزلًا على أساس مزعزع وصنعت عائلة جميلة، رعت أطفالها بدأب نملة وحكمة قديس، ولم تقبل أن تغادر سرير زوجها إلا عندما أدخلتني إلى الجامعة، عندها فقط انتقلت للنوم معي في غرفتي، وذلك تمامًا بعد أن تزوج إخوتي الشباب وبقيت وأنا وهي ووالدي فقط.

أجمل الليالي تلك التي قضتها أمي معي في الغرفة، كنا ننام معًا في السرير ذاته، وفي الشتاء كان دفء أمي يملؤني طمأنينة فأغفو بهدوء كطفلة صغيرة دون أن أخشى أحد، لم أخبر أحدًا يوما أني أتشارك السرير مع والدتي، بينما ينام والدي في غرفتهما القديمة، بل احتفظت بكل قصص حياتنا لنفسي فقط، فلم تعلم صديقاتي شيئًا عن مشكلاتنا الكثيرة والتي لا تنتهي، كما لم أتوقع أن هناك من يعلم أسرارنا، إلا أنني وفي إحدى أيام الشتاء، تماما في شتاء 2005، وقد كنت ما أزال في كلية الطب، عدت إلى المنزل بعد يوم جامعي طويل فوجدت والدتي تجلس بانتظاري على الغداء، تغدينْا معًا رز وفاصولياء وسلطة، ثم ساعدتها في جمع الأطباق واتجهتُ نحو المطبخ لأجلي الصحون بينما اتجهتْ هي نحو البَرندا لتنشر الملابس المغسولة كي تجف، وفجأة سمعت صوت مفاتيح والدي تخترق قفل الباب فتركت جلي الصحون واتجهت نحو الصالون وإذا به يسير مسرعًا نحو البرندا ويبدأ بالصراخ على والدتي بهستيريا كنا قد اعتدناها معه لسنين، وقبل أن ألحق به اتصلت بناجي وطلبت منه القدوم بسرعة إلى المنزل.

خشيت ماما من الفضيحة بينما يصرخ بابا عليها في البرندا، فأسرعت

بالدخول نحو الصالون ليلحق بها، أقفلت باب البرندا خشية أن يسمع الجيران صوت والدي الذي بدأ يتلفظ بأبشع الكلام، وماهي إلا دقائق حتى وصل ناجي وراح يصرخ في وجه بابا، بينما يستمر بابا باتهام ماما بشرفها، الشرف الذي ضاع في الليلة التي هربت معه فيها دون موافقة والديها.

ثار الدم في عروق ناجي واشتعلت الكرامة في صدره فصرخ في وجهي قائلا

- احزمي ملابسك ولنغادر هذا المنزل، لن أسمح لوالدتي بالبقاء معه ولا حتى ليوم آخر

وقفت مذهولة فصرخ مؤكدًا

- ألا تسمعين – احزمي ملابسك

دخلت غرفتنا مع والدتي التي راحت تبكي، ارتدينا ملابسنا بينما رحت أتخيل نفسي أعمل في كافيتيريا بعد دوام الجامعة كي أعيل والدتي وادفع آجار منزلنا الجديد الذي سنقطنه أنا وهي، كانت تلك خيالات جميلة كثيرًا ما تمنيتها، خرجنا من المنزل بينما استمر والدي بالصراخ وحده، نزلنا الدرج مسرعين وناجي يلعن الساعة التي تزوجت والدته من هذا الرجل الذي هو "أباه".

ركبنا في التكسي، نظر ناجي نحونا وقال:

- إلى أين نذهب؟

وهنا قالت ماما:

- خذنا إلى منزل خالتك أمل

على الطريق المؤدي لبيت خالتي أمل، تلاشت الأحلام الوردية أو تلاشى لونها فباتت رمادية باهتة، وبدأ الواقع المرير ينثر رماده فوق قلوبنا، ناجي يعيش في حلب مع زوجته وقد كان في زيارة لـ دمشق يومها، طبيب في بداية حياته المهنية ولديه طفل وعائلة مسؤول عنها، لم يكن بمقدور ناجي تحمل مصروفنا حتى وإن صرخ في وجه والدي وهدده بأن يأخذنا بعيدًا عنه، كذلك هي الحال بالنسبة لـ قيس وداني لكل منهم مصاريفه وهمومه، عندما وصلنا بيت خالتي أمل استقبلتنا بحب كعادتها، ودخلت المطبخ لتغلي الشاي لنا بعد أن فهمت من منظرنا أننا غادرنا المنزل بعد خلاف عائلي

- الله يدبرها، المهم أن تبرد أعصابكم وتهدأوا الآن

وجلسنا ننتظر الله أن يدبر لنا الحل.

يومها وقف زوج خالتي واتجه نحو المطبخ لمساعدة خالتي أمل، فنظرت أمي لي

- اذهبي لمساعدة خالتك

فاتجهت بدوري نحو المطبخ وفي الممر سمعت زوج خالتي يقول لها

- أقسم بالله أن ما يفعله أبو قيس طبيعي جدًا عندما أتذكر بأن أختك حرمته قربها أبرر له كل تصرفاته، لو أني في مكانه لفعلت ذلك وأكثر

توسعت حدقة عيناي يومها وفوجئت بالنبرة المهددة في صوته اتجاه خالتي، وما فاجأني أكثر هو معرفته بانفصال والدي، وأنا التي ظننت أن سرنا مدفون بيننا، أتاري الأسرار لا تدفن في مقبرة العائلة الواحدة بل تحملها الألسن من قريب إلى من هو أقل قربًا حتى تصل أصقاع الأرض، إخوتي كانو حلقة أسراري ويبدو أن والدتي كان لها حلقة أسرار أخرى، وإخوتها يملكون حلقة أوسع ومن حلقة إلى حلقة يصير السر مكتوب على الجبين وتقرأه أعين الناس حتى قبل أن تتبين ملامح وجوهنا.

شربنا الشاي يومها، وقررت والدتي بعد أن قرأت ملامح ناجي والهمّ الذي تكدر على وجهه بمجـــرد تخيل نفسه مسؤولا عنا، قررت أن نعود إلى منزلنا قائلة:

- يلي بيطلع من داره يقل مقداره

اعترضت خالتي

- نامو لدينا الليلة وغدًا يدبر الله ألف حل

لكن والدتي أصرت بعد أن صمت ناجي، وتذكرتُ بدوري أنّ كلية الطب التي تستهلك وقتي وطاقتي لن تسمح لي بالعمل في الكافيتيريا التي تخيلت نفسي أعمل فيها لأعيل نفسي وأمي إن هربنا من أبي.

عدنا يومها إلى المنزل منكسي الرأس كعادتنا، بينما كان والدي جالسًا على الكنبة الخضراء يدخن سيجارته الثلاثين شاردًا في تلفاز يتمم بكلام لم يسمعه يومًا ولم يكترث بمعناه.

نمنا مباشرة بينما نام ناجي في الغرفة معنا، شعرت بالأمان لعودتي إلى منزلنا ورغم ذلك وفي منتصف الليل استيقظت صارخة فأيقظت والدتي وناجي على صراخي

- بسم الله عقلبك، بسم الله عقلبك، راحت والدتي تتمتم فقلت لها:

- لاشيء يهم، مجرد كابوس

- هيا نامي يا صغيرتي وأنا هنا بقربك لن أتركك

فعدت للنوم وأما كابوس تلك الليلة فقد أصبح الكابوس الوحيد الذي رافق أحلامي لسنين قادمة .

كانت لاتزال فيروز تدندن مواويلها الصباحية، عندما ركنت سيارتي وعدت بذاكرتي إلى اللحظة الحالية، دخلت المشفى وصعدت الدرج نحو قسم طب العيون حيث أعمل أخصائية بدوام كامل.

في الممر صادفت سام، بكل بهاءه الصباحي، توقف أمامي ثم نظر إلي نظرة جميلة قائلًا:

- وااو وااو ما هذا الجمال وهذه الأناقة

ابتسمت له للمرة الأولى من صميم قلبي سامحة لمشاعر الحب أن تطفو إلى عيني ومعطية الإذن المطلق لقلبي بأن ينبض من جديد.

..*.*.*

دمشق - 1990 - حب بنكهة المازدا

أضفت السيارة المازدا الجديدة الكثير من الكاريزما ل قيس الذي لم تنقصه الكاريزما ولكن السيارة جعلت كاريزماه واضحة أكثر للعيان، كان ما يزال في السنة الجامعية الأولى عندما أغرمت به مايا، أجمل فتاة في كلية الهندسة، والتي تكبره بعامان، لم تكن مايا فتاة جميلة وحسب بل آية من آيات الجمال، عيون غميقة سوداء برموش طويلة، وجه عريض بخدود ممتلئة، معالم بارزة، شفاه نبيتية اللون ممتلئة بالفيللر الرباني المنشأ، وشعرها طويل مموج ينسدل على أكتافها جاعلًا منها حصانًا بريًّا خلق كي يُعشق.

لم تكن مايا قد أغرمت بأحد إلى أن انضم قيس إلى الكلية فأعجبها طوله، غمازتاه، عيناه الجميلتان اللاتي ولا بد ورثهما عن والده، لم يكن متمرسًا في عشق النساء كوالده بل كان طيبًا وجميلا كوالدته، وعندما رأت مايا قيس ينزل من سيارته المازدا ازداد إعجابها به، فرمت بنظراتها نحوه مرتين أو ثلاث قبل أن يقترب منها ويعرفها عن نفسه.

وهكذا بدأ الحب بين هذا الثنائي الذي أصبح مع الأيام الثنائي الأشهر في كلية الهندسة، لقد كانا كأبطال الأفلام، الجمال موجود، المال موجود، فلمَ لا تخلق قصة الحب العظيمة التي سيتحدث عنها طلاب الجامعة وحتى مدرسيها وأساتذتها.

كانت ليلى سعيدة جدًا لأن ابنها الكبير يعيش قصة حب للمرة الأولى، وقد أتعبها لسنين خجله وعجزه عن التحدث لفتاة، فباتت مايا صديقة العائلة تزور ليلى وتجلس مع قيس وإخوته وتشاركهم الطقوس المختلفة كشرب الشاي بعد الغداء، والنزهات الصيفية إلى بلودان والغوطة حيث يقود قيس السيارة وتجلس على يمينه مايا بينما تجلس والدته وأخويه داني وناجي في الخلف وفي حضن أحدهما تتكور حلي كعادتها التي لم تفارقها لسنين بالجلوس في حضن أحد إخوتها.

أغرمت العائلة كلها ب مايا التي أضافت حسًّا أنثويًّا لطيفًا لحياة تلك العائلة.

وفي الكلية، تباعد قيس عن خالته أمل فقد انشغــل كل منهما بقصة حبه الجديدة، قصتا حب في تسعينيات القرن الماضي، في الشام "المدينة التي خلقت للحب"، والتي أحيت ودفنت الكثير من قصص العشاق.

قصتا حب لا تشبهان بعضهما بشيء، هناك الحب الجارف الذي قفز فيه قيس مع مايا متجاهلان فرق العمر بينهما، تاركان لشلال الحب بأن يجرفهما حيث لا يدريان، وهناك الحب الحذر بين أمل ومحمد، حب بالخفاء، لشابين من طائفتين مختلفتين وهما على دراية جيدة أن قصتهما الجميلة محفوفة بالفشل بل تحتاج لمعجزة كي يكون لها مستقبلًا في مدينة كدمشق.

..*.*.*

دمشق - 1990 – أمل

ودائرة سرها الصغيرة

قررت أمل أن تحدث أختها ليلى عن محمد، فهي لن تتمكن من الاستمرار بقصة حبها، دون الحصول على دعم ليلى أختها الكبيرة وأمها الروحية، ولذلك وفي صباح أحد الأيام أخبرت والدتها أنها ستذهب لزيارة ليلى بعد الجامعة وأن قيس سيعيدها مساء إلى المنزل، وفعلا جلست أمل مع أختها لاحتساء الشاي بعد الغداء، وكانت حلي تلعب قربهما بألعابها الصغيرة المتناثرة في كل مكان، اقتربت أمل من حلي وعانقتها وكأنها تستمد القوة من ابنة أختها الصغيرة، ثم قالت لها

- لو تعلمي كم أعشقك يا حلي

فابتسمت حلي لخالتها خجلة دون أن تجيب.

بعد أن احتست أمل أول رشفة من الشاي، نظرت بعيني أختها

- أريد أن أخبرك بشيء

رفعت ليلى حاجبيها مستغربة

- اللهم اجعله خير، قولي

فقالت أمل بعد تردد

- هناك شاب

ابتسمت ليلى وقالت بصوت عالي

- عيني الله، هذا خبر رائع

ولكن أمل لم تبادل أختها الفرحة، فاستغربت ليلى

- طمأنيني، تحدثي يا أمل

- هو ليس من طائفتنا

ابتلعت ليلى ريقها، ليلى التي أصبحت الآن في الخامسة والثلاثين من عمرها، ولكن جمالها نضج الآن، وجهها كالبدر، منير مستدير، عيناها عميقتان وشعرها مصبوغ بالأسود الفاحم لإخفاء الشيب الذي اقتحم حياتها مبكرًا جدًا، ومع ذلك كانت تبدو في عز جمالها بجسمها المكتنز وبشرتها البيضاء النقية، قالت ليلى بهدوء:

- من أي مدينة هو ؟

أزاحت أمل بنظرها

- من الشام

ارتبكت ليلى وقالت بصوت منخفض وكأنها تخشى من الجدران أن تسترق السمع

- لماذا يا أمل، أنتي تعرفين أمك جيدًا، تذبحك قبل أن تزوجك إياه

صعدت الدموع لعيني أمل، فاقتربت ليلى منها وعانقتها

- أتحبينه لهذه الدرجة؟

بدأت أمل بالبكاء، بينما صمتت ليلى ولم تعرف ما تقول وبعد الكثير من الصمت تنهدت

- لازلت صغيرة، بإمكانك أن تحبينه قدر ما تشائين، أمامك الطريق طويلة فاسعدي بالحب ولا تشغلي بالك بما بعده، من هنا إلى أن تتخرجي من الجامعة يخلق الله كل خير.

هزت أمل برأسها دون أن ترد.

وهكذا اتسعت دائرة السر التي تخص قصة الحب تلك لتشمل ليلى بعدما كانت مقتصرة على أمل وقيس .

اللاذقية - 1970 - حامل

أمضيت ثلاث أشهر مع عائلة عمار في القرية، حيث اعتاد عمار على زيارتنا في أيام الخميس والجمعة فقط، بينما يتغيب الأسبوع بكامله في الثكنة العسكرية في دمشق.

ازدادت رغبتي في تلك الشهور بالذهاب إلى المدرسة، فقد كان من البسيط جدًا أيامها أن أتابع دراستي مع أخواته في مدرسة القرية، حيث شجعت الحكومة على التعليم وسهلت السبل إليه، لكن قسوة عمار التي تعرفت عليها من خلال نظرة إخوته إليه وخوفهم منه جعلتني أتردد في سؤاله.

وعلى الرغم من خوفي الشديد منه إلا أن حبي الشديد للمدرسة واعتقادي بأن عودتي إليها قد يفرح قلب والدتي جعلني أستجمع القوة التي لم أملكها يومًا وأسأله الموافقة.

وفي الخميس الثاني من شهر كانون الثاني، في يوم بارد جدا وبعد أن انتهى من عشاءه واتجهنا سويا للنوم في غرفتنا، قررت أن أسأله الإذن للعودة إلى المدرسة، فجاءت ردة فعله تفوق كل تصوراتي عن قسوته، صرخ في وجهي ولم يتوقف عن الصراخ حتى اجتمعت العائلة كلها في غرفتنا وراحو يبعدوه عني بعد أن كان على وشك ضربي، يومها وقفت والدته بوجهه ومنعته من ضربي، وأخذته معها إلى الغرفة الأخرى وبقيت

وحدي أبكي بصمت وحرقة. في اليوم التالي وبعد سفر عمار إلى دمشق، أخبرتني والدته أن أتوقف عن التفكير بالمدرسة فقريبًا قد أصبح أم. جفّت الدماء في عروقي، تركتها ومشيت نحو غرفتي والخوف يأكلني من أن أصبح أمًّا بينما لا أدري ما أفعله هنا، وفعلًا وخلال أسبوعين من ذلك اليوم تبين أني حامل، ولذلك قرر عمار أن يستأجر لي غرفة في منزل أخته أم علي وأن أعيش عندها في المزة، جارة لوالدتي وخنجرًا في صدرها، وهكذا عدت إلى المزة بعد ثلاث أشهر من رحيلي عنها، رحلت عنها كطفلة وعدت إليها كأم.

كان منزل أم علي مشابهًا جدًا لمنزل عائلتي مع اختلاف جوهري هو أن أمي ليست فيه، وهكذا اتفق عمار مع أخته على دفع إيجار غرفتنا شهريًا من راتبه، بينما استمر في عمله الذي يغيب فيه طيلة الأسبوع ويعود في نهايته.

ضمّ المنزل - الذي لطالما دخلته في طفولتي محمّلة بصواني الكعك والمأكولات المختلفة التي كانت ترسلها ماما لجارتنا كلما أعدت طبخة مميزة كأقراص السبانخ المقلية بزيت الزيتون أو كبيبات السلق الشهية المغطسة بالزيت والتوم أو ورق العنب - من ثلاث غرف نوم، فسحة سماوية صغيرة ومطبخ صغير، وأما الغرفة التي خصصت لنا فقد فرشها عمار بسرير حديدي صغير وكنبة خشبية ثلاثية ومدفأة مازوت، لم يكن هناك أي شباك في تلك الغرفة.

عندما وصلت إلى دمشق في ذلك المساء، جلست مع عمار في غرفتنا فراح يحدثني بكلمات غريبة ولهجة لم أعرفها فيه من قبل، تحدث إلي عن عيونه الكثيرة التي يرى بها كل شيء، محذرًا إياي من مغادرة المنزل لأي سبب كان، لقد حرمني حتى من التفكير في زيارة والدتي أو من التجول في الحارة، نظر في عيني نظرة ملؤها التهديد وقال:

- أنا أراك في كل لحظة، إياك ثم إيـــاك يا ليلى أن تغادري عتبة هذا المنزل أو أن تطأي بقدمك الحارة

وهكذا زرع عمار في قلبي خوفًا وحيدًا، وأما وعده لي في ذلك المساء يوم هروبي معه قائلًا

- وأنت وإياي لن تخشي شيئًا

لقد صدق عمار بوعده لي، لأنني فعلا ومنذ تزوجته لم أخشى أحدًا في الكون إلا هو.

..*.*.*

الكلية الحربية - 1990

لم يرغب عدنان بمغادرة السرير لأي سبب كان، ولكن والدته حملت عكازتها وحلفت بضربه حتى الموت إن لم يستيقظ ويذهب لإجراء مقابلة الكلية، كانت أمل تقف بقرب السرير الذي يستلقي عليه عدنان محاولة تهدئة والدتها تارة وإقناع عدنان بالاستيقاظ والذهاب إلى المقابلة. وهكذا وبعد معركة عائلية صغيرة وقف عدنان لاعنًا الكوكب، والقدر والكون لجعله فردا من هذه العائلة، صرخت به الجدة

-سد بوزك "أغلق فمك" وقم ارتد ملابسك.

وهكذا ارتدى عدنان ملابسه بينما كانت أمل جاهزة لمرافقته إلى مكان التقديم للكلية الحربية.

ولأن الجدة لم تثق بابنها فقد قررت هي الأخرى أن تذهب معهما، نظر عدنان نحو والدته

- لماذا تريدين الذهاب معي ؟

زمت حاجبيها وشفتيها دون أن تتكلم ومشو ثلاثتهم في الحي الذي كان ينتظرهم في نهايته قيس ابن ليلى .

ركبو جميعًا مع قيس في السيارة، واتجهوا نحو مركز مقابلات الكلية الحربية.

ابتسم قيس لعدنان مرحبًا

- كيف الحال يا خال؟

- كما ترى يا خال، غدًا إن استشهدت ذَكِّر جدتك بأنها السبب وراء استشهادي

ضحك قيس:

- ولت أيام العروبة والحروب يا خال، فلا تخش الاستشهاد

امتلأت الجدة غيظًا من كلام ابنها، لكنها لم تجب والتفتت نحو الشباك وراحت تحدق في الطريق، وخزت أمل أخاها بكوع يدها وعضت على شفتيها راجية إياه أن يصمت.

لم يخبر عدنان أحدًا عن أسباب اكتئابه الكثيرة فهو يحزن على نفسه لأنه لم يولد ابنًا ل ليلى بل شاءت الأقدار السيئة أن يكون ابنًا ل عليا، فلو أنه ابن ليلى لكان غنيًا مرفهًا مهندسًا جميلًا كالمهندس قيس لكنه وللأسف ليس إلا ولدًا فاشلًا فقيرًا لم يترك له والده شيئا كي يرثه، والده الرجل الطيب المتدين المسالم وهو يكره هذه الصفات الثلاث تمامًا ككره والدته لها.

ولكن من يستطيع أن يسلخ جلده وينزع موثات والده من دمه؟

هو لا يستطيع أن يكون جذابًا ولا ذكيًا ولا غنيًّا ولا جريئًا ولا طويلًا

لا يستطيع أن يكون شيئا إلا نسخة مصغرة عن والده، وأما الكلية الحربية والتي تصر والدته على إرساله إليها فهي لن تغير شيئا من مرارة الحقيقة، مهما حاولت والدته الكذب على نفسها، الرتب الكثيرة بنظره لن تغير معدن الإنسان وموروثاته.

وصلت السيارة المازدا إلى مدخل الكلية، نزلو جميعًا، كان هناك الكثير من الحشود الشابة التي تنتظر الدخول للمقابلة، نظر قيس حوله وأذهله مشهد الشبان الذين اكتظوا بانتظار دورهم. لم يحتج إلى عدسة خاصة ليعرف انتمائهم فهم جميعًا أو ربما معظمهم من الساحل أبناء طائفة واحدة، الطائفة التي تقبل بحياة الجيش ومستقبله المحدود، وهو تمامًا ما استغربه محمد حبيب أمل ولم يفهم أسبابه.

نظر قيس حوله فوجد أبناء الفلاحين، شبان من القرى، وجوه سمراء لسعتها شمس الساحل، وعجنت ملامحها بالسذاجة والطيبة والفقر، شباب في بداية العمر يمشون نحو مصير مجهول تزينه رتب الجيش الذي يقتل الأحلام ويطمس معالم الحياة الحقيقية، الحياة الحرة المفتوحة الأفق.

وبعد طول انتظار جاء دور عدنان للمقابلة، دخل إلى اللجنة بينما راحت الجدة تدعو له وتمشي يمينًا يسارًا بكتفيها الحانيان وجسدها النحيل بينما تشبك يداها خلف ظهرها.

جلس قيس بقرب أمل على حافة اسمنتية وراحا يراقبا الجدة التي تمسح

ساحة الكلية جيئة وذهابًا.

وعندما يأس قيس من النظر إلى جدته، نظر نحو خالته وسألها:

- ما الذي يدفع هؤلاء الشبـــــان إلى حياة الجيش القاسية؟

أجابت أمل دون أن تنظر في عينيه

- الفقر يمكن

هز رأسه وتنهد ثم سألها:

- ماكان رد فعل والدتي عندما أخبرتها عن محمد؟

- قالت لي، أمك تذبحك ولا تزوجك له

عض قيس على شفته السفلى متأسفًا، ثم قال

- دعيها على الله، هو يدبر كل شيء

ضحكت أمل بعينيها وهزت رأسها باستهزاء

- لقد نطقت والدتك بالجملة نفسها

ضحك قيس:

- والدتي وأنا نملك نفس القناعات

صمتت أمل قليلًا ثم قالت:

- المشكلة أني لست مثلك ومثل والدتك، أنا لا أستطيع أن أتوهم ولا أعرف كيف أحلم وكيف أتفائل منتظرة من المستقبل أن يحل مشكلاتي، سأخبر والدتي وأنهي الموضوع.

- لا تستعجلي الهم، الوهم حلو، استمتعي به

أخذت أمل نفسًا عميقًا ثم عادت للشرود في والدتها التي تحرث ساحة الكلية جيئة وذهابًا.

..*.*.*

أم علي الجارة التي غيرت حياتنا

يمكن للحياة أن تغيرك فتقسو أو تلين، ولكنك لم تخلق لتكون قديسًا بالمطلق ولا وحشًا بالمطلق.

وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها مهما نعتنا بعضنا بالوحوش والقديسين، فنحن مزيج من الاثنان، نحنا الوحوش بنظر كل من يكرهنا، كل من يغار منا، كل من لا يفهم عقلنا ومعتقداتنا وقناعاتنا . . .

ونحن قديسين بنظر كل من أحبنا، كل من ساعدنا وكل من رأى فينا ما يشبه قناعاته ومعتقداته.

نحن مزيج من اثنين وسنبقى كذلك حتى تنتهي الإنسانية نحن الخير والشر، الحب والكراهية، نحن الظالمين ونحن المظلومين في آن معًا.

بين ليلة وضحاها، تحولت أم علي من صديقة والدتي الصدوقة إلى عدوتها اللدودة، أم علي التي شابهت أمي في معظم صفاتها، في قوتها، في صبرها، في محبتها لأخوتها وحتى في شكلها وشخصيتها وأفكارها، لقد كانت أختها التي لم تلدها أمها.

لطالما تحدثت والدتي عن كرم جارتنا، محبتها اللامتناهية لإخوتها، عزمها اللامتناهي على أن تجعل من الشبان منهم رجالًا بمساعدتهم بالمال والدعم كي يتعلموا ويتابعوا دراستهم وبالمقابل وقفت بجانب أخواتها البنات كي يتعلموا أيضًا وكي يصبحوا نساء مستقلات وقويات وهي أشياء لا يمكن نكرانها لتلك المرأة التي دمرت حياتي.

..*.*.*

فيينا – طقوس خاصة

لنحتسي القهوة؟ ودعوة صباحية للحب . . .

بدأت طقسا فريدًا من نوعه مع سام، وهو شرب القهوة الصباحة معًا في المقهى القريب من المستشفى، وفي أحد الأيام حدثته عن حكايتي مع القهوة، وشعوري بالسعادة بمجرد الإمساك بفنجان القهوة، فابتسم

- لا أستطيع أن أتخيل أن القهوة تعطيكي هذه الثقة والقوة، لأني أشعر بأنك خلقت لتحملي فنجان القهوة وتسيري به وتعطيه نكهته فتجعليه لذيذًا بنظر كل من يراك

ابتسمت لكلامه وسألته بدوري إن كان له حكاية مع القهوة

- القهوة هي ذاكرتي، هي الشيء الوحيد الذي يربطني بسوريا وحكايات سوريا وأهلي في سوريا، ماما علمتني أن اشرب القهوة عندما كنت في البكالوريا، وأخبرتني أن القهوة ستساعدني على التركيز في الدراسة حتى اعتدت على الاستيقاظ يوميًا على رائحة القهوة اللذيذة التي تعدها ماما.

سألته بحشرية:

- ألا تحب زوجتك القهوة؟

- ممنوع أن ندخل القهوة إلى المنزل

استغربت، فأضاف:

- لدى نور قناعة مفادها أن الإنسان لا يجب أن يدمن شيئًا في الحياة، لذلك ترفض أن تشرب القهوة وحتى أن أدخلها إلى المنزل.

سألته:

- إذًا، مالذي تحتسيه زوجتك صباحًا؟

ضحك فظهرت تجاعيد قليلة حول عينيه اللوزيتين الساحرتين

- زوجتي تشرب الحليب المدعم بالفيتامينات يوميًا صباحًا مع الأولاد، برأيها الحليب لا يسبب الإدمان لعدم احتوائه على الكافيين ومفيد ومغذي، وفي بعض الأوقـات قد تشرب زهورات.

ابتسم قلبي يومها لمعرفتي أن زوجته تكره القهوة بينما نتشارك في حبها، ويومها اقترح علي أن نوسع هوايتنا المشتركة في شرب القهوة وأن نتذوق القهوة في كل مقاهي فيينا، ضحكت من قلبي لهذه الفكرة، وراحت ضحكتي تصدح في المقهى الذي نجلس به، فضحك معي وقال

- مالذي يضحكك لهذه الدرجة؟

- لا أدري ولكنني أغرمت بهذه الفكرة، لقد جاءت على مقاس عشقي.

زم عينيه وبلع ريقه وكأنه ينتظر أن يسمع شيئًا فأضفت

- عشقي للقهوة

صمت وتلاشت معالمه فابتسمت له وبادرني الابتسامة نفسها، قبل أن

يفتح جوجل لنصنع جدول مواعيدنا للشهور القادمة وفي ثلاثين مقهي مختلف.. متذوقوا القهوة .

..*.*.*

المزة - 1971 – ابنة عليا

كان حبلي بطفلي الأول صعبًا جدًا، طفلة في الرابعة عشر بجسد لم تكتمل معالمه بعد حاملًا بطفل آخر، كنت نحيلة جدًا ومريضة، وأعجز عن مغادرة الفراش، فكلما وقفت اختل توازني وبدأت بالتقيؤ، لذلك لم أغادر الفراش طيلة الحمل، ولم أرغب بتناول الطعام كي لا أشعر بالغثيان، فلم أغادر الغرفة إلا نحو الحمام.

وعند عودة عمار في العطل الأسبوعية كان يجبرني على تناول الطعام، فيقحمه في فمي غصبًا عني، فأبكي منه ومن جبروته.

وأما عند رحيله فقد كانت أخته تنهال علي بالتوبيخ قائلة

- لماذا تتدلعين يا ابنة عاليا، كأنه لم تحبل فتاة من قبلك !

لم أفهم لماذا لم تقبل بمناداتي ب ليلى ولماذا تصر على أنني ابنة عليا، عليا التي هي أمي والتي حتى وبعد أن كسرت ظهرها وخطفتني منها، لم يشفى غليلها منها ولذلك ربما تناديني بهذا الاسم ربما لتتذكر دومًا أني ابنة عليا وسأظل كلّ حياتي ابنتها .

كانت شهور حملي متعبة جدًا، جسد هزيل، قلب هزيل، خوف زرعه عمار بقلبي وراح يسقيه حتى تجذّر وأصبح متينًا يصعب استئصاله، أربعة شهور وأنا طريحة الفراش، دون أن أدري إن علمت أمي بعودتي، دون أن أملك الجرأة لفتح باب الدار والنظر في الحارة، وهكذا وبعد مرور شهور الوحام

بدأت بالحركة أكثر، أعد الغداء وأنظف المنزل الذي يملؤه أولاد أم علي الخمسة بكل أنواع الأتربة والكراكيب، وأحلم بأمي التي تبعد عدة أمتار وأخوتي، ووالدي.

وأما أم علي فلم تتوقف عن كرهي، معاداتي، محاربتي وتوبيخي كي أحسن التنظيف وأحسن الطبخ وأحسن الكلام وأحسن الصمت، وبختني على كل شيء حتى على الهواء الذي أتنفسه، كان زوجها طيباً أكثر منها وكان قد حاول الدفاع عني عدة مرات لكنه توقف عن معاملتي بطيبة خشية لسانها السليط، لذلك رحت أعمل بصمت، أدعو الله أن يفك وثاقي ويخرجني من هذا السجن.

المزة – 1990 - لا لليأس

فشل عدنان في مقابلة الكلية الحربية، صدرت قوائم بأسماء الناجحين ولم يكن اسمه من بينهم، فاستشاطت الجدة غضبًا وراحت تقاتل الذباب وتصرخ على كائنات مجهولة وتلعن حظها العاثر في مطبخها القديم والمعتم.

وصل صوتها لعدنان الذي لم يحرك ساكنًا وتابع استلقاءه على التخت، متأملًا السقف متجاهلًا صدى صوت والدته الذي كان يملأ المكان، وأما أمل فقد عرفت مسبقا أن الصمت هو سبيلها الوحيد في مثل هذه المواقف فوقفت تنظر إلى والدتها بصمت مطلق حتى أنها لم تحاول أن تقول أية كلمة لتهدأ بها والدتها، فهي تعرف جيدا أن عليها أن تتركها تفرغ غضبها في الصراخ حتى تملّ الصراخ أو يملّها.

بعد مرور ساعة وربما ساعتان، هدأت الجدة، فنظرت نحو ابنتها

- أريد فنجانًا من القهوة

سارعت أمل لإعداد القهوة بينما جلست والدتها على الكرسي الخيزران في المطبخ ملتزمة الصمت، شربت قهوتها وهمست لنفسها للمرة المليون ربما.

- لن أموت قبل أن أصنع منك رجلًا

دمشق - آذار 1970- وأخيرًا جابت الصبي

وبينما كانت شمس آذار تضرب فسحة الدار في بيت أم علي، وصوت الحساسين يغرد في الحارة، وأنغام الربيع تطرب مسامع القلوب التي تشتهي الربيع، سمعت الخبر الذي جعلني أرقص من الفرح.

كنت أسير باتجاه المطبخ لإعداد الشاي لتهدأة معدتي المضطربة منذ الحمل، وفي طريقي سمعت علي يخبر والدته أنه رأى والدتي عند الدكان، وكانت تحمل عدنان في حضنها، لم أصدق أذنيّ فراح الفرح القديم الذي كدت أنسى نكهته يتسرب في عروقي كنبيذ معتق، أوقظ خلاياي وأزال ستارة الحزن عن صدري، وسمح لشمس الربيع بملامسة بشرتي، طرت من الفرح، حتى أنني تحمست كثيرا ونظرت نحو علي وسألته – ماما خلفت صبي ؟

فرمقتني أم علي بنظرة اشمئزاز

- ماشاء الله عليك، ولماذا كل هذ السعادة؟ ينبغي عليك أن تفكري بنفسك وكيف تنجبين صبي من البطن الأول لا كوالدتك لم تنجب الصبي إلا بعد أن خلفت خمس بنات

- جاء جوابها خفيفًا على قلبي فلم أنتظر منها إلا تأكيدا على إنجاب والدتي للصبي ووجدت ما أرغب بسماعه في تلك الإجابة.

امتنعت يومها عن إعداد الشاي وعدت نحو غرفتي، أقفلت الباب ورحت

أبكي، بكيت فرحًا لأن والدتي أنجبت الصبي الذي انتظرته كثيرًا، وبكيت حزنًا لأني لم أكن معها يوم ولادتها، ولأنني لن أحظى بالفرصة للعب مع عدنان وتدليله والركض وراءه وتغيير حفاضه كما كنت أفعل مع أمل، لعل أختي نهال ستصبح مكان ثقة والدتي الجديد وستوكل لها تلك المهام، أو أنها فقدت ثقتها بكل بناتها بعد ما فعلته بِكْرِها بها.!

فيينا - مواعيد مع القهوة

أعد سام قائمة بالمقاهي التي سنتذوق قهوتها، واتفقنا على أن نلتقي مرة بالأسبوع وكل أسبوع في مقهى مختلف، واخترنا أن نبدأ بالمقاهي القديمة والتي لها تاريخ عريق في فيينا، فيينا التي يعتبر تناول القهوة فيها طقسًا له هيبته منذ قرون، حتى أنهم يدعون السياح عشاق القهوة لزيارة فيينا والتلذذ بطقس تناول القهوة في مقاهيها.

المقهى الأول الذي اخترناه يدعى كافيه سنترال، وهو بناء قديم جميل، وصلت يومها قبل سام ولم أنزعج من انتظاره لأنني غرقت في جمال وسحر المكان، الجدران العالية، الطراز المعماري الذي ذكرني قليلًا ب بيوت دمشق القديمة، أرض الديار والفسحة السماوية.

وأما الشيء الوحيد الذي سيظل مفقودًا في غربتنا هو الرائحة التي رافقت تلك المشاعر، رائحة الذكريات، قد نسترجع الأماكن بمخيلتنا وقد أشعر للحظات بأني في الشام القديمة لكن مشاعري القديمة لا يمكن أن تعود، فالرائحة التي رافقت تلك الذكريات لا يمكن استحضارها.

حدثت سام عن كل ما لم أحكيه لزوجي طيلة حياتي الزوجية، وحكى لي كل ما تمنى لو يحكيه لزوجته ولكنه يخاف أن يخبرها إياه، كنا روحان سوريتان معلقتان تربطهما رائحة القهوة في فيينا، وتبحثان عمن يستمع لهما دون إنتقاد، دون أن يبني أفكارًا ويرفع في مخيلته أبراجًا من التوقعات

ينتظرها من الشخص الآخر.

لم نبدأ صداقتنا تلك لصنع مستقبل لها بل فقط لإضافة نكهة زكية كنكهة القهوة إلى يومياتنا.

كل ما كنت أبحث عنه هو شخص ما لمشاركته أفكاري وهواجسي وعقدي النفسية دون أن يجد لي حلا لأي منها، وهكذا بدأت بالحديث عن طفولتي أخبرته أني كبرت معقّدة من الرجال، كيف لا أكره الرجال؟ وكل من رأيتهم من الرجال كانو غريبين ومتسلطين، بدءً من والدي وصولًا لزوج خالتي أمل الذي لم يكن خائنًا ولكنه كان فقير عقل وبصيرة، وما أصعب أن تبتلي امرأة برجل يفتقر للعقل.

كبرت وأنا أحلل شخصيات الرجال في عائلتنا واتخذت

قرارًا مبكرًا مفاده "ما من رجل يستحق الحب"، لذلك ربما لم أختبر الحب بمعناه العميق أبدًا، وعندما تزوجت اخترت زوجًا لا يشبهنا، معاكس لكل صفة من صفات الرجال في مخيلتي، وتوقعت من نفسي أن أكون أنثى بوجوده ولكنني فشلت بأن أكون أنثى، فعلّقت عليه مشاكلي النفسية، واتهمته باطنيًا بقلّة التقدير لأنوثتي التي دفنتها قبل أن أتزوجه حتى.

ولذلك وعندما يقول زوجي بأني أشبه والدي لا والدتي علمًا أنه لم يراه في حايته إلا مرة واحدة، فهو لا يكذب، لأني أخاف من أن أشبه أمي فأكون الأنثى التي ضحت وضحت لمن لا يستحق. ولذلك اخترت باطنيًا

أن أكون الطرف الذي لا يستحق، الأنثى القيادية التي لا تقهر، ولا تنتظر من رجل أن يحدد دورها وقيمتها في الحياة.

الآن وعندما وصلت أبواب الأربعين بدأت أشعر بأهمية أن أكون أنثى، أن أصبح أنثى، وكأن الأنوثة تكتسب بالعمر أو تحقن مع البوتكس والفيلر، وهذا ما لن ينفع معي ولا مع زوجي، فهو لم يعتد على أنثى في المنزل وليس من المستحب أن نغير ما اعتاد عليه الرجل.

أنهيت حديثي العميق عن الأنوثة، ونظرت إلى سام الجميل منتظرة منه تعليقًا، ولكنه ذكي، لم يعطي أي تعليق، محاولًا الالتزام بعهدنا بالثرثرة من دون تعليق أو نقد أو حل.

وهكذا تحدث لي عن الأنوثة في بيته، حدثني عن نور الأنثى، التي خلقت أنثى وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، فهي تعشق التمايل بملابسها الشفافة في المنزل، حتى أنه لا يذكر أنها اقتنت بيجامة عادية طيلة حياتها، وإنما تشتري الحرير وترتدي الدانتيل وتكشف محاسن جسدها التي تزداد اكتنازًا مع السنين، حتى أنها لا تخجل من أطفالها الذين اعتادو عليها بهذه الهيئة.

حكى لي كم سحرته نور في بداية زواجهما، كيف جعلت منه خاتمًا في إصبعها، حتى أنه قطع علاقاته بكل مخلوق على الكوكب حتى خاله محمد الذي كان سبب مجيئه إلى فيينا، وبقيت نور الإنسان الوحيد الذي يعترف

بوجوده ويشاركه حياته.

أخبرني أن الأنوثة جميلة وأنه لا يستطيع أن ينكر ذلك، ولكنه لم يظن ولو لمرة واحدة أن هناك أنثى لا تشعر بأنوثتها، وهذا ما أدهشه من كلامي، لعلّه وجد فيَّ الأنثى التي لم يجدها زوجي!

أخبرني أن الأنوثة وما يرتبط بها يشكل ١٠٪ فقط من الحياة الزوجية وأما ال ٩٠٪ الباقيين فيتعلقون بأمور كثيرة أخرى أشد أهمية، كالحرية مثلًا، كالحب، كالاحترام، كالحدود، كالتفاهم، كالصداقة...

الصداقة... توقف كثيرًا قبل أن يتابع كلامه عن الصداقة، ليس هناك أروع من أن يتزوج المرء صديقه، شخصًا يشترك معك بالاهتمامات والأفكار، شخصًا يستمتع بحديثك وتستمع بالحديث إليه، الصداقة أهم شيء في كل زواج ناجح.

ضحكت ضحكة عالية، أضحكتني كلمة زواج ناجح، استغرب من ضحكتي فقلت

- أماتزال مؤمن بأن هناك زواج ناجح ؟

صمت ولم يجب وكأنه خشي أن يقول لي نعم، وعندها

فقط توقفت عن الضحك وتذكرت وعدنا بعدم انتقاد بعضنا بعضًا .

المزة – 1990- أخي الصغير

كانت قد نامت الجدة عندما قررت أمل أن تجلس بقرب أخيها في السرير، وتسأله السؤال الذي يأن على بالها منذ زمن، "لماذا؟"

لماذا هو يائس لهذه الدرجة، لماذا هو كئيب ومضرب عن الحياة؟

لم يجب عدنان عن سؤال أخته ولذلك حاولت أن تجعله يتحمس للحياة ولو قليلًا فحدثته عن الجامعة وحياة الجامعة، تكلمت له عن الأجواء والأصدقاء، وكم جميل أن يدخل إلى الجامعة ويتعرف على الصبايا الجميلات، وبعد طول حديث، قال لها:

- لما هذا الحديث الغريب وعلاماتي لا تؤهلني على دخول الجامعة؟

- أعدّ التقدم لامتحان البكالوريا، وسأساعدك أنا في الدراسة كي تضمن الحصول على معدل يؤهـــلك على دخول الجامعة.

- أشكرك، لكن مورثات الذكاء كلها كانت من نصيبك، بينما لم أحصل إلا على مورثات الغباء

صمتت أمل قليلًا، تنهدت ثم قالت:

- أنا لست ب ذكية، لو أنني ذكية لما اضطررت لإعادة البكالوريا، لو كنت ذكية لدرست طب لا هندسة، ولكنني بإعادتي للبكالوريا وجدت المواد أسهل وأسْلَس، صدقني ستلاحظ ذلك بنفسك

لم يجب عدنان

- أرجوك أن تفكر جيدًا قبل أن ترفض، عندما تدخل الجامعة ستدرك كم أن البكالوريا سهلة وتستحق منك محاولة أخرى

أنهت أمل كلامها وانسحبت كي تنام تاركة لعدنان الوقت بالتفكير، لكنه لم يفكر بل غرق بالنوم هو الآخر تاركًا للكون حرية تقرير مستقبله مثلما قرر الكون مسبقًا بأن يجعل منه ابنًا لهذه العائلة.

دمشق - 1971 - ليلى - هديتان من الله

كنت قد أكملت الشهر التاسع من الحمل، وكنت أعلم باطنيًا أن والدتي قد علمت بوجودي في بيت جارتنا أم علي، فالحارة ضيقة وهناك الكثير من الجارات اللاتي زرن أم علي وعرفن بإقامتي لديها، ولا بدّ أنهن قد نقلن الخبر لوالدتي، التي لم ألتقيها ولا لمرة خلال طيلة الشهور التي أمضيتها هناك.

بعد مرور تسعة أشهر من الحمل، حان موعد الولادة، وتمامًا في يوم الجمعة الثاني من آب من عام 1971، وكان ذلك يومًا صيفيًا شديد الحرارة، ذو هواء جاف يقطع النفس.

استيقظت فيه صباحًا على جسدي المتعرق فدخلت للاستحمام قبل أن يستيقظ أحد، وفي الحمام شعرت بالماء ينسكب مني، خفت كثيرًا فارتديت ملابسي وسارعت لإيقاظ عمّار الذي أيقظ بدوره أخته أم علي والتي أخبرتنا أن موعد ولادتي قد حان فسارعت لإحضار القابلة القانونية المرأة التي أشرفت على ولادة جميع نساء الحـــارة ومن بينهن والدتي.

استلقيت في السرير ورحت أدعو لله، الله الذي رافقني في حياتي كلها ولم يتخلى عني، رحت أدعوه أن أنجب طفلًا سليمًا مُعافى، وعندما جاءت آلام المخاض رحت أصرخ من صميم قلبي، صرخت ألمًا وقهرًا، صرخت وكأن الصراخ قد يفرغ روحي من أوجاعها التي تراكمت على عُمْرٍ صغير،

صرخت وكأن الصراخ سيعيدني طفلة فأنسى كل ما حدث لي وكل ما قد يحدث.

وعندما خفّت آلام المخاض، نظرت إلى عمار ورجوته بأن يحضر والدتي إلي، بكيت وتوسلت إليه، لكنه رفض.

فازداد الألم في قلبي هذه المرة وازدادت معه آلام المخاض ورحت أصرخ وأصرخ وأناجي الله بأن ينهي الألم، تكاثف الهواء من حولي رافضا الدخول إلى رئتي فكدت أختنق.

وبعد ساعتين من ألم المخاض المتقطع، أعلنت القابلة يأسها من ولادتي وأمرت عمار بأن يسرع لإحضار الطبيب، عندها فقط شعر عمار بأنني قد أمـــوت فركض لجلب الطبيب.

رأيت التوتر في عيني القابلة القانونية التي راحت تشرح لأم علي بأن الولد يستعصي في الرحم ويرفض النزول، وبينما هي تحكي كنت بين الحياة والموت أنادي

- أريد أمي، احضروا لي أمي

وبينما كنتُ هناك في مكان ما بين الحياة والموت، دخل الغرفة وجه جميل، جميل جدًا وعزيز جدًا على قلبي، وجه أعرفه جيدًا وأرغب بشدة لو يضمني بين ذراعيه فأنتهي من هذا العذاب، اقترب الوجه الجميل، انحنى وضمني بيديه ثم أمسك بيدي ومسد جبيني وقبلني قبل أن يصرخ في

الجميع.

- أين الطبيب، لماذا لم تحضرو الطبيب حتى الآن؟

وعندها فقد تأكدت أن ذلك الوجه وتلك اللمسة هي لأمي فعلا، أمي تحتضنني ... وهنا فقط شعرت بالأمان.

دخل الطبيب الغرفة مستعجلًا وحاول أن يفعل المستحيل لمساعدتي في الولادة، بينما أمسكت بيد والدتي ورحت أشد عليها هكذا إلى أن سمعت صوت طفل صغير يبكي، وعندها فقط غبت عن الوعي.

أخبرنا الطبيب يومها أن حوضي ضيق جدا، ولذلك تعسرت ولادتي لهذه الدرجة.

عندما استيقظت كانت ماما ما تزال في الغرفة تغسل وجهي وجبيني بماء الورد ، وتخفف عني حر ذلك الصيف وآلام ذلك اليوم وهموم تلك الحياة.

دمشق - 1990 - أمل والحب

كان على أمل أن تدفع فاتورة الكهرباء، لذلك أخبرت محمد في يوم سابق بأنها ستتأخر عن الدوام كي تدفع الفواتير صباحًا، فقرر أن يلتقي بها أمام مؤسسة الكهرباء فهو لا يريدها أن تذهب بمفردها.

وفي صباح ذلك اليوم، ابتسم الحب لهاذان الشابان الذين اجتمعا أمام باب مؤسسة الكهرباء، بدت بهية كالشمس وبدا جميلًا كعاشق.

كان محمد رجلا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، رجل يساند امرأته ويغار على أنوثتها، لذلك تكفل بأن يذهب معها دومًا إلى كل المؤسسات التي قد تحتاج لزيارتها سواء لدفع الفواتير أو لقبض راتب والدها التقاعدي أو لأي شيء آخر.

عاشت أمل أجمل قصة حب بقرب محمد الرجل، الجريء العطوف والراقي، وخلال سنين الحب بينهما كانت تحلم بأن يصبح زوجها يومًا ما وأن تعيش بقربه كامرأة مدللة، لا كامرأة مناضلة كما عاشت والدتها كل حياتها تكدح في بيع المنتجات المهربة وتكدح في مواسم الزيتون والليمون وتكدح بكل لحظة وكل طريقة كي تعيل أسرتها.

أرادت أن تعيش حياة مختلفة أن تكون امرأة مستتتة في بيت زوجها، امرأة تشرف على ما داخل البيت فقط ولا تشغل بالها بالفواتير والمصاريف.

لقد عاملها محمد كأنثى، وهو شعور داعب قلبها وجعلها تستمع برفقته،

دون أن تمتلك الجرأة وتخبره بأنها من يرمي القمامة ومن يشتري الخبز كل يوم من الفرن وبأنها من يذهب إلى محل الفلافل كل جمعة لشراء الفول والحمص للفطور وبأنها رجل المنزل الحقيقي بوجود أخوها او بعدم وجوده...

في الوقت ذاته غرق قيس بالغرام مع مايا الفتاة التي دخلت حياته وحياة أسرته وجعلت كل من هو في بيت ليلى يعيش الحب معهما حتى والده عمار "أبو قيس" الذي أعجب بالفتاة حين قدم صدفة إلى المنزل ووجدها تجلس مع أسرته تتابع التلفاز، فعاملها برقي شديد واهتم بها وطلب مشاوي للغذاء على شرفها، مما جعلها تعاتب قيس لاحقًا وتتهمه بتهويل الأمور عندما يتعلق الأمر بوالده، فهي لم تجد فيه إلا رجلًا راقيًا ومنفتحًا.

لكن مالم تعلمه مايا هو أنها وبعد أن ودعت تلك العائلة في ذلك اليوم وركبت مع قيس في سيارته لإيصالها إلى السكن الجامعي، شبّت معركة عائلية كبيرة في منزل أهل حبيبها، فقد انقلبت معالم أبوقيس فجأة وجنّ جنونه للسماح بفتاة غريبة بزيارة منزل يعج بالشبان، فراح يصرخ في وجه ليلى متهما إياها بقلّة التربية وبأنها تعجز عن أن تكون امرأة محترمة تحترم بيتها، وهكذا اشتعلت نيران المعارك التي لم تنطفئ يومًا في ذلك المنزل.

وبينما كان قيس يقود السيارة بقرب حبيبته التي تحدثه عن إعجابها برقي والده، كان والده يلعن كل من في المنزل ويصرخ فيهم جميعًا. فانسحبت أم قيس وابنائها ناجي وداني نحو غرفة النوم حيث كانت حلي تنام، إلا أن عمار

تبعهم نحو الكوريدور "الممر" المؤدي إلى غرفة النوم وأخذ يشتم، مما دفع ناجي للرد عليه بالمثل مدافعًا عن والدته، فاستيقظت حلي خائفة من نومها دون أن تبكي بل فقط متفاجئة مصدومة بينما عيناها الجميلتين تبحلقان في كل ما هو حولها، وهو مشهد اعتادت عليه في حياتها.

وكي ينتهي الخلاف، حمل داني طاولة زجاجية ورماها في وسط المنزل فتناثر الزجاج وصمت عمار وبدأت ليلى بالبكاء بينما تحمل حلي بين يديها، فأمرها ناجي بأن تدخل غرفة النوم وتقفل الباب بينما مضى لِيَكنس الزجاج المكسور، في حين عاد أبو قيس نحو غرفة الضيوف حيث لا زالت بقايا الفاكهة والموالح على الطاولة فأشعل سيجارة ثم جلس لمتابعة الأخبار.

عندما أنهى ناجي كنس الزجاج، دخل غرفة النوم حيث كانت ليلى وداني وحلي، ضحك لحلي وأخذ يداعبها كعادته، ثم نظر نحو أخاه داني

- لن تبطل عادة التكسير، يومًا ما ستبحث على شيء لتكسره دون أن تجد شيئًا فقد كسرت المنزل كله

ضحكو جميعًا، وضحكت معهم ليلى من قلبها، ليلى التي بدأت تشعر بأن هناك رجالًا يدافعون عنها ويمنعون عنها الظلم.

المزّة - لا يأس مع الجدة

كان على الجدة أن تنقذ ابنها من البؤس الذي يعيشه، فهو لا يملك أي صداقات ولا يسعى لاكتساب أي خبرات ويرفض دومًا مرافقتها إلى اللاذقية للاهتمام بأرضهم هناك، لذلك قررت في أحد الصباحات أن ترتدي ملابسها وتتجه نحو حي المالكي، حيث يعيش أحد كبار الضباط المسؤولين عن الموافقات للكلية الحربية. سارت بجسدها الحاني باتجاه موقف الباص واضعة تحت إبطها الظرف الأبيض اللون الذي يحتوي على أوراق عدنان وشهادة البكالوريا الخاصة به.

استقلت باصًا نحو ساحة الأمويين حيث نزلت من الباص وتابعت طريقها سيرًا نحو المالكي سالكة الطريق صعودًا نحو التلّة الأجمل في دمشق .

هبت عليها نسمة لطيفة جعلتها تتفاءل بأن ما تقدم عليه سيكون الحل لولدها .

تابعت طريقها سيرًا حتى وصلت إلى مدخل الحارة التي يسكنها ذلك الضابط المعروف، إلا أن الحي كان محاطًا بعناصر الأمن، فاقتربت من أحد الكابينات الخشبية التي يجلس خلفها أحد العساكر ويحمل بندقيته بين يديه .

ابتسمت له ابتسامتها الطيبة

- كيف الحال يا خالتي؟

أجابها:

- ما الذي جاء بك إلى هذا الحي يا خالة

- والله يا ابني، أرغب برؤية سيادة الضابط

ضحك العسكري مستهزءً من كلام الجدة

- لقد أضحكتيني يا خالة، ليس بتلك السهولة يمكنك مقابلة سيادة الضابط

تغيرت معالم وجه الجدة وتلاشت ابتسامتها

- أنا في عمر والدتك، احترم الشيب في شعري

اعتذر العسكري الذي شعر بخطأه، فغادر الكابينة الخشبية التي جلس داخلها متجهًا نحو الجدة

- أرجوك اقبلي اعتذاري يا خالتي، هذا ضابط كبير، لن تتمكني من مقابلته بسهولة

أصرت الجدة

- أعرف ذلك، لذلك لن أعود إلى منزلي قبل أن أراه

- والله يا خالة، أتمنى من قلبي أن أستطيع مساعدتك ولكني عسكري صغير، وهناك تعلميات مشددة بعدم السماح لأحد بدخول الحي عدا من

شردت الجدة قليلا ثم اتخذت قرارها، نظرت بحزم فاتسعت عيناها

- لا تشغل بالك، سأجلس هنا على الرصيف بانتظار مروره

- ممنوع يا خالتي، أترغبين بدخول السجن؟

- خذوني إلى السجن، لا يهمني

هز العسكري رأسه ممتعضًا، ثم ترك الجدة تجلس على الرصيف، انقضت ساعات كثيرة دون أن تيأس الجدة من الجلوس والانتظار، عبرت بها سيارات كثيرة فراحت تتأمل المارة، واحدًا بعد آخر، جميع من يسكن تلك المنطقة هم من الأغنياء، سيارات فارهة وبيوت فارهة، استمرت بتأمل المارة حتى حلّ العصر، كان برد المساء في تشرين ذاك يجمد الأطراف إلا أنها كانت تلتحف جاكيتًا رمادية اللون، ورغم ذلك تغلغل البرد إلى أطرافها فراحت تلتمس الدفء من ضوء الشمس التي كانت في مغيب.

بقيت جالسة على الرصيف منذ الثامنة صباحًا حتى السابعة مساءً دون أن تيأس ودون أن ييأس العسكري المناوب من محاولاته لإقناعها بالرحيل، حتى أنه حزن عليها فعرض عليها سندويشة البطاطا المسلوقة التي كانت بحوزته لكنها رفضت وبقيت جالسة بصمت .

عند السابعة مساءً، بدأ اليأس يتسلل إلى قلبها لكثرة الانتظار، فخشيت على أمل وعدنان من أن يقلقو عليها، لذلك وقفت وتشكرت العسكري

الذي كان في الكابينة المجاورة

- الله يحفظ لأمك، وشكرًا لك

وعادت أدراجها سيرًا على الأقدام، وبينما تمشي رأت موكبًا من السيارات المارسيدس السوداء يعبر الطريق باتجاهها، فلوّحت بيديها ولوّحت أكثر قبل أن ترمي نفسها أمام السيارة الأولى التي تقود الموكب فتوقفت السيارة فجأة، وأنزل السائق الشباك وصرخ فيها

- أفقدت عقلك، كدنا ندهسك

- أرجوك، دعني أحدث سيادة الضابط، أرجوك لا تتركني أعود خائبة

- سيري من هنا، كدنا نبتلي بك

لم تستلم الجدة التي لم تعرف الاستسلام في حياتها

- أرجوك، دعني أحدث الضابط، لن يتمكن غيره من مساعدتي

أطلق السائق زفيرًا عميقًا ونظر للخلف

- سيدي، تريد هذه الخالة التحدث إليك

فانخفض شباك السيارة الخلفي وظهر وجه الضابط الأسمر

- مالذي تريدينه يا خالة

بدأت الجدة بالدعاء متحدثة بعجلة خشية أن يغير الضابط رأيه

- أطال الله بعمرك يا ولدي، شكرا لك، أريد منك مساعدتي في إرسال ولدي إلى الكلية الحربية، أحلم بأن أراه ضابطًا، لقد تقدم إلى الكلية ورفضوه، لكنني واثقة بمقدرتك على مساعدته

تساءل الضابط بعد أن تنهد

- لماذا رفضوه؟

- والله يا ولدي، نحنا عائلة متواضعة ولا نملك من يسند ظهرنا، وفهمك كفاية

رفعت الجدة الظرف الأبيض الذي يحتوي على أوراق عدنان وأعطتها للضابط

- هذه أوراقه، أرجوك ساعدني

- والله يا خالة، الموضوع لس بتك السهولة

- أرجوك، هو وحيدي ولقد اكتأب وانزوى في المنزل منذ توفى والده، لا أريده أن يكمل حياته حزينًا

استغرب الضابط

- وحيدك، وتريدينه أن ينتسب للجيش!

ابتسمت الجدة

- أريده أن يصبح رجلًا

ابتسم الضابط وهز رأسه

- سأحاول مساعدتك

أعادت الجدة ما سمعته بطريقتها

- ستساعدني حقًا

أجاب

- والله لأعمل جهدي لمساعدتك

ابتسمت الجدة

- اذهب رعاك الله وحماك لوالدتك وأحبابك

أعطته أوراق ابنها وانتظرت منه أن يغلق نافذة سيارته ويمضي، قبل أن تعود أدراجها

نحو الطريق الهابط من المالكي نحو ساحة الأمويين، مسدلة اكتافها وشابكة يديها خلف ظهرها، بينما راح الليل ينسدل كستارة سوداء غطت الشام وما حولها.

2575565132

صباحات الأنس في فيينا - 2021

في موعدنا الثاني زرنا مقهى الهافلكا، وهو واحد من أعرق وأقدم المقاهي في فيينا، يعود امتلاكه لأسرة الهافيلكا بينما يعود نجاحه لتتالي ثلاثة أجيال من العائلة نفسها على إدارته، فرغم محافظته على تصميمه القديم ونكهة مأكولاته، إلا أنه يجذب الشبان والمراهقين بالدرجة نفسها التي يجذب فيها كبار السن والمثقفين، وقعت في غرام ذلك المقهى، إنارته الخافتة، كراسيه الخشبية التقليدية المحافظة على شكلها وهيئتها، عشقت شعوري بعظمة من مرّ به عبر التاريخ فاستمتع بقهوته اللذيذة.

في هذه المرة ارتديت لنزهتنا، فستان ساتان عسلي اللون فاتح، وعلى خصره زنار بني غامق، كما ارتديت معه كندرة بنية عالية الكعب، ولم أنسى أن آخذ سترتي الجوخ ذات اللون البيج الفاتح. وعندما وصل سام، اتبسم لي واعترض على وصولي الباكر في كل مرّة، ولكنني أخبرته بأني أخشى التأخر على المواعيد ولا يعنيني كم أنتظر الناس ما دمت في مقهى احتسي التاريخ وأذوب برائحة المستقبل المحمص بالبن .

كان يرتدي يومها بدلة رسمية كحلية اللون ويبدو كمن خرج من فيلم سينمائي ليدخل حياتي، تحدثنا يومها عن الدِّين، الدِّين الذي يفرق الجميع على الأرض مهما ادعينا الرقي والتمدن، حكى لي عن خاله الأستاذ المحاضر في الهندسة المدنية في إحدى جامعات فيينا، عن قصة الحب

التي جمعته بإحدى فيتات كلية الهندسة المدينة دمشق في تسعينات القرن الماضي، والتي ولسوء حظه لم تتكلل بالنجاح لأن الفتاة كانت من طائفة أخرى فرفض أهلها زواجهما، وهكذا انتهت قصتهما بزواجها من أحد أقاربها بينما غادر سوريا منذ ذلك الحين رافضًا العودة ورافضًا الزواج بفتاة أخرى.

وبينما استرسل سام في قص تلك الحكاية الرومنسية، راحت أفكاري تقفز في عقلي مشكّكة بقدرة رجل - أي رجل- على الوفاء لامرأة واحدة، فسألته

- أيعقل أن خالك امتنع عن الزواج لأجل الحب؟

أجاب:

- أقسم بالنيابة عنه أنه لم يغرم مرة أخرى

- أيعقل أنه لم يخوض أية علاقة منذ تركته حبيبته؟!

- سأكون صريحًا معك، فأنا لا أملك سجل حياته العاطفية بالكامل، ولكن ما أعلمه جيدًا أنه لم يغرم منذ غادر سوريا، ولكنه خاض بالتأكيد تجربة أو اثنتين دون أن يتكللا بالنجاح

أضاف:

- بالإضافة إلى عمله في الكلية، هو كاتب

- واو، أحضر لي شيئًا من كتبه أرجوك فأنا أعشق القراءة

- تكرم عيونك

- سأعرف من كتابه إن كان قد أغرم أم لا

ضحك سام فابتسمت له قبل أن نستأنف كلامنا عن الطائفية، أخبرته يومها أن الطائفية تجري في دماءنا مهما تجاهلناها وبأننا كعرب نثبت لأنفسنا وفي كل مرة أن الطائفية تغذي جذورنا مهما بدونا متحضرين من الخارج، فلولاها ما حدث الذي حدث في سوريا.

حكيت له عن أول صديقة تعرفت عليها في النمسا، والتي كانت من جنسية عربية أخرى، حدثته عن روعة تلك الفتاة وأخلاقها وعن مساعدتها لي في كل ما يخص أمور السكن، ولكنها وبعد شهرين على صداقتنا صدمتني بسؤالها عن طائفتي فابتلعت الريق في فمي، فأنا أعرف جيدًا أنها من مذهب مختلف عن مذهبي ولكنني ما كنت لأسألها لأنني لم أعتد هذا السؤال ولم أرغب يومًا بأن أقيّم محبتي لشخص ما بناء على طائفته، ورغم أنني في بلد أوربي ورغم شعوري بأنّ كل ما كنت أخشاه في سوريا قد أمسى من الماضي، إلا أن ذلك السؤال أعاد لي الخوف ذاته، كجرح قديم ظننت التئامه لكنه عاد لينزف ألمًا وينبض بقوة ليشعرك بوجوده.

- وبماذا أجبت صديقتك تلك

- ببساطة، طمأنتها بأني من طائفتها، فابتسمت لي وأخبرتني بأن والدتها أوصتها أن تتأكد من طائفتي لأني سورية وقد أكون من طائفة مغايرة، وبأنها

يجب أن تقطع

علاقتها بي إن كنت من طائفة مغايرة.

تابعت:

- منذ ذلك اليوم، علمت أن الطائفية في سوريا لا تقارن بتلك التي تتغلل في شرايين البلدان العربية الأخرى، لأنه وطيلة حياتي لم أصادق إلا أبناء الطوائف الأخرى، قد أكون قد سمعت أشياء تعكس تعصبًا ولكنني لم أتخيل يومًا بأنّ أمًّا قد تنصح ابنتها التي تعيش في بلد أوربي بأن تتاكد من طوائف صديقاتها العرب وأن تحذر طائفة محددة منهن، متجاهلة أن ابنتها التي تعيش في أوربا قد تواجه من يتعصب ضد حجابها، ضد لون بشرتها، ضد عربيتها وهؤلاء فعلًا من هي بحاجة لخشيتهم أو الحرص في التعامل معهم"

استمع سام لي كمن يستمع لبرنامج صباحي ممتع، لم يمل حديثي ولم يقاطعني، فكنت أفاجئه مع كل رواية، أولًا خجلي من قلة أنوثتي وثانيًا خوفي من إعلان طائفتي الحقيقية.

لم يكن سام ابنًا من الأقليات، ولم يدرك ما يعنيه أن تكون ابن أقلية في بلد لا يقبل أن يرى في الآخر إلا الاختلاف والعداوة.

دمشق - 1971 - ابني البكر

أسميته قيس، ابني الأول وصديقي، خُلق قيس صغير الحجم وبهي الطلة، هادئ جدا وخجول، لم يكن كثير البكاء كباقي الأطفال بل كان كثير النوم وقليل الحركة وهادئ، ومع مرور الأيام أصبح تعلقي بابني ذريعة أخرى يستخدمها عمار لإذلالي مهددًا إياي بأخذه مني إن خالفت رأيه، وإن غادرت المنزل، أو إن ذهبت لزيارة والدتي.

لذلك عشت أيامي كطفلة تحتضن طفلها بين يديها طوال الوقت وتخشى فقدانه، أستمد منه القوة وأستمد منه الحنان الذي كنت بأمس الحاجة إليه، وأما حلمي الوحيد بإكمال الدراسة فقد بات مستحيلًا.

لم يكن عمار رجلًا طبيعيًا وهو أمر لم أكتشفه إلا بعد عشرات السنين من زواجنا، كان كثير الشك، قليل الثقة بالناس وبي، ولذلك لم يعاملني كامرأة بل كمجرمة، كسجيبنة كمتهمة في معظم الوقت.

لقد كانت سنيننا الأولى معا من أسوأ أيام حياتي، كان لا يزال فقيرًا ونعيش في منزل أخته التي تكره وجودنا فتحدثه دوما عن غبائي وسذاجتي، فيستشيط غضبًا ويهاجمني بيديه قبل لسانه وبالصراخ قبل الكلام، لا أستطيع أن أحصي عدد المرات التي انتزع بها الشعر من فروة رأسي بينما أعض على شفتي وأمسك قيس بين يدي رافضة الصراخ.

وأما عن صمتي وقدرتي على تحمل الضرب دون صراخ فهو شيء لن

تفهمه إلا من تركت منزل أهلها وراحت خطيفة، معلنة الخضوع عنوانًا لحياتها، لم أكن لأصرخ كي لا تعرف والدتي بالظلم الذي أعيش معه والحزن الذي يعيش بي، ولكنها لم تحتج لسماع صوت صراخي كي تعرف أنه يضربني أو أنه يسقيني كأس الذل والمرار عند كل مساء، أتحتاج الأم لدليل كي تعرف إن كانت ابنتها سعيدة أم حزينة؟ يكفي أن تلمح عيني أو تسمع نبرة صوتي كي تعرف الحكاية كلها، الحكاية التي قرأتها منذ هربت من المنزل بدون موافقتها.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقْش

دمشق - 1990 - للسعادة وجوه كثيرة...

تم قبول عدنان في الكلية الحربية، فزغردت الجدة زغرودة ملأت المزّة كلها، وراحت تقبل خدود ابنها الممتلئة وتضحك من قلبها، هي فرحة لم تعشها الجدة في حياتها كاملة، وقد لا تعيشها مرة أخرى.

تم إخبار عدنان بأن عليه الالتحاق بالكلية الحربية في نهاية الأسبوع ولذلك انطلقت الجدة نحو سوق الحريقة، تشتري لولدها كلاسين الصوف والملابس الداخلية القطنية وغيرها من الأشياء التي قد يحتاجها، ولم يكن من ليلى إلا أن ترافق والدتها وتساعدها بالمشتريات، فاشترت لأخيها حذاء جلدي جديد كي يرتديه في سفرته نحو حمص حيث تقع الكلية الحربية.

نظر عدنان نحو الحذاء الجديد عندما عادت والدته وأخته الكبيرة من السوق وقال باستهزاء

- والله يا ليلى أنك فهمت الموضوع غلط فأنا لست بذاهب إلى الجامعة كي أرتدي هكذا حذاء، أنا ذاهب إلى الجيش وتعلمين جيدًا ما تعنيه حياة الجيش... الجيش يا ليلى ذل وإهانة وجزمة عسكرية

احتضنت ليلى أخاها الصغير وقالت له

- أنت زينة الشباب وتذكر كلامي، بالمستقبل ستغدو ضابطًا عظيم الشأن وسنلجأ لك جمعًا لحل مشكلاتنا

هز عدنان كتفيه ورأسه مستهزءً، ثم تقدم نحو حلي التي كانت تمسك قصة تقرأها، وحملها نحوه

- هذا الوجه الوحيد الذي سأشتاق إليه في الجيش، غدًا أعود لأجدك قد أصبحت صبية

حزمت الجدة حقيبة عدنان القماشية الصغيرة وجهزت قطرميز زيتون وقطرميز مكدوس وكيس شنكليشة وزجاجة زيت زيتون بكر، وضبت الأغراض كلها أمام عتبة الباب كي لا تنسى شيئًا. ثم ساعدت عدنان في حمل الأشياء نحو موقف الباص برفقة أمل وليلى وأولادها.

على الطريق الطويل بين الشام وحمص، كان الباص يسير ببطء وتثاقل وبداخله شاب لطيف الهيئة يبكي بصمت، لم يعتد عدنان على السفر نحو حمص بل نحو اللاذقية، ولكنه اليوم يسافر إلى حمص وستنتهي رحلته قبل أن يبدأ جزءه المفضل من الطريق وهو الطريق المفروش بالأخضر من حمص نحو اللاذقية، الطريق الأقرب إلى قلبه وعقله، الطريق الذي تفترشه البساتين والحقول وتغطيه السهوب الخضراء.

لقد اعتاد على أن يشرد في الشباك مستمعًا بمشاهدة كل تفصيل على الطريق من أشجار السرو المائلة من شدة الهواء عند حمص إلى السهول الخضراء الواسعة عند الرستن مرورًا بحقول طرطوس المزينة بأشجار الليمون وتلال بانياس وقلعتها حيث يطل البحر على يساره وتطل معه

النوارس البحرية، إنتهاء بجبلة المدينة التي ينتمي إليها.

رحلته انتهت اليوم عند حمص، قبل أن تبدأ حتى، راح يبكي طوال الطريق مشتاق لوالدته ولأمل، ندم لأنه لم يحتضنهما جيدًا ولم يخبرهما بفيض الحب في قلبه اتجاههما وهي مشاعر مكبوتة لم يعرف يومًا كيف يبوح بها.

بين دمشق وأوروبا صراع

بين القلب والعقل

كنا قد اعتدنا على الطقس المثلج في فيينا وعلى نمط الحياة الرتيبة، قبل أن يضفي طعم فنجان القهوة مع سام نكهة خاصة إلى حياتنا التي كادت تفقد نكهتها مؤخرًا.

وفي أحد مشاويرنا معا حكى لي سام عن صدمته الأولى بنمط الحياة في أوربا، هو الذي اعتاد السهر حتى وقت متأخر في الحي الذي يقطنه أهله، مع أصدقائه، هو الذي اعتاد على التسكع حتى منتصف الليل في جرمانا وباب توما والقصاع من أحياء دمشق بينما لا تزال الشوارع مضيئة ومحلات الملابس ممتلئة بالمشترين والمطاعم تعج بالناس، من يتخيل أن بلدًا كسوريا كان آمنًا لدرجة أن ينزل فيه الناس للمشي في منتصف الليل، حيث المدينة لا تزال مستيقظة والشبان يقطنون الشوارع يتناولون الفلافل والشاورما ويضحكـون ويحلمـــون ويتشاركون الحب سرًا وعلانية ....

كانت الحياة تضج في دمشق بكل ما تعنيها كلمة حياة من معنى، حتى أن باب توما امتلأت بالبارات التي كان يرتادها مع أصدقاءه من كلية الطب دون أن يدري والديه بأن ابنهم الطبيب المثقف يرتاد البارات مع أصدقاء الدراسة ويتسكع ليلا في باب شرقي وشارع الزيتونة، غير مكترث بتأخر الوقت ما دامت الشوارع مستيقظة والناس على الشرفات، والشام ترحب

بكل من يأتيها متعطشا للحياة.

وعندما وصل أوروبا انتظر أن يجد ما هو أكثر حياة من دمشق، أو نمطًا مشابهًا من الحياة على الأقل لكنه وعوضا عن ذلك فوجئ بأن المطاعم والمحال التجارية تغلق عند السادسة معلنةً أن النهار قد انتهى، لقد صدمته أوربا بحياتها الرتيبة والباردة والبعيدة كل البعد عما حلم به ....

وأما المقارانات التي أكلت تفكيره لسنين، هي تلك التي وقعت بين ما يذكره من سوريا وبين ما يراه على الشاشات عن سوريا، وهي مقارنات عجز عن تجاهله إلى أن اقتنع تمامًا أن سوريا لن تعود إلى ماكانت عليه وأن عليه أن يرضى بقسمته من الأمان والمستقبل المشرق في أوربا مقارنة بالموت والفقر والظلم الذي بات نصيب كل من بقي في سوريا...

وهكذا ومع مرور السنين وتوالي الكوارث على بلدنا بدأت صورة سوريا القديمة بالتلاشي من ذاكرتنا وحلت محلها ذاكرة الحرب والقذائف والموت وهي ذاكرة نخشى تورثيها لأولادنا الذين لم يرو من سوريا إلا الحرب ولم يسمعو عنها إلا الموت، ذاكرة يصعب محوها لجيل يعتمد في صنع قناعاته على السوشال ميديا والإنترنت، جيل يثق بالبلوجرز أكثر من ثقته بوالديه وهذا الجيل لن يقتنع يومًا أن سوريا كانت آمنة وأننا عشنا سنينًا فيها من الدفء والأمان...

رأس السنة 1991

بينما راح الحب يعشش على شباك أمل، وراحت الأحلام الوردية تتسلق جدران قلب قيس، وراح التفاؤل يحلّق في سماءات الجدة بسبب التحاق عدنان بالكلية الحربية، وبينما أبحرت ليلى ببحور الأمومة المعطرة بالبنات مع آخر عنقودها حلي، وانشغل عمار بنساءه وأعماله، وانشغل داني بلعبة الأتاري الجديدة التي اشتراها له والده من لبنان، كان هناك من يشعر بالضياع والوحدة. . . .

في ليلة رأس السنة، من عام 1991، اجتمعت عائلة ليلى حول سفرة رأس السنة الشهيرة والتي تكرر نفسها سنويا، تبولة، بطاطا مقلية، فراريج مشوية، لحم مشوي، كولا، فواكه، موالح وحلويات، وقالب جاتو دائري الشكل مكتوب عليه عام سعيد مع اختلاف سنوي طفيف هو رقم العام الذي يزين القالب سنويًا.

تم دعوة الجدة كالعـادة معها أمل إلا أن عدنان لم يتمكن من الانضمام لهذه السهرة لأن الضابط المسؤول عنه لم يقبل بإعطائه الإذن لزيارة عائلته.

وهكذا انشغل الشبان بالشوي على البرندا بينما انشغلت الجدة وليلى بإعداد السلطة ونزل داني لشراء الموالح والكولا، بينما لحقت أمل بالشباب إلى البرندا ممسكة بيدها كيس شفاف بداخله خبز أبيض، الذي عادة ما يضعونه تحت اللحم المشوي في الصينية الدائرية الكبيرة كي يتشرب نكهة

اللحم ويصبح رطباً شهيًا.

بدت أمل يومها جميلة كعاشقة، شعرها البني المموج المسدول على كتفها، خدودها الوردية وعينيها العسليتين اللاتي زادهما الحب جمالا وثقة، وعندما وصلت إلى البرندا قال لها ناجي

- والله يا خالتي، أنتي تزدادين جمالًا يومًا بعد يوم، وليس هناك ما يجمل الفتاة كالحب

تغيرت معالم أمل وصرخت بناجي

- اصمت، ستسمعك جدتك

فضحك وعاد لتقليب سيخ قطع الدجاج، ثم التفت بنظره نحو خالته التي انشغلت بفرد الخبز على الصينية

- قيس يعلم، ليلى تعلم، وأنا المسكين الوحيد الذي لا يعلم

زَمَّت أمل حاجبيها وشفتيها وقالت متذمرة

- يا الله كم أنكم عائلة مزعجة، يستحيل أن يكتم السر في منزل كهذا

تركتهم وعادت نحو المطبخ بعد أن تغير لونها وتبدلت معالمها.

وما إن دخلت المطبخ حتى سمعت صوت حلي التي نامت مبكرًا تبكي وقد استيقظت على مايبدو من نومها فسارعت أمل للدخول نحو غرفة نوم ليلى لطمأنة حلي بأنهم جميعًا في المنزل، وما إن دخلت حيث تنام حلي،

حتى شعرت بشعور غريب تعرفه جيدًا وتكرهه في الوقت نفسه، وهو شعورها بالاختناق.

لطالما أشعلت غرف النوم العديد من المشاعر المضطربة في قلب أمل، فلكل غرفة نوم حكايتها الخاصة، فمنها ما يخفي خيبة ما ومنها ما يخفي ظلمًا ما، غرف النوم التي تخلو من الحب كالأجساد التي هجرتها أرواحها، باردة مظلمة وشاحبة، ابتلت وسائدها بالدموع والهواجس والأمنيات، وكي لا تخنقها أفكارها أسرعت لطمأنة حلي وضمها والسير معها نحو غرفة الجلوس.

في غرفة الجلوس تغيرت مشاعر أمل وتفاعلت من نعومة وجمال الطفلة التي تضمها بين أحضانها فسمحت لأحلامها وللمرة الأولى أن تحلق بعيدًا متحررة من كل القيود فتخيلت نفسها زوجة لمحمد، وبأنها تحمل ابنهما وتهدهده فيسكت ثم تخيلت غرفة نومهما التي تتمناها بيضاء اللون لا سوداء كغرفة ليلى، غرفة تضج بالحب لا بالخيبة وتنضح بالهناء لا بالانكسار، علّقت يومها أمل أحلامها وأمنياتها مع أمنيات الشعب السوري كله في رأس تلك السنة وتمنت بقلبها أن تتحقق تلك الأمنيات . . .

وفي منتصف الحلم الذي كانت تنسجه بخيالاتها دخل ناجي غرفة الجلوس، وجلس بقربها دون حتى أن تتنبه لدخوله

- خالتو، أنا متعب

سقطت أمل فجأة من أبراج الأحلام التي كانت تتسلقها نحو الواقع سقوط الطيور المصابة بطلق ناري، فصدمتها جملة ناجي الذي اعتاد أن يكون مصدر بهجة الجميع، سألته

- قل لي، أتعاني من شيء؟

وفي غرفة الجلوس المتسعة الكبيرة، والتي يتوسطها طقم الكنبايات الأخضر والطاولة الزجاجية اليتيمة التي لم تطلها بعد يد داني في المعارك العائلية، وبينما يذيع التلفاز سهرة رأس السنة على التلفزيون العربي السوري، كانت أمل تجلس بقرب ناجي وتستمع لمعاناته . . .

اعترف ناجي لخالته بعجزه عن التركيز في الدراسة للبكالوريا، وبشعوره بالاختناق والوحدة في المنزل الذي لا تنتهي المعارك العائلية فيه، أخبرها عن آخر معركة مع والده عندما زارتهم مايا حبيبة قيس، وعن عجزه لأسبوع كامل بعد ذلك اليوم عن التركيز في الدرس.

كان ناجي الأكثر ذكاء في العائلة الكبيرة والصغيرة وكانت قد عقدت عليه الآمال الكبيرة بأن يصبح طبيبًا لذكاءه الحاد وبديهته العالية، ولكن وعلى ما يبدو فهو يعجز عن التركيز في بيت أهله، ولذلك وفي ذلك المساء اقترحت أمل على ليلى بأن ينتقل ناجي للعيش في منزل الجدة حيت بإمكانه أن ينام على سرير عدنان، بينما ستعمل جهدها على الاهتمام بدرسه ومراجعة المواد معه، لم تعترض ليلى على اقتراح أمل ولكنها طلبت من

أمل أن تسأل عمار الإذن بذلك.

عند الساعة الحادية مساء، قبل ساعة واحدة من دخول العام الجديد وبينما التفو جميعًا حول سفرة رأس السنة، سمعت خطوات أبو قيس الذي يعتلي درج المنزل ثم سمعت طرطقة المفاتيح في الباب، عدلو جميعًا من جلستهم بينما دخل عمار الصالون مبتسمًا، فألقى التحية على جميع الجالسين، ثم انضم إليهم على رأس السفرة، السفرة الوحيدة التي يترأسها سعيدا وكأن رأس السنة هو العيد الوحيد الذي يعترف به بين الأعياد كلها، وهم جميعًا يعلمون ضمنيًا كم يبدو أبوقيس سعيدًا في رؤوس السنين كلها.

ولذلك وبينما هم يتناولون العشاء، انتهزت أمل الفرصة وسألت الإذن من زوج أختها أبو قيس بأن ينتقل ناجي إلى بيت جدته للاستعداد لامتحان البكالوريا بينما ستشرف بنفسها على الاهتمام بامتحاناته ومراجعتها، ولأن الابتهاج كان باديًا على أبو قيس ولأنها عرفت كيف تختار اللحظة المناسبة لطرح السؤال ولأنه يعرف كم هي مجتهدة أمل وكم تهتم بتدريس داني وناجي منذ سنين، قال "نعم" ومع النعم التي نطقها أعلن التلفزيون العربي السوري عن بدء العام الجديد مشاركا على شاشته الاحتفالات من البلدان الأخرى، ليتوقف لحظتها أبو قيس عن تناول الطعام ويقف قائلًا "كل عام وأنتم بألف خير" ثم يبدأ بتقبيل أولاده وزوجته وحماته وأمل فردًا فردًا مباركًا لهم بقدوم العام الجديد وهي طقوس لا يعرفها إلا من دعي لحضور رأس السنة في بيت أبوقيس وأم قيس ....

فيينا - 2021 - الحب.. .ماء الحياة

قرأت هذه الجملة لأول مرة عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، في أحد الكتب التي كانت لأخي قيس، كان قد كتب هذه الجملة على رأس الصفحة بخط يديه، وكانت قد أخذتني هذ الجملة بمعناها الغريب ...

الحب ... ماء الحياة، أي أننا نموت إن لم نحب ... فكم هو ثمين الحب ؟!

والأعظم منه هو من يمتلك القدرة على منحه دون مقابل، ولا أعتقد أني أنتمي لأولئلك الذين يمنحون الحب بدون مقابل، فمنذ أن شعرت بأن زوجي توقف عن الاهتمام بي، توقفت بدوري عن الاهتمام به وقررت أن أخون بروده بدلًا من أن أعطيه الحب الذي ربما قد أحتاج إليه كي يعود قلبه للنبض من جديد..

أفكار كثيرة تدور في رأسي يوميًا، وأبحث فيها عن مبررات تبرر تعلقي ب سام، وهي من دون شك أفكار مرتبطة بضميري الذي ما يزال حيًّا على ما يبدو، كيف أتعلق برجل له حياته وزوجته وأولاده، وكيف أسمح لخيالي ومشاعري أن تحلق بقربه، أنا أعلم جيدًا ما أريده من سام، أريد اهتمامه، أريد إصغائه، وربما أستمتع لرؤية انعكاس صورتي في عينيه.

ولكني لا أدري ما يريده مني! أيريد شيئا أكثر من صداقتنا أيتوقع أني قد أتمادى بحبنا، أم أنه بات يعرفني جيدًا، ثمّ هل أحتل تفكيره لدرجة بات فيها

يكره إمضاء الوقت مع عائلته . . .أسئلة لا جواب لها . . .

علاقتي بسام، تضخ الحياة في شراييني، حتى أني أعود للمنزل سعيدة، أهتم بأولادي أمضي معهم وقتًا أجمل مما كنت أمضيه فيما مضى، أستمع لهم وألعب معهم، وأشاركهم سعادتي بالحب، ولكنني لا أعتقد أن للحب التأثير ذاته على الرجال، كيف إن كانوا متزوجين؟!

أيكره سام زوجته بسببي! أيندم لأنه تزوج بها! أيتذمر كثيرا من إمضاء الوقت مع أولاده، أيشعرون يا ترى بأنه يتغير! وهل تراه تغير للأفضل أم للأسوأ؟!

كل ما أعرفه حتى الآن هو أن هناك الكثيـر من الكلام الذي ارغب بأن أحكيه لسام . . . وبأن رغبتي بالكلام لم تنته بعد، وبأننا سنلتقي في مقهى ديميل غدًا للمزيد من القهوة والكلام. . .

في ديميل، كنت أجلس مكتئبة على غير عادتي، لعلها الدورة الشهرية، هروموناتي الأربعينية المتضطربة، أو لعله ضميري الذي يستيقظ بين حين وآخر ليؤنبني على مشاعري الحمقاء اتجاه رجل متزوج، لعلّه الخجل من حلي التي ربتها والدتي بطريقة مختلفة تمامًا، لا يهم، هناك الكثير من الأسباب التي جعلت مني مكتئبة في ذلك الصباح. . .

دخل سام المطعم أنيقا كعادته ورائحة عطره تسبق حضوره، انتبه لاكتئابي، وسألني أن أفضفض له، لكني لم أعرف ما أقول فالتزمت الصمت

...

طلبنا القهوة وبينما ما يزال النادل يسجل طلبنا، وصلتني رسالة من والدتي على الواتساب تقول بها "توفى أحد قرائبنا في جبلة بالقذائف التي نزلت على المطار ليلة البارحة"

جملة واحدة عن استشهاد شاب رأيته مرة أو مرتين في حياتي، كانت كفيلة بتفجير القروح في جسدي دافعة إياي للنحيب ألمًا... فانفجرت باكية ... وكأن حزن الكون اجتمع في شراييني وقرر الانفجار... قتلني الحزن على ذلك الشاب الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره بعد والذي شاءت الأقدار أن يكون ابن القرية التي بنى الروس فيها قاعدة عسكرية لهم، فما كان من أهلها إلا أن يتعايشو مع القذائف التي لم تسقط يومًا إلا في حقول الفقراء وكأن الفقر يجذب الموت بالدرجة نفسها التي يجذب الظلم والاضطهاد...

رحت أبكي وراح سام يخفف عني ... وبقي فنجان القهوة وحده دون أن تلمسه شفتي، شفتي اللتين لا تشتهيان القهوة إلا ترفًا واحتفالًا بالحياة، شفتاي اللاتي عجزتا يومها عن شيء إلا النحيب...

مع كل خبر يصلني من سوريا، أمسك قلبي بين يدي، وأتذكر بأننا كسوريون لا نختلف شيئًا عن فئران المخابر، فالبلدان الأقوى يختبرون في أجسادنا أسلحتهم، يخوضون على أراضينا حروبهم، يتقاسمون علانية

حقوقنا، ويتاجرون بإنسانيتنا، وبعدها يدرسون سلوكنا، ردور أفعالنا، تطورات أزماتنا النفسية وانكسارتنا الروحية، ولا يخجلون من إماتتنا جماعيًا إن أثبتنا فشل تجربتهم وأصبحنا عبئا عليهم . . .

نحن لا شيء يا سام، من نحن أصلا؟ وماذا بقي منا؟ وكيف يعيش من هم هناك، مثقلون بالاكتئاب والشعور بالنقص، مرضى حرب، وأسرى وطن يرفض في أحسن أحواله إطلاق سراحهم. . .

الكلية الحربية - 1991 – مصنع الرجال

في شمال غرب حمص، المحافظة الواقعة في قلب سوريا، تم بناء الكلية الحربية في ثلاثينيات القرن الماضي، لتدريب المنتسبين للجيش السوري وتخريجهم كضباط، وأن تتخرج كضابط يعني أن تتذوق الحرب قبل اندلاعها، أن تموت يوميًا من التعب الجسدي والتمارين المضنية قبل أن تستشهد دفاعًا عن الوطن، أن تأكل الشمس الحادة جبينك وتدمغه بالأحمر المزرق، وأن يقضم البرد أطرافك فتتجمد مشاعرك وتتصلب أحاسيسك.

لا يمكن أن تكون طيب وضابط، أو ضعيف وضابط، لا يمكن أن تكون خجول وضابط ولا هزيل وضابط، أن تكون ضابطًا يعني أن تضبط مشاعرك كلها وتخضعها للأوامر دون اعتراض، ومهمة الكلية الحربية وغيرها من الكليات العسكرية هي تحويل الشبان رهيفي المشاعر والرقيقين إلى رجال ترتجف الأرض تحت أقدامهم ... وهذا ما دفع الجدة لرمي ابنها في هذا المكان الغريب...

لن يكون هناك أقسى من حياة العسكـــرية على شاب وحيد، كيف إذا كان وحيدًا ومدللًا مثل عدنان.

في أيامه الأولى في الكلية الحربية لم يتمكن من تناول لقمة طعام واحدة، حتى أنه فقد وعيه تمامًا في اليوم الثالث وتم نقله إلى وحدة العناية الطبية في الكلية حيث تم وصله بسيروم مغذي بعد أن تبين افتقاده للكثير

من السوائل والمغذيات، ومنذ أن خرج من وحدة العناية اكتشف أنه سيموت قريبًا إن لم يغير أسلوبه في التعامل ويتأقلم مع الوحوش التي تشاركه المسكن والطعام.

عندما دخل عدنان المهجع الذي سيقضي فيه السنين الثلاث القادمة، وجد أمامه غرفة بيضاء مقسمة إلى قسمين متناظرين يفصل بينهما ممر طويل، على اليمين يتموضع عشر أسرة حديدية، كل تختتين فوق بعضهما البعض، وعلى يساره عشرة أسرة اخرى، استدل من الضابط المشرف على السرير الذي سيكون سريره وهو السرير الثالث على اليمين من جهة الأعلى، أي أن عليه أن يصعد ثلاث درجات كي يصل إليه. لم يعني عدنان شكل الغرفة ولا موقع السرير فقد كان هناك ما هو أقوى من ذلك بكثير وهو رائحة المكان التي جرحت أحـــاسيسه، مزيج من الروائح الكريهة، رائحة جوارب قــذره وعـــرق معتق ممزوج بالأسرة والوسائد والفرشات.

لم يعتد عدنان الذي أمضى حياته بصحبة أخواته البنات على ذلك النوع من القذارة والروائح التي لا يمكن برأيه أن تنتمي للإنسانية، لكنه سيعتاد هذه الرائحة مع الأيام وستمتزج مع ذكرياته وتصبح جزءً من رائحته التي ستتنشقها والدته لدى عودته لزيارتها وستتغزل بها قبل أن تسأله الاستحمام...

وأما الطعام فقد كان يعد في مواعيد محددة من النهار، في الصباح، عند الظهيرة وفي المساء، ثلاث وجبات يوميًا لإشباع بطون الرجال الجائعة،

وللأسف لم يتمكن عدنان من تناول الطعام لا لقلته ولا لأنه استاء من تدني جودة الطعام بل لأنه وببساطة شديدة لم يتمكن من الوصول لقصعة الطعام، فقد كان يوضع الطعام في قصعات مدورة يتجمع حولها الشبان وما إن يصل الطعام الأرض حتى تنهال عليه أيادي الشبان المتأهبين للإنقضاض على القصعة بهجوم كاسح وبسرعة تتجاوز سرعة النسور والصقور في الاصطياد، وفي اللحظة التي تصل فيها يد عدنان للقصعة يكون كل شي قد تلاشى كحلم أو كغيمة ... طبق البطاطا المسلوقة والبيض، طبق البرغل بحمص وطبق الأرز مع مرقة الكرنب، جميعها مأكولات كانت تختفي قبل أن تصل يد عدنان إليها.

لقد بدا عدنان في قمة الرقي أمام همجية الشبان الذين قدمو من أقاسي الجبال ومن أماكن في غاية الفقر، أو لعلهم كانو مثله في بداياتهم قبل أن يتحوّلو لوحوش كاسرة تأكل اليابس قبل الأخضر، ولذلك وفي اليوم الرابع له في الكلية اتخذ أول قرار رجولي في حياته وقرر أن يصطاد.

عند موعد العشاء اتخذ موقعه بين الشبان، وما أن وضع الشاب المشرف على الطبخ، القصعة على الأرض حتى دفع يده بين الأيادي المتدافعة دون أن يكترث لنوع الصيد الذي سيحصل عليه، دون أن يفكر إن كان ممسكًا بملعقته أم يأكل بيديه العاريتين، وهكذا تمكن عدنان من الحصول على لقمته الأولى في العسكرية والتي كانت قطعة من البطاطا المسلوقة التي وصلتها يده مع أيادي أخرى فلم ينل منها إلا جزء صغيرًا استمتع بتناوله

وكأنه طبق من اللحم مشوي . . .

دمشق - 1972 – ليلى و روح جديدة

لم يمض على ولادتي لقيس إلا عام واحد عندما علمت أني حبلى من جديد، وبعد الكثير من النقاشات مع عمار خلال جلساتنا المسائية في غرفتنا الصغيرة من منزل أخته، سألته الموافقة بأن نستقل بمنزل خاص بنا، أخبرته بأن ولدين سيصبحون عبءً على منزل أخته الذي يعج أساسًا بالأولاد.

نظر يومها في وجهي وابتسم معلنًا أنه يتفهم رغبتي بالإنتقال، رددت له الابتسامة بمثلها، عاجزة كعادتي عن فهم ردود فعله،

- دعيني أدرس الموضوع، لعل الله ييسر لنا خيرًا

وفعلًا وبعد أشهر قليلة انتقلت لغرفتي الجديدة في حي جديد من أحياء دمشق، غرفة ومنتفعاتها، وكانت تلك الغرفة المكان الأول الذي أطلقت عليه لقب منزلي، فشعرت فيه للمرة الأولى بالاستقلال وبأنّ الحياة قد تغير ألونها لأجلي.

في ذلك المنزل بدأ عمار بالتفكير جديًا بالبدء بتجارته الخاصة، فاستأجر محلًا لبيع الجملة فبدأت أموره المادية بالتحسن مع بدء تجارته الصغيرة تلك، كانت دمشق خيّرة جدًا في تلك الأيام، تغدق على كل ساكنيها.

مع مرور الأيام تغير عمار ورأيت فيه وجهًا جديدًا هو وجه الرجل الميسور الحال، ولذلك بات يأخذنا وأولادي في زيارات متقطعة لقريتهم في اللاذقية

حيث أمضيت برفقة أخواته أجمل أيام حياتي، فقد أصبحن أعز صديقاتي.

بقربهن أعود طفلة مراهقة، أستمع لأحاديثهن عن المدرسة، عن شبان القرية، عن الحب وعن كل ما فاتني أن أعيشه في هذه الحياة. لطالما شعرت بقربهن بأن الحياة لا تسير بهدوء بل تُضخ بمضخات وعليك الجري بأقصى سرعتك لمجاراة أحداثها.

لم يكن فتيات عاديات هادئات كأخواتي بل كن ينبضن بالحياة، كثيرات الضحك وكثيرات الخلاف، والحياة التي تعبر بي بهدوء دون أحداث لم تكن مشابهة بشيء للحياة التي تعبر بهن، فلديهن دوما الكثير من الأحداث السينمائية التي حدثت مع صديقاتهن أو مدرساتهن أو جاراتهن، والكثير من الدراما الممتعة والتي لا تنتهي، والتي جعلت لصحبتهن أثرها الجميل في حياتي.

وأما عمار فقد كان رغم كل قسوته وغرابته، غاليًا جدا على قلبي، كان حبيبي الذي لم أتوقف عن حبه يومًا واحدًا وكلي تفاؤلا بأني قادرة على تغييره، وجعله أكثر حنية وأقل قسوة.

ولعله الحب ما جعل مني ما أنا عليه، وحده الحب وقف بجانبي وجعلني أنظر إلى عمار بنظرة مختلفة يوميًا، فأتقبل الحياة بقربه مهما كانت مضطربة وغريبة، فعند كل رحلة إلى اللاذقية كان يختلف مع والده وإخوته فيبدأ بالصراخ عليهم ويصرخون عليه دون أن يستمع أي منهم للآخر. عائلة

لا تعرف كيف تصغي بل تعرف فقط كيف تصرخ، كل من فيها يُستفذ بسهولة فيحارب الآخر دون يعترف بالخطأ مهما كان الخطأ واضحا، جميعهم كانوا كذلك، ولذلك لطالما أنهينا زياراتنا إليهم بمعركة عائلية تنتهي بنا في سيارة التكسي في منتصف الليل عائدين إلى دمشق.

دمشق – 1990 -

ناجي الذي يعشقه الجميع حتى جدته

انتقل ناجي للسكن في منزل جدته، للإستعداد لامتحان الشهادة الثانوية، لطالما تميز ناجي بجاذبيته مازجًا جمال ملامح ليلى بحدة وذكاء ملامح والده، لذلك عشقته الفتيات جميعًا بمن في ذلك جدته، التي كانت سعادتها لا توصف بقدومه إلى المنزل.

هي التي لطالما فضّلته على أحفادها الآخرين، فأعجبتها ثقته بنفسه، حسّه الكوميدي، ذكاءه في المدرسة، وإصراره على تحقيق كل شيء بالمثابرة.

ومع وجود ناجي في منزل الجدة، تغير الكثير في روتين حياتهم، رغم أنه ما يزال في عامه الثامن عشر إلا أنه وضع لمسته السحرية الغربية في ذلك المنزل، فراح يستيقظ باكرًا ليرافق جدته نحو فرن الخبز ويساعدها في تجاوز الطابور بخفة دمه وممازحته للناس هناك، كما أنه تولى مسؤولية زيارة الدكان لإحضار احتياجات المنزل عدا عن إصراره على إلقاء القمامة عند كل مساء في الحاوية التي تمركزت في آخر الحي.

لقد أضفى وجوده روحًا جديدة على ذلك المنزل الهادئ، ففي كل مساء تجلس الجدة للإستماع إلى الراديو في فسحة الدار بينما تجلس أمل لتدريس ناجي، وهكذا مرت الأيام وناجي يعيش عند جدته ويزور والدته في

المناسبات فقط.

وفي أحد الأمسيات، عاد عدنان في زيارة مفاجئة بعد شهران على مغادرته المنزل، فصدمه وجود ناجي، فقال بطريقة عفوية لوالدته:

- بهذه السرعة استبدلتني

فصرخت به والدته:

- والله يا ماما لا أبدلك بأولاد الدنيا كلها

لم يصدق عدنان كلمات والدته التي رأى في ملامحها سعادة لم يرها في حياته كلها وهي سعادتها بوجود شخص ك ناجي في المنزل، ناجي المنطلق، الواثق، المضحك والمحبوب، فشعر بالخيبة تتسلل إلى أعضاءه فانكسر وتقوقع وتمنى أن يعود إلى الكلية الحربية فلا يعود منها أبدًا.

فيينا - 2022- الحب والخوف

وجهان للذة واحد

استعددت للقاء سام، حيث كان من المتفق لنا أن نلتقي في مقهي يلاينك، وبينما أضع حمرة الخدود أمام المرآة في غرفة النوم، دخل زوجي علي و سألني:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

- سألتقي أصدقائي في المقهى

نظر في عيني مباشرة وزرع في داخلي الخوف وخرج. . .

الخوف . . . الشعور الوحيد الذي قد يكون له فعل السم القاتل، الخوف من أن تموت، الخوف من أن تفشل، الخوف من أن تفقد الحب والخوف من الوحدة. . . الخوف من أن يكتشف سرك .

وليس هناك أسوأ من أن يتسلل الخـــوف إلى خلاياك ومساماتك، فيغير نظرتك للحياة ولنفسك فتصبح ضحية له، وهو القاتل الحذر الذي يقتل صاحبه دون أن يترك وراءه أثرًا. . . يميتك مرارًا وتكرارًا قبل أن تموت حقًا . . .

عندما التقيت سام في ذلك المساء، حدثته عن الخوف، وأخبرته أني أخاف أن يعرف زوجي بقصتنا فأخسر حياتي معه، أخاف أن يعرف أولادي

بقصتنا فأفقد ثقتهم ويكرهونني مدى الحياة . . .

وبينما أتكلم، نظر سام إلي

- لا تخافي من شيء، الخوف يحول مخاوفك كلها لحقيقة، أولًا عليك أن تعلمي أننا لا نخطئ بشيء، نحن مجرد صديقان في بلد أوربي متحضر يقبل الصداقات بين الرجل والمرأة مهما كان شكلها أو لونها، ثانيًا وهو الأهم إياكي أن تخافي لأن الخوف أسوأ بكثير من الشيء نفسه الذي تخشيه.

هززت رأسي وتذكرت الخوف الذي عشته في سوريا في أيام الحرب، تذكرت عجزي عن النوم خوفًا من القذائف، واستيقاظنا لمرات عديدة على صوت الإنفجارات في دمشق، تذكرت خوفي من باص النقل العام ومن طريق المشفى الذي كنت أختص به، تذكرت خوفنا على الطريق من الشام إلى اللاذقية وكيف تحول طريق السعادة الوحيدة في حياتنا إلى طريق مزروع بالخوف، الخوف من قناص أو مسلح، أو حاجز طيار كما كانوا يطلقون عليه في تلك الأيام.

نظرت بعيني سام الجميلتين وتنهدت بينما عاد قلبي لينبض من جديد، فأخذ يكلمني عن الخوف الذي عاشه بدوره في سوريا، كان ذلك لشهور قليله قبل أن يسافر ل أوربا، أخبرني بأن خوفه يعاكس خوفي تمامًا ويعادله بالشدة، ضحكت لاقتابسه تلك الجملة من قانون فيثاغورث الذي يبدو أنه

ينطبق على الكثير من المشاعر في حياتنا .

لم أستغرب عندما حدثني سام عن الخوف الذي عاشه في داريا فلطالما شعرت بالخجل لما يشعره الآخر اتجاه طائفتنا، ولطالما تخيلت نفسي واحدة منهم كيف سيكون شعوري بينما أعامل كمتهمة لمجرد انتمائي لطائفة أو مذهب ما في وطني.

ولشدة خوف والدة سام عليه، سعت بكل قدراتها لدفعه للسفر قبل أن تسوء الأحوال في داريا وتشتعل الحرب الحقيقية، قبل أن يتم إعلانها كمنطقـــة للمسلحين ويتم محاربتها من قبل الجيش بكل ما أوتي من قوة.

لقد خرج سام في مظاهرة واحدة ضد النظام مع أصدقائه من كلية الطب، ولكن دعوات والدته له ونصائحها حالت دون تورطه أكثر في الموضوع، فأخبرته أن يكون حذرًا وأن يتوقف عن الحديث بالسياسة فالدولة لها آذان مزروعة في كل مكان كما أن عليه أن يركز في موضوع واحد هو أن يهرب ويبدأ حياة جديدة في بلد حر، بلد يسمح له بأن يقول ما يشاء دون أن يسجن أو يتهم أو يعدم، وهو ما أضحك سام بينما يحدثني حيث قال:

- لم تعرف ماما أنه ما من بلد حر على هذا الكوكب، هناك فرق واحد بين البلدان فهناك بلد يأمرك بالصمت وهناك آخر يترك لك حرية الكلام دون أن يعنيه رأيك ولا كلامك... كل البلدان مسيرة ومسيسة بما يخدم مصالحها

فقط .

حرب تشرين 1973 وحروب أخرى

الكراهية . . . لا يمكنك أن تقضي حياتك بأكملها بقرب أحدهم دون أن تكرهه للحظات، وتعشقه للحظات أخرى .

من لا يعرف كيف يكره لا يعرف كيف يحب! إلا أن ليلى امتلكت رأيًا آخر، فهي لا تعرف كيف تكره بل فقط تحب . . .الكراهية في رأيها لا تؤذي أحدًا بقدر أذيتها لصاحبها . . .ولذلك أحبت، أحبت عمار رغم قسوته، أحبت عائلته رغم غرابتهم، وأحبت حياتها بقرب أولادها .

وفي تشرين الأول من عام 1973، اندلعت حرب تشرين فالتحق عمار بالجبهة في القنيطرة وغاب عني لأيام. انقطعت خلالها أخباره بينما أمضيت الليل والنهار أدعو له أن يعود سالمًا .

ولأنه حذرني من زيارة والدتي، التزمت الجلوس بالمنزل مع طفلي قيس بينما كنت حاملًا بطفلي الثاني.

خلال سنين حياتي التي أمضيتها مع عمـــار لم أوطد علاقتي بأي كان إلا مع الله، لقد أصبحت مقربة من الله فالتزمت الصلاة والصوم، العبادة والدعاء، فكان الله مؤنسي وسندي الذي لم يخذلني يومًا .

وفي 20 أوكتوبر/تشرين الأول، وبينما كنت أتكور وحيدة في غرفة الجلوس في بيتي أداعب قيس وأغني له، طرق باب منزلي، فاتجهت بحذر نحو الباب مذعورة من القادم، وعندما امتلكت الشجاعة وفتحت الباب

وجدت رجلًا غريبًا بالبدلة العسكرية يقف متبسمًا أمام باب الدار، توقفت الدماء عن المرور في شراييني لرؤيته، فلم أستطع أن أسأله شيئًا بل انتظرت منه أن يقول ما جاء لقوله، وبعد ثوان من الصمت أخبرني أن عمار قد أصيب إصابة شديدة أثناء المعارك على الحدود وأنه يتلقى العلاج في مستشفى المزة العسكري.

انتظرت من الرجل أن يسير مغادرًا، كي أبكي وحدي خوفي وحزني ولهفتي على عمار، وبينما أبكي وأدعو الله، سارعت لتحضير حقيبة ل قيس واتجهت نحو منزل والدتي، حيث تركت قيس عندها ورافقت والدي للإطمئنان عن عمار في المشفى.

عبرت ردهات المشفـى الذي كان يعج بالمصـــابين والثكالى، وأنا أبحث بعيني وقلبي على عمار، عمار حبيبي، شريكي والد أطفالي، عمار الشاب الطويل الجذاب الذي يرتدي بدلته العسكرية وينتظرني على مدخل المدرسة، ليرمقني بنظرات الحب. وبعد طول بحث وجدناه مستلقيًا على أحد الأسرة، فركضت اتجاهه تسبقني دموعي وصلواتي، وما إن رآني حتى رمقني بنظرة عارية خالية من كل شعور، نظرة يملؤها الشك

- ما الذي آتى بك إلى هنا، ألم أخبرك بألا تغادري المنزل

عندها فقط تيقنت من أنه بخير ومن أنه لن يتغير.

بعد أيام أحضروا عمار إلى المنزل بعد أن تمكنوا من إزالة الشظايا

الكبيرة من جسده بينما بقيت الشظايا الصغيرة عصية عن الإزالة، بل اندمجت بجسده وصارت جزءً من عمار، عمار الذي صنعت روحه من الفولاذ، ليمتزج جسده بالفولاذ هو الآخر في تلك الحرب.

انتهت الحرب، واحتفلنا بالنصـر الذي هللت له إذاعتنا الوطنية، وهو نصر لن نفرح كسوريين بمثله بعد ذلك، لأننا سنستيقظ ونعرف أن لكل رواية وجهان وأن النصر ليس إلا خدعة فليس هناك نصر لمن مات، وما من نصر لمن فقدت ابنها وزوجها وأخيها، انتهت الحرب تلك بينما لم تبدأ بعد حروبنا الكبرى...

على مدى سنوات حياتي الأربعين التي عشتها مع عمار، لم أيأس يوما من تغييره، لعلني أذكر تلك الأيام وأنا خجلة من غبائي وسذاجتي، وأنا التي ظننت أن حبي له قد يغيره أو أن الحب أصلا قد يغير أحدًا.

أربعون عامًا عشتها مع عمار بكل تناقضاته، كرمه المستفذ للآخرين، وعجزه عن الاهتمام بعائلته، الحب الكبير الذي يشهد له الجيران والأقارب وعجزه المؤلم عن تقديم الحب لأقرب الناس له، كان غريبًا ومازال غريبًا دون أن يتغير فيه شيء، وأما الذي تغير فهو أنا.. أنا التي استيقظت متأخرة ...

بعد انتهاء حرب تشرين، أنجبت ولدي الثاني واسميته ناجي لسعادتي بنجاة عمار من الحرب.

أقنعت زوجي بعد الحرب بأن حياة الجيش لا تغني عن جوع، فقرر أن يتسرح وأن يتفرغ لتجارة الجملة، وفعلا اشترى محل صغير في ريف دمشق وبدأ بالعمل، غرق في العمل حتى أخذه العمل تماما من حياتنا كعائلة وهذا ما جعلني أتفرغ لتربية أولادي، قيس وناجي، وأما الشك فقد بقي صديقنا الوحيد والمقرب، والذي لم يستغني عمار عنه طيلة حياته بل استمر بتهديدي بأن لديه عيون تراني وتراقبني مانعًا إياي من مغادرة المنزل إلا برفقته.

فيينا - 2023 - الحب يعني أن تحب نفسك

هرمونات السعادة كلها، الدوبامين، السيروتونين والإندروفين، جميعها تصعد لأعلى مستوياتها بمجرد مصادفتي ل سام في الأصانصير، في الكافيتيريا، أو في أي مكان آخر... فترقص روحي، أرفع كتفي وأتمختر أمامه وكأني عارضة أزياء تمشي على الممر في باريس فاشن ويك، وهو شعور لم أشعره بحياتي، أنا التي عشت حياتي كلها متواضعة وخجولة، أصبحت أرى جمالي وجاذبيتي عبر عيون سام، أصبحت أعشق نفسي بعيني سام، واصبحت أحب كل تفصيلة من جسدي لمجرد مرور نظرات سام عليها... وهي مشاعر تذيبني وتعيد تشكيلي من جديد لأصبح الأنثى التي افتقدتها لسنين...

الحب ... يكذب من يقول أنه يعجز عن الحب...

فالحب قادر على إعادة خلقنا من جديد بروح أخف وقلب أنقى... ولأجله فقط نركض لأميال ونحمل الأثقال ونمتنع عن الطعام ... لأجل أن نحصل على الحب، نهتم بشكلنا ونهدم مظهرنا ونراقب الغرامات التي تزداد على ميزان ثقتنا بنفسنا، ولأجل أن نحافظ عليه نخضع لعميات التجميل فنصغر أنفنا ونكبر خدودنا وشفاهنا بحثا عن الحب وأملًا باستعادته.

الرغبة بالحب حاجة ملحة تتمحور حولها تفاصيل كثيرة من حياتنا ... أن تكون محبوبا يعني أن تكون مناسبا بقلبك ومظهرك وأفكارك للآخر..

وهي معاناة لا يدركها إلا من فقد أحد المقومات فخسر الحب وعجز عن الحصول عليه...

وأما أنا فقد وجدت الحب ... وبدلا من أن أبذل الجهد للحصول عليه، وجدته صدفة عند سام، فكان دافعا عذبا لجعلي أزيد من الاهتمام بنفسي، حتى أنني قررت أن أحقن بوتوكس كي أرفع حاجبي قليلا، وأحصل على تلك النظرة المثيرة، وأما شفاهي وتكبيرها فما زلت حتى الآن أخشى من مظهر الشفاه الممتلئة وما تثيره من شهوة في نفس الآخر، ولكن من يدري قد أجد الجرأة يوما ما لأثير شهوة في قلب أحدهم ...

دمشق - 1976 - زوجي المغروم

في تلك المرحلة المبكرة من حياتنا الزوجية، تعرفت على جارة جديدة تدعى أم فادي، امرأة جميلة وتنبض بالحياة، أحبتني أم فادي وأحببتها، وفي المرة الأولى التي زارت فيها منزلي، جاء عمار في زيارة مفاجئة للمنزل ليتفقدني كعادته، فانصدم بوجودها لدينا، فعرفته بها، وجلس معنا بكل رقي يحدثها عن تجارته وعن أسرته العريقة في اللاذقية، بينما جلست أنا مبتسمة ومفتخرة بزوجي الذي راح يظهر أمامها أجمل ما فيه.

يومها وعندما غادر عمار المنزل، أخبرتني جارتنا بأنني محظوظة بهذا الرجل الراقي والجميل، فابتسمت لها وتركتها تشتكي حظها العاثر لزواجها من رجل لا يوازي زوجي جمالًا وجاذبية، ووسط شكواها راحت تشكر الله لأن زوجها يعمل في لبنان كي لا تضطر لرؤيته كثيرًا.

تعاطفت مع جارتي أم فادي ومنذ ذلك الحين أصبحنا صديقتان.

ووبينما راحت صداقتنا تتطور، راح ما هو أقوى من صداقتنا ينمو بينها وبين عمار، ألا وهو الحب، الحب الذي كنت شاهدة بلهاء على كل تطوارته، بل ربما غذّيته بحماقتي.

فعند كل مساء كنت أحدث عمار عن جمال أم فادي وخلقها العذب، الحديث الذي لطالما أمتعه فأسعدني شعوري بأنه يستمتع بحديثي، اعتقدت أني بذلك أكسب رضاه كي يبقيها صديقة لي غير عالمة أنه يرسم

أعظم من صداقتي بها، كبرت قصة حبهما حتى أصبحت شجرة عملاقة، رآها كل من يمتلك وعيًا كافيًا لقراءة الناس ونظراتهم وتحركاتهم، حتى أن أحد الجارات صارحتني بأنها رأت عمار يتردد إلى منزل أم فادي في بعض الليالي، إلا أنني لم أكترث لكلام الجيران وأكملت علاقتي بها كما هي، لعلني أحببت وجودها قربي كصديقة فلم أصدق كلام الجيران، أحببت لطف عمار معي في تلك الأيام فصدقت أنه تغير، أحببت الهدوء الذي غمره والسعادة التي طفت إلى عينيه...

وفي تلك الأيام استجمعت قوتي، وطلبت من عمار السماح لي بالتقدم لامتحان التاسع، ولأنه كان يعيش في راحة مادية ونفسية، وربما لأنه كان هناك ما يشغل قلبه وعقله فلم أعد من أولوياته، قبل أن أتقدم لامتحان الشهادة الإعدادية، فغمرتني السعادة بدوري وسارعت لإخبار والدتي وابن خالتي غدير الذي استلم زمام الأمور فسجلني بالمدرسة وأحضر لي الأسئلة المتوقعة والكتب وكل ما أحتاجه كي أنجح في الامتحان.

وأما والدتي فقد أسعدتها رغبتي بالحصول على الشهادة، ولكنها كانت جاهلة تمامًا عن باقي تفاصيل حياتي، حتى زارتني في أحد الأيام لتطمئن علينا، وعندها فقط التقت لأول مرة بالجارة أم فادي التي كانت تجلس مع عمار تحتسي الشاي، فجلست والدتي معهما في غرفتنا الصغيرة، وشاركتهما كأسًا من الشاي، يومها لم تكمل والدتي نصف ساعة قبل أن تقرر فجأة المغادرة.

بعد يومين أو ثلاثة، عادت والدتي لزيارتي وقالت لي بنبرة متوترة

- ماما، ينبغي علي أن أخبرك بشيء هام، لقد مضى علي ثلاثة أيام دون نوم، يجب عليكي أن تستيقظي يا ليلى، يجب أن تصحي من غيبوبتك، من الواضح أن زوجك على علاقة بجارتك، وأنتي مغمضة العينين مغيبة عن الحقيقة، قد تخطفه منك فيرمي بك وبأولادك في الشارع

جميع الحقوق محفوظة لقناة رَقْش

نظرت يومها بعيني والدتي وقلت

- اتركيني مغمضة، لا أريد أن افتح عيني

غضبت ماما مني كثيرًا وغادرت المنزل تتمتم بكلام لم أرغب يومًا بأن أعرف معناه،

لم أرغب يومًا بأن استيقظ كما لم أمتلك يوماً القدرة على الوقوف في وجه أحد.

وهذه أصبحت حكمتي في الحياة التي عشتها بسلام مع كل من هم حولي، موطدة علاقتي مع الله ومركزة طاقتي وأفكاري وأحلامي بشيء وحيد، هو أولادي ومستقبلهم ....

استمرت علاقة عمار بجارتنا ما يقارب العام، قبل أن يقرر زوجها أن ترافقه إلى لبنان وتمامًا في ذلك العام، نجحت في امتحان الشهادة الإعدادية.

المزة -1991

من منا لا تحلم برجل شهم مضحك وحنون - أكان زوجًا ولدًا أم حفيدًا

لن تنكر الجدة سعادتها لوجود ناجي لديها في المنزل، خصوصًا بعد أن أنهى امتحانه ورفض العودة لمنزل والديه، فأمضى الصيف لديها، وفي انتظار نتائج الامتحان، راحت ليلى وأولادها يزورون منزل الجدة يوميًا تقريبًا للسهر لديها، وهكذا بات للمساءات نكهة خاصة ستبقى عالقة في ذاكرة كل من سهر في ذلك المنزل وتحديدًا حلي الطفلة الصغيرة التي حفظت عن ظهر غيب كل تفصيل حدث في تلك الأمسيات، كل ضحكة صاخبة وكل أغنية وكل نكتة.

عند كل مساء، تعد أمل الشاي والموالح، ويجلس ناجي وداني وقيس ووالدتهم وجدتهم يضحكون ويتسامرون، فتستحضر الجدة بوجودهم ذكرياتها الجملية عن أيام الصبى في قريتها في جبلة، وأيام الحب التي عاشتها مع أحد أبناء الإقطاعيين في القرية، وزواجها المأسوف عليه من زوجها المتواضع "رحمه الله"، والكثير من الأحاديث التي لا تنتهي من جعبة الجدة والتي تختتمها دومًا بتذكر عدنان وأمنيتها الشديدة بأن يزورهم فجأة فيمضي معهم بعض الأمسيات . . .

وفي أحد الليالي، تحققت أمنية الجدة، وفعلًا قدم عدنان في زيارة خاطفة من ثكنته العسكرية، فوجد ليلى وأولادها جميعًا في سهرتهم المعتادة في

فسحة الدار، وما إن دخل حتى نهضو جميعًا للترحيب به، آخذًا قيس بالغناء له "طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة" بينما قال له ناجي مرحبًا

- والله، أمك أواخواتك يمضون السهرة كلها في الدعاء لك أن تزورنا وها قد استجاب لدعائهم، لو دعو أن نربح اليانصيب لكان أكثر نفعًا

ضحكو جميعًا، بينما انهال داني بالأسئلة عن العسكرية والأسلحة وما يتعلمه هناك من فنون القتال، ومباشرة نهضت أمل لتجهيز الحمام بينما سارعت الجدة وليلى لتحضير العشاء، فقال ناجي ساخرًا:

- لأجل عينيك يا خال سنتعشى الليلة، والله لو أموت

جوعًا لا يقبلون إعداد العشاء لي وأكثر من سندويشة زعتر لم نتذوق في الليالي الماضية

كانت سعادة عدنان لا توصف بالاهتمام الذي عاشه في ذلك المساء، حتى أنه شعر بحبهم جميعًا ولهفتهم مما زاده سعادة وثقة.

وعندما انتهت زيارة عدنان الخاطفة والتي استمرت لأربع وعشرين ساعة، حزنت الجدة كثيرًا قبل أن يعود الروتين إلى ما كان عليه، ليلى وأولادها يزورونهم في المساء، فتسهر معهم حتى يغادروا وما إن يغادروا حتى تنام.

وما إن تنام ، حتى تستعد أمل وناجي لإكمال سهرتهما على صوت أم كلثوم ووردة الجزائرية وعبد الحليم، وفي إحدى السهرات حدثت أمل ناجي كل تفاصيل قصة حبها لمحمد، فتحول مع الأيام لمرسال الغرام بينهما،

الغزة -1991- صفحة 191 / 407

حيث يأتي محمد إلى المزة يوميا ويلتق ب ناجي عند مدخل الحي، فيأخذ منه رسائل الحب التي كتبتها أمل ويعطيه في المقابل الورود والشوكولا التي اشتراها لها والتي غالبًا ما يلتهم نصفها ناجي في طريق عودته لمنزل جدته، وفي أحيان أخرى كان يتمشى مع خالته عصرًا أمام أعين الناس للقاء محمد عند مدخل الحي، دقائق من الكلام والحب المسروق والذي كان ناجي وحده شاهدًا على مدى جماله...

(رأس الحارة) أو مدخل الحي ... المكان الذي هربت عنده ليلى خطيفة مع عمار، هو ذاته رأس الحارة الذي شهد الغرام بين أمل ومحمد والتي كان ناجي شاهدًا عليها أيضًا، فأعجبه محمد الذكي والراقي، وأعجبته خالته التي باتت تشع طاقة وألقًا، وأعجبه الحب العظيم بينهما فقال لها يومًا

- أنتِ ومحمد رائعين معًا، أجمل بكثير من قيس ومايا

ضحكت أمل ضحكتها العوفية والتزمت الصمت

وفي 21 آب من عام 1991، أعلنت نتائج البكالوريا العلمي، فانطلق ناجي وخالته منذ الصباح نحو مديرية التربية لمعرفة نتيجته، كان الطقس حارًا للغاية وشمس آب تحرق بلهيبها كل عابر، ورغم تعرق أمل وتذمرها من الحرارة كان ناجي يجلس بقربها في الباص يثرثر لها دون توقف عن رغبته الشديدة بأن يكون الأول على سوريا.

حصّل ناجي علامات ممتازة في البكالوريـة (الثانوية)

لكنه لم يكن الأول على سوريا، لذلك عاد حزينا إلى المنزل بينما كانت سعادة أمل لا توصف لأن علاماته تؤهله لدخول كلية الطب، وقبل أن تصل منزل والدتها، استخدمت الهاتف العام للإتصال بليلى وإخبارها بهذا الخبر الرائع بينما أضرب ناجي عن الكلام.

عندما سمعت ليلى بالخبر، راحت ترقص فرحًا وتبتهل لله، وما أن أغلقت سماعة الهاتف حتى اتصلت مباشرة بزوجها لتبشره بنتيجة ناجي الرائعة.

لشدة سعادة أبو قيس، أنزل الغلق في محله وعاد مسرعًا نحو المنزل للاحتفال مع أولاده، كان عمار شابًا في الأربعين من عمره عندما نجح ناجي بالبكالوريا وكان يبدو في أكثر أوقاته نجاحًا، جمالًا وزهوًا.

زاده تفوق أولاده فخرًا مما جعل منه رجل لا يقهره شيء، بل يسير على الأرض معتدًا بنفسه وواثق من أن خطواته تسير به نحو القمة .

يومها عاد مسرعًا نحو المنزل فأخذ أولاده وزوجته باتجاه منزل الجدة للاحتفال بناجي، ومن هناك اتجهوا جميعًا نحو أحد مطاعم نبع الفيجة حيث قرر أن يعزمهم جميعًا على الغذاء احتفالًا بالطبيب ناجي، وهي لحظات تذكر لعمار الذي لطالما أحب الحياة وأحب الاحتفال بها.

بعد أيام من نتيجة البكالوريا ودع ناجي جدته وخالته وسافر ليتابع أوراق تسجيله في كلية الطب ويبدأ دراسته في حلب.

وبسفره عاد الهدوء المزعج إلى منزل الجدة التي بكت يوم سفره وشعرت

بأنها خسرت النبض في حياتها، قبلّها يومها ناجي ضاحكًا وقال "بتحبيني يا ستي" فخجلت الجدة وأدارت وجهها فقال:

- لا تبكي، أقسم لك أني سأزورك أكثر مما سأزور والدتي، انتي وخالتو أمل من أجمل النساء اللاتي عبرن بحياتي

ضحكت الجدة وقالت:

- احترس من النساء في حلب

ضحك

- هنّ من عليهن الاحتراس مني، فأن ابن أبو قيس وفي عروقي تجري مورثاته

الكلية الحربية 1991

لن يشتكي عدنان العذاب الذي يعيشه في الكلية الحربية مع أي كان، ولكنه وعندما يبلغ الخمسين من عمره سيجلس برفقة زوجته وأطفاله ويروي لهم ما عاناه في هذه الأيام كلحظات لن يبقى منها إلا رماد الذكريات.

فلقد جعله خجله وبراءته محط سخرية رفاقه وعلى رأسهم الضابط المشرف عليه، والذي كره بشدّة نعومة ولطف المنتسب الجديد فصب عليه جام غضبه.

ففي أحد أيام الشتاء المثلجة في حمص، أمر الضابط جميع عساكره بالاجتماع في ساحة الكلية وانتظاره تحت الثلج المتساقط، وما إن ظهر الضابط أمام عساكره المنتظرين في الزمهرير حتى دار بنظره بينهم ووقعت عينيه على عدنان أصغر العساكر حجمًا وأكثرهم خجلًا فأمره بالتقدم والوقوف في منتصف الساحة، نفذ عدنان ما أمره به الضابط المسؤول.

وما أن انتصب واقفًا في مركز الساحد وحوله يتجمهر طلاب المدرسة حتة صرخ إلضابط المشرف بالعساكر قائلًا:

- أترغبون برؤية رجل ثلج

فصرخوا جميعًا:

- نعم سيدي

ضحك الضابط ثم أمر عدنان بالقرفصاء تحت الثلج وبعدم الحراك حتى يتراكم عليه الثلج ويتحول لرجل ثلج حقيقي. وفعلًا قرفص عدنان في الساحة تلك وبقي ساكنًا دون حراك بينما أمر الضابط باقي العساكر بالانصراف وبمراقبة عدنان من نوافذ المهاجع ريثما يتحول لرجل ثلج.

وقبل أن يغادر الضابط ساحة الكلية، صرخ في عدنان الذي جلس مقرفصًا وأسنانه تصطك ببعضها:

- سأراقبك من النافذة، وأقسم بالله لأجعلك تنام تحت الثلج إن لمحتك تتحرك

استمر عدنان بالقرفصاء بينما قلبه يبكي، روحه تأن، عينيه تدمعان، أسنانه تصطك وعقله يتمنى لو كان بمقدوره أن يتمرد ويثور فيصرخ في وجه ذلك الضابط ويثور عليه، لكنه ابن أبو عدنان الشاب المسالم البريء الذي لا يحرك ساكنًا.

ولأن والدته ودعائها كانا برفقته، اشتدت العاصفة الثلجية وتساقط الثلج بقوة فتحول خلال دقائق لرجل ثلج حقيقي، مقرفصًا بعينين باكيتيْن ورموش تغطيها الثلوج، متجمدًا من الخارج ومحترقًا من الداخل ولهيب القهر يستعر بقلبه وروحه ورئتيه.

صرخ أحد العساكر من الداخل "سيدي لقد تحول لرجل ثلج حقيقي"

فخرجوا جميعًا لمشاهدته يرافقهم الضابط الذي راح يضحك ويضحك

معه كل من هم حوله.

فيينا – 2023 – الحدس

لم يعمل الحدس لدى نور، الحاسة السادسة التي يقال بأنها تجعل كل نساء الأرض يشعرن بأي تغير قد يطرأ على أزواجهن، خصوصًا إن كان لتغيراته صلّة بأي امرأة أخرى، هي حاسة لم تكن قد شعرت بها نور بعد.

فرغم سعادة سام الغير مبررة ونظرة الحب التي ارتفعت مؤخرًا إلى عينيه، إلا أنها لم تظن ولو لثانية بأنه يخونها، ولعل ثقتها تلك هي ما دفعته ليخون!

فهي لا تثق به بل تثق بنفسها، معتقدة أنها وعلى مدى السنين قد أحكمت سيطرتها عليه جاعلة منه رجلًا وحيدًا منعزلًا، لا يعرف غير أسرته، وهي ثقة لا تفهم معظم النساء مدى خطورتها فليس هناك أصعب من إطلاق سراح سجين أدرك متأخرًا سماكة القضبان التي أحاطت به، فانطلق من سجنه نهمًا للإستمتاع بكل ما فاته، وهكذا كان سام.

فبينما اعتبرت نور وجود سام من المسلّمات في حياتها،

ولم تعزف أن ما ينقصه لم يكن متعلقًا بالجنس بل بالإحتواء أحيانًا والحرية أحيانًا أخرى، وهي أشياء لم تدرك مدى أهميتها لنجاح أي زواج، مما جعل علاقته بي تبدأ وتستمر دون أن يشعر بها أحدًا، فاتفقنا أن نلتقي في فولبنزيون، وهو أحد أقرب المقاهي إلى قلبي.

لم أغرم برجل يومًا ما كغرامي بسام، طوله المثالي، جسده المثالي،

جاذبيته التي لا يمكن تجاهله ورقيه في كل ما يفعل، من طريقة حديثه للنادل لطريقة كلامه مع المرضى في المستشفى، حتى أنني وحتى اللحظة أكاد لا أصدق أن هذا الكائن الجميل مغرم بي، لقد زاد من ثقتي بنفسي حتى أنني قد أصاب بداء العظمة لمجرد شعوري بحبه لي.

تحدثنا يومها عن خاله الكاتب، حدثته عن رأيي بالكتابة، وبأن الكتابة علاج من كل أمراض الدنيا وأفضل وسيلة لتفريغ الهموم، وبأننا كعائلة اعتدنا كتابة المذكرات منذ الصغر ولكننا لم نصبح كُتابًا للأسف.

أخبرته عن عدد دفاتر المذكرات في منزلنا وكيف أنك قد تجد مذكرات العائلة على كل أشكال الأوراق، حتى أوراق الملاحظات الصفراء اللون المربعة الشكل والصغيرة الحجم، والتي قد تنتزع من الدفتر بسهولة وتنتشر في فضاء المنزل وعليها مكتوبة أسرارنا، قصص حب داني، ذكريات ناجي في كلية الطب ومعاناة قيس مع بابا، حتى أنك قد تصادفها على التلفاز تحت السرير أو في المطبخ، منتشرة في أنحاء منزلنا كانتشار النميمة بين أفواه البشر، دون أن نخشى يومًا من بابا أن يقرأها ببساطة لأنه لا يكترث للقراءة.

وعندما انتهيت من كلامي، حكى لي بدوره عن طفولته البعيدة، عن والديه العمليين والذين لم يزرعا بقلبه أي رغبة بالكتابة أو القراءة عدا رغبة وحيدة وهي كتابة الواجبات المدرسية ودراسة المنهاج، وكيف كرّست والدته حياتها في تدريس أولادها كي يصبحو أطباء، كي ينطلقو في هذه الحياة

دون خوف أو رهبة، وكيف أنها اهتمت بكل تفصيل يتعلق بالدراسة بدءً من الدروس الخصوصية التي لم تكن رائجة في تلك الفترة حتى المعاهد الصيفية والكثير من الدورات لتحصّل المزيد مما لا يمكن تحصيله في المدرسة.

سألته عن زوجته نور لحظتها:

- هل تهتم زوجتك بدراسة الأولاد كاهتمام والدتك بها؟

- بل أكثر بكثير، زوجتي تكرس حياتها لجعل أولادها نسخة محسنة عنا، تهتم بدراستهم منذ الطفولة وتريدهم أن يصبحو أطباء جميعًا

انكمشت لحظتها على نفسي وشعرت بعظمة تلك الأنثى التي تصرف وقتها كله في الاهتمام بزوجها وأولادها بينما أصرف ساعات من وقتي أسبوعيًا بصحبة زوجها، ناسية أولادي وزوجي ومتجاهلة لساعات واجباتي اتجاههم، إنه الضمير الذي لا ينفك يؤنبني في كل مرة أذكر بها أنني متزوجة.

وبينما تغير لون وجهي، شعر سام بتوتري فأضاف:

- ولكني أكره في نور، إيمانها المبالغ به بأهمية العلم، متناسية أهمية الأشياء الأخرى ليحيا أطفالنا حياة سليمة.

- ماذا تقصد؟

- هي لا تؤمن بأهمية الرياضة وقراءة الكتب، تعلم الموسيقى، حتى أنها منعتني من أن أسجل أيًّا من أولادي في أي نشاط عدا نوادي الرياضيات والكيمياء، تخيلي أنهم لا يجيدون السباحة حتى الآن، لطالما أصرت أنهم وحتى الثامنة عشر عليهم بالدراسة ثم بعد ذلك سيمتلكون وقتًا لتعلم ما يحلمون بتعلمه"

صدمتني أفكار نور بينما يكلمني سام عنها، ولكن حماقتها أسعدتني وربما غذَّت غروري

- وماذا كان موقفك من أفكارها؟

خجل من نفسه ولكنه قال:

- مشيت على هواها، لأنه ومع شخص ك نور، ينبغي أن تساير تتجاهل لتعيش

التزمتُ الصمت بينما أرتشف القليل من القهوة تاركًا لعقلي حرية التفكير بعقلية تلك المرأة وطريقة تفكيرها.

دمشق – 2021 – والدة سام

كانت أم سام تجلس على البرندا بقرب زوجها يحتسيان القهوة كعادتهما عند كل صباح، كان صباحها عاديًا كأي صباح، ولم تكن تنتظر من الكون أن يهديها سعادة كتلك التي عاشتها في ذلك اليوم، بكلمات أخرى لم تتوقع يومًا أن يسعدها خبر كذاك الذي سمعته في ذلك الصباح.

اعتادت أم سام على اشتياقها لولدها، اعتادت على عدم سماع أي خبر منه إلا بوجود زوجته بقربه، اعتادت على انصياعه المطلق لتلك العروس التي اختارتها له بحرص وعناية غير عالمة أن العروس تلك ستتحول لعنكبوت وتشبك سياجها حول سام مانعة إياه من التنفس إلا نزولًا عند أوامرها .

لم تكن والدة سام يومًا من أولئك الأمهات اللاتي يتدخلن في حياة أولادهن بل كانت مسالمة للغاية، لا تتدخل في شؤون أحد وتتمنى السعادة لكل من أولادها إلا أنها لم تكن راضية عن حياة سام، لم يعجبها الغموض الذي خيم على

حياته، لم يعجبها امتناعه عن الإستمتاع بالحياة.

لم يعجبها شعوره بالوحدة حتى إن لم يكن ليشتكي لكنها لطالما سألت أخوها محمد عنه لينقل لها أخبار ابنها مازحًا

- لا تقلقي يا أختي، ولدك يعيش السعادة برفقة زوجته التي أحكمت

أنيابها عليه

لذلك عندما رن هاتف المحمول يومها، فركضت من البرندا نحو البطارية التي تشحن بها الموبايل، ووجدت رقم سام شعرت بسعادة غامرة

- لك أهلين يا ماما، اشتقت لسماع صوتك، كيف حالك طمني عنك

- الحمدلله ماما، أنا مشتاق

- كيفها نور، والولاد

- يقبلون يديك

- أهلًا فيك يا حبيبي، كلمني عنك، كيف الحياة، كيف العمل

- أنا منيح وشغلي منيح

- الحمدلله والله قلبي لا يتوقف عن الدعـــــــاء لك ولأخوتك

- يخليلنا ياك ماما

صمتت أم سام قليلًا منتظرة من ابنها أن يقول لها جملته المعتادة ألا وهي (نور بدها تسلم عليكي) لكنه لم يقل فبادرته بالسؤال:

- ألست في المنزل؟

- لا والله

- ليست من عاداتك أن تحدثني من خارج المنزل

- والله أن في المسشتفى ولقد اشتقت للحديث معك

- هذه هي المرة الأولى التي تحدثني فيها من المستشفى، طمني عنك، أأنت بخير، الأولاد بخير؟ أرجوك طمأني

صمت سام كأنه كان ينوي أن يقول شيئًا وغير رأيه، فسألته والدته

- ماما حبيبي، شو فيك احكيلي

استمر صمت سام لثوان قبل أن يقول:

- إي أتمنى أن أخبرك شيئًا

لهف قلب أم سام بينما تنتظر الكلام من ابنها ففاجأها بقوله:

- ماما أنا عشقان

صمتت أم سام لوهلة

- لم أفهم كلامك - حبيبي

أضاف

- ابنك ماطلع بيتوتي متل أبوه، أنا أزعر ماما وأنا عشقان

ثم ضحك ضحكته القديمة التي مضت سنينًا منذ أن سمعتها والدته للمرة الأخيرة . . . .

سرت نسمة من السعادة بعروق أم سام وشعرت بارتياح غريب لم تتوقع

يومًا بأن تعيشه لسماعها مثل ذلك الخبر فقالت:

- وهل أنت سعيد بما تعيشه؟

- كتير سعيد يا ماما

- كل ما يهمني هو أن اراك سعيدًا

حصل سام على مباركة والدته بمجرد قولها لتلك الجملة فقال:

- شكرًا ماما وبحبك كتير

- اعتن بنفسك

أغلقت أم سام السماعة دون أن تدري إن كان ما قالته صحيحًا أو إن كان ما سمعته مقبولًا ولكن الشعور بالارتياح الذي غمرها تلك اللحظة كان شعورًا جميلًا وعذبًا بطريقة غريبة.

عندما أغلق سام السماعة، شعر بدوره بارتياح غريب، وكأنه جعل خيانته حلال بمجرد الإتصال بوالدته وإخبارها، هو أيضًا لم يكن يدري ما هو مقدم عليه ولكنه استيقظ متأخرًا ليجد الشيب وقد تسلل إلى شعره، والتجاعيد وقد زينت عينيه، والعمر وقد ضاع من يديه.

أراد بشدة بأن يعيش، وعندما رأى حلي رأى فتاة أحلامه التي ضاعت بزواجه، رأى صديقة سورية تتكلم لغته وتفهم أفكاره ، لذلك ترك لمشاعره اللذيذة حرية الحركة متجاهلًا تمامًا بأن لديه زوجة وأولاد.

ليلى - 1979 - الناس أجناس

المال... هو جاهل كل من يعتقد بأن المال لا يصنع السعادة.

المال لا يصنع السعادة فحسب بل يصنع الجمال، يخلق الحب، يغير القلوب ويجعل لكلّ من يمتلكه كاريزما خاصة وجاذبية لا يمكن إنكارها، ليس ذلك فحسب بل لديه القدرة على تغيير أخلاق الناس نحو الأفضل .

بدأت تجارة عمار بالازدهار فقد كان من أوائل تجار الجملة في المنطقة، وراح يتوسع بتجارته بافتتاح فروع مختلفة في دمشق، وكان لوجود المال في حياته وقعًا خاصًا جعل منه شخصًا محبًا للحياة في أحيان كثيرة، فزادت رحلاتنا إلى اللاذقية وزاد حب الأقارب لنا حتى بات منزلنا في دمشق فندقًا لكل من يأتي من اللاذقية بحثًا عن حياة جديدة في العاصمة.

لقد شهد منزلي الكثير من الأحداث التي أسعدتني وأولادي، كزيارة عمتنا نرجس والتي نجحت البكالوريا لدينا في المنزل ثم التحقت بالجامعة وأمضت سنين الجامعة معنا أيضًا، ثم تزوجت من غدير ابن خالتي فقرروا أن يمضو شهر عسلهم لدي في المنزل الذي اتسع وبات يتألف من طابقين، أحدهما لي وللأولاد والآخر للأقارب . . .

وفي أحد أيام كانون الثاني، الشهر الأكثر بردًا في العام، وتمامًا عند الساعة الرابعة فجرًا، في اللحظة التي توضأت فيها لتأدية صلاة الصبح، طرق باب منزلي في دمشق، فارتجف قلبي من الزائر المفاجئ، غادرت

الحمام واتجهت نحو غرفة النوم لإيقاظ عمار، أخبرته أن الباب يطرق فاستيقظ قلقًا

- اللهم اجعله خيرًا

اتجه مباشرة لفتح الباب الذي طرق مرة أخرى، تبعته ووقفت على جانب الممر كي أتابع من بعيد، وما إن فتح الباب حتى صدمنا برؤية علي ابن أم علي – الجارة التي غيرت حياتنا

اعتذر علي من زيارته المفاجئة فقال له عمار

- تفضل بالدخول خالو، المهم أن تكون والدتك وأباك وإخوتك بخير

ولكن الصدمة كانت عندما دخل علي بصحبة فتاة قدمها لنا على أنها زوجته .

وتبين لحظتها بأن الفتاة هي ابنة جيران أم علي في الضيعة، وبأن علي أخذها خطيفة دون معرفة أهلها وجاء بها إلى منزلنا للاختباء من أهلها الذين ولا بد أن يثوروا غضبًا قبل أن يلتزموا الصمت ويتقبلو قدرهم بهدوء.

اهتممت بالعرسان ورحبت بالصبية التي كانت في العشرين من عمرها أي أنها أوعى مني بكثير عندما تزوجت خطيفة، ولكن على ما يبدو لم تكن أذكى مني لأنها قبلت بأن تكسر قلب عائلتها وتتزوج خطيفة، استغربت ليلتها لأن مبدأ الخطيفة على ما يبدو هو واحد من مبادئ أم علي التي شجعت عمار على الزواج بي خطيفة فيما مضى وعادت الآن لتشجع ابنها

على الفعل نفسه، ناسية ما يعنيه أن تتزوج بنات الناس خطيفة، وما يعنيه أن تدمر عائلات بفعل كهذا.

بقي العرسان لدي لأسبوعين قبل أن يتأكـــدوا من أن العائلة صفحت عن ابنتها وبأنهم في أمان كي يعودوا للقرية.

لم يخلو منزلي يومًا من الأقارب دون أن أنتظر الشكر من أحد، لم يهمني يومًا تصرفات الناس وهي نعمة قد يدعوها البعض سذاجة ولكنها بنظري أكبر نعم الله علي فقد عشت حياتي بضمير مرتاح دون أن أؤذي أحد أو أرد أحدًا خائبًا والأهم من ذلك دون أن أنتظر الشكر من أحد.

دمشق – 1992 - أمل ومحمد

كان لمحمد حبيب أمل ثقة كبيرة بالنفس جعلته يثق بأن والدة أمل ستوافق عليه بمجرد أن تتعرف إليه، وهي ثقة لا يمتلكها إلا قلّة من الشباب.

لذلك أصر على أن يقوم بزيارة رسمية لمنزل أمل ويطلب يدها من والدتها، وهو ما جعل أمل تبكي منهارة أمامه متمنية منه أن يؤجل الموضوع قدر المستطاع، ولكن دون جدوى.

ولأن مبادىء محمد وقناعاته تمنعه من قضاء الوقت مع بنات الناس دون وجهة واضحة، فقد استهجن ردة فعل أمل التي لم يتوقف يومًا عن استغراب ردود أفعالها، فقد ظنّ أنها ستطير فرحًا لمعرفة أنّ علاقتهم ستصبح جدية لا أن تنهار من البكاء...

استنجدت أمل بأختها ليلى التي كانت الأقرب إليها في حين تعيش أخواتها الثلاث الباقيات في محافظات مختلفة من سوريا، فلم يكن لدى ليلى من جواب سوى أنها ستدافع عن هذا الحب بكل ما أوتيت من قوة، وهو قول ستلتزم به ليلى دون أن تتمكن يومًا من تنفيذه ...

وفعلًا وبعد أشهر من المناوشات بين محمد وأمل، اتخذ محمد قراره بأن يواجه والدة أمل واثقًا من أنها لن تملك سببًا وجيهًا لرفضه، عدَا اختلاف الطائفة والتي يمكن تجاوزها إن هاجر مع أمل وعاش بعيدًا عن أهله، فهو لا ينوي أن يفرض الحجاب على أمل ولا أن يغير شيئًا من شخصيتها بل أنه

معجَب جدًا بأخلاقها وتربيتها ويتمنى بشدة لو تصبح أمًا لأطفاله وزوجته ودعامة بيته الذي يحلم ببناءه يومًا ما . . .

وفي شهر آب من عام 1992، تمامًا في 1 آب، قدمت ليلى مع زوجها عمار وأولادها لزيارة الجدة، وكانت ليلى قد أخبرت عمار بأنها تريد مساعدته لإقناع الجدة بالموافقة على خطوبة أمل من شاب من طائفة أخرى، وهو أمر استهجنه عمار كثيرًا ورفضه في البداية ولكن ليلى تمكنت من إقناعه بأن الحياة تغيرت وبأن الشاب سيصبح دكتورًا بالجامعة وبأنه سيسافر معها إلى أوربا ولن يعيش بقرب أهله.

وبعد نقاشات طويلة بينها وبين عمار، ولأن عمار يؤمن بخلق أمل ولن يرفض مساعدتها، وافق على أن يكون وسيطا في إقناع الجدة، وهكذا اجتمعوا جميعًا على كأس من الشاي في بيت المزّة القديم، جميعهم عدَا ناجي الذي كان في حلب وعدنان الذي كان في العسكرية، قرأت الجدة بذكائها أن قدوم عمار إليها لم يكن صدفة فهو لا يزورها أبدًا، فجلستْ منتظرة أن تسمع شيئًا منهم.

فعلًا وبعد ساعة كاملة من الأحاديث التي قصّها عمار عن تجارته وحياته، سألته الجدة:

- ألم يحن الوقت بعد لتحدثني عن سبب زيارتك؟

ضحك عمار

- أتعلمين لماذا أحبك يا خالتي، لأنك مثلي وما من أحد في الكون قادر على أن يضحك عليك

- مما يعني هناك سر وراء زيارتك لي اليوم

هز عمار رأسه:

- اسمعيني يا خالتي أم عدنان، انت تعلمين جيدًا غلاوتك أنت وأمل على قلبي.

توسعت حدقتا عيني أم عدنان منتظرة أن تفهم المزيد، وراح الأكسجين يصبح رطبًا وسميكًا وكأنها تعجز عن التنفس، نظرت نحو أمل التي جلست ساكنة دون حراك منتظرة منها تفسيرًا لما يدور من حديث، لكن أمل التزمت الصمت وأشاحت بنظرها عن والدتها.

فتابع أبو قيس

- هناك شاب محترم، ابن عالم وناس، وقريبا سيحصل على دكتوراه في الهندسة

راحت أم عدنان تصغي ولكنها عقدت حاجبيها وتأهبت لما يمكن أن يحمله هذا الحديث الغريب، فلو كان العريس مناسبًا لأمل لَمَا تدخل أبو قيس بالموضوع

أضاف

- ولأنه مهذب، هو يرغب بأن يدخل من الباب ويطلب يد أمل على سنة الله ورسوله

لم ترتح الجدة للحديث الذي تسمعه، ولم تفهم لماذا لم تخبرها أمل بهذا العريس ولماذا لجأت لـ ليلى وزوجهـــا، أحَسَّتْ بالمؤامرة وهي التي تخشى المؤامرات

فقالت بحزم:

- وما هو عيب هذا العريس اللقطة؟

ضحك أبو قيس ضحكته المعتادة

- والله يا خالتي كل لحظة يزداد إعجابي بك

التزمت ليلى الصمت بينما تراقب بحذر وتَرْقب الحوار الدائر بين زوجها ووالدتها، ألقت نظرة نحو أمل محاولة تهدئة مخاوفها بينما تجلس بصمت هي الأخرى بقرب قيس وداني.

- أخبرني

صمّمت الجدة على معرفة عيب ذلك الشاب، فتوقف أبو قيس عن الضحك

-ليس من طائفتنا

ابتلعت الجدة ريقها، وصمتت ...

تدخلت ليلى

- يا ماما الشاب محترم جدًا، مهندس، معيد في كلية الهندسة وقريبًا سيحصل على الدكتوراه

لم تجب الجدة، بل استمرت بالصمت.

كان لحزمها لغته الخاصة فهي إن قالت لا يعني لا وإن صمتت فلن تتكلم بل ستقتل كل من هم حولها بصمتها، هي التي ترى الأشياء بالأبيض والأسود ولن ترضى بالرمادي أبدا . . . .

عادت ليلى وأسرتها منكسي الرأس بعد أن فشلت مهمتهم بإقناع الجدة، وقبل أن تغادر ليلى المنزل، قبلت والدتها وهمست في أذنها كلمتين

- أرجوك لا تنهري أمل فهي لم تخطأ بشيء

لم تعطي الجدة أي رد فعل لما سمعته، فاتجهت ليلى نحو أمل وحضنتها وهمست في أذنها

- لا تحزني، الله يدبر الأمور كلها

الله الذي حل كل مشاكل ليلى لم يكن نفسه الله الذي لم يحرك ساكنًا بكل ما حدث وسيحدث في حياة أمل . . .

فيينا - 2023 – صحوة منتصف العمر

استيقظت حلي في يوم عطلتها على صوت التلفاز في غرفة الجلوس وهو شيء اعتادت عليه في أيام العطل حيث يستيقظ الأولاد مبكرًا ويركضون لمتابعة أفلام كرتون، فابتسمت ليوم جديد بينما صرخ زوجها الذي كان ينام بقربها قائلًا:

- أخبري قرودك أن يخفضوا صوت التلفاز، حتى في يوم العطلة يمنعوني من الاستمتاع بالنوم

وهو أيضًا نكد اعتادت عليه حلي في حياتها الطويلة مع زوجها.

قامت من السرير دون أن تعلق على صوته الجهور، واتجهت نحو الحمام، غسلت وجهها وأسنانها، ثم خرجت للقاء أطفالها، وهذه أكثر لحظات أسبوعها سعادة، فهي تحب عطلة نهاية الأسبوع وتحب الصباح في نعطلة نهاية الأسبوع، وتحب تمضية الصباح مع ولديها، أعدت لهم الـ بانكيك مع العسل وأعدت لنفسها كويًا من القهوة بالحليب، ثم ذهبت لتجلس بقربهم تتابع معهم أفلام كرتون، وبعد أن انتهوا من وجبة الفطور أخبرتهم أن يرتدوا ملابسهم كي يخرجوا في نزهة معًا إلى المجمع التجاري لشراء حاجات المنزل.

ارتدى الأولاد ملابسهم في حين ارتدت سروالا من الجينز وجاكيت دافئ ثم خرجوا تاركين لوالدهم حرية النوم...

على الطريق استمعت مع أولادها على فيروز، وغنوا معًا أغنيتهم المفضلة "يا أنا يا أنا أنا وياك صرنا القصص الغريبة، يا أنا يا أنا أنا وياك وانسرقت ماكاتيبي وعرفو إنك حبيبي، عرفو إنك حبيبي".

وفي تلك اللحظة بينما تغني مع أولادها مع فيروز، تنبهت أن كلمات أغنيتهم المفضلة تتماشى مع قصة الحب السرية التي تعيشها مع سام، فخشيت للحظات من أن تكتشف أو تفضح، وكي لا يتلاشى مزاجها الصباحي الجميل، حاولت أن تتجاهل الأفكار الشريرة وأن تسعد بالصباح الذي تمضيه مع أولادها . . .

انتهوا من التسوق في الهايبر ماركـــت، واشترت لكل منهم ما يرغبه من مأكولات ثم عادوا جميعًا إلى المنزل، ليجدوا والدهم مستلقيًا على الكنبة ويلعب بالموبايل، لم يكترث الأولاد لوالدهم الذي يعرفون مسبقًا مزاجه الصعب، ولذلك ذهبوا مباشرة نحو غرفتهم للعب معًا بلعبة جديدة كانوا قد اشتروها للتو من المجمع التجاري . . .

بينما اتجهت نحو المطبخ لإعداد وجبة الفطور، بيض مقلي، لبنة، جبنة، زيتون أخضر وأسود، كروسان فريش، شاي ومربى المشمش. . .

أعدت السفرة وصرخت لأطفالها بالانضمام للاستمتاع بفطور عائلي حقيقي، جلست وأولادها بينما بقي زوجها مستلقيًا وكأنه لم يسمعها فأعادت عليه النداء "الفطور جاهز حبيبي، تعال كول" كذلك لم يجب.

سألت أطفالها أن يبدأو بتناول الطعام بينما انتظرت منه أن ينضم إليها، وبعد عشر دقائق أي بعد أن أنهي الفيديو الذي يتابعه على اليوتيوب، وقف واتجه نحو طاولة الطعام، عندما جلس كان البيض المقلي قد انتهى، فصرخ بوجهها

- كم من مرة أخبرك بأن تزيدي من حجم الوجبة كي

تكفينا جميعًا

ولأنها كانت بمزاج عال لم ترغب بأن تستفز بسهولة، فوقفت بصمت واتجهت نحو المطبخ وأعدت وجبة ثانية من البيض ثم عادت نحو الطاولة، وعندما وضعت البيض قال لها:

- شكرًا لقد شبعت

ثم غادر السفرة، كذلك شبع أولادها وغادروا فبقيت وحدها والبيض المقلي، تناولته بصمت وكأن شيئا لم يحدث.

وبينما تتناول البيض، تخيلت سام وعائلته يجلسون على طاولة الطعام، تخيلته يركض لجمع الأطباق بعد الإنتهاء من الفطور ولعله يساعد زوجته في أعمال المنزل أيضا، من يدري؟! تنهدت وأكملت فطورها مع كأس الشاي الذي برد...

اعتادت حلي على مزاج زوجها المضطرب، ولطالما عزت ذلك للدورة الشهرية التي تلقى عليها كل مزاجية المرأة، بينما لم ينتبه أحد لمزاجية

الرجل الذي لا بدّ وأن له دورته الأسبوعية الخاصة فهو يبقى نكدًا في معظم الأيام ليظهر مزاجه الرائق في مناسبات قليلة جدًا.

المزّة - 1992 – وهل تنتهي هموم الجدة!

لم تنم الجدة ليلتها، بدأت الأفكار تأكل عقلها، فغادرت فراشها في منتصف الليل وراحت تتمشى في فسحة الدار، شعرت أمل بحركتها، لكنها بقيت مستلقية في فراشها...

لن تنسى أمل ذلك الليل الطويل والذي بدأت معه فصلًا جديدًا من حياتها، كما لن تنسى الجدة كم أنهكتها تلك الليلة الطويلة وصدمتها بكلام أبو قيس، هي التي لم تثق بابنة من بناتها كاعتزازها بأمل، هي التي صنعت من أمل الفتاة التي حلمت لسنين بصنعها.

لقد خذلتها ليلى فيما مضى فاهتزت ثقتها بأولادها، بالناس والحياة، ولم يستقر ذهنها وقلبها إلا عندما انتسب عدنان للكلية الحربية وبدأت أمل الدراسة في كلية الهندسة المدنية.

ها هي مجددًا تفقد الثقة بأعز بناتها، وكأنه من المقدر لها أن تعيش الصدمات وأن تفقد الثقة بكل الناس ...

لم تتمكن الجدة من النوم في تلك الليلة، لأنها خشت من أن تعود الحياة لتختبرها بالطريقة ذاتها، وكأن القدر نسي كل البشر وقرر أن يختبر كل الأحداث الغير متوقعة في أسرتها.

لقد خشيت الجدة من أن تتزوج أمل خطيفة من ذلك الشاب، فهي تعرف جيدًا ما يعنيه أن تلجأ ابنتها الأقرب إلى قلبها لأختها كي تخبرها عن ذلك

العريس، هذا يعني أنها متيمة به وبأنها تريده بشدة، ومن يدري لعلها تخطط للهرب معه...

"يا الله ما العمل ؟" سؤال جعل منها تعجز عن النوم بحثًا عن حل.

هناك تفصيل صغير لم تتنبه له الجدة في مقارنتها أمل ب ليلى، فالتجربة الحياتية التي عاشتها أمل مع والدتها تختلف تمامًا عن تلك التي عاشتها ليلى، فأمل تعشق والدتها وتتبعها بكل التفاصل، في طريقة الكلام، في قلّة الأحلام، في التفكير المنطقي والتحليل، حتى أنها لم تكسر يومًا كلمة لوالدتها ولم تجرحها بحرف ولم تقل "لا" لها أبدًا، بل كانت طفلة مُسالمة وشابة مُسالمة...وهو شيء نسته الجدة بمجرد معرفتها بخبر الحبيب الغريب ...

في الصباح الباكر، وبعد ليلة طالت كعشر ليالي، أمضتها أمل في البكاء على حبيبها الذي كان ينتظر خبرًا منها في الصباح، وبعد أن جفت دموعها وأشرقت الشمس، تأكدت أمل مما تريد أن تفعله، هو قرار واحد لن يتغير طيلة حياتها مهما تغيرت الشخوص والأحداث...

خرجت للفسحة السماوية واقتربت من والدتها التي كانت تجلس على كرسيها الخيزران، ثم قبلت رأسها

- ماما، أريد أن أخبرك شيئًا، من المستحيل أن أكسر كلمتك، ولن أتزوج إلا برضاك

رفعت الجدة نظرها نحو ابنتها

- لقد قلت لنفسي، هذه أمل وليس أيًا كان، أمل ... لن تخيب ظني بها أبدًا

دمشق - 1979 - ليلى

كان عليّ أن أحارب للتقديم إلى امتحان الشهادة الثانوية، فبعد مرور ثلاث سنوات على شهادة التاسع أصبحت مؤهلة للتقدم للبكالوريا، وتحقيق حلم حياتي.

لم يكن سهلًا على أن أدرس بصحبة ثلاثة أطفال ولكن الصعوبات كلها تهون بمجرد تذكري بأني قد أحصل على الشهادة الثانوية، ولأن غدير أصبح مشغولًا مع أسرته وزوجته وأولاده لم يكن هناك من يساعدني في الدراسة.

إلا أنني ورغم ذلك، كنت مصممة على متابعة دراستي مهما كلفني الأمر.

لذلك وقبل أن أحصل على موافقة عمار، اشتريت كتب البكالوريا الأدبي ورحت أدرس وحدي عند كل الفرص السانحة.

في إحد الليالي عاد عمار فجأة إلى المنزل وقبل أن أتمكن من إخفاء الكتب تمكن من رؤيتي أحملها بين يدي فاستشاط غضبًا وراح يصرخ بي بعد أن أخذ الكتاب ومزقه لأجزاء صغيرة، ثم ركض يبحث في الخزن عن كتب أخرى لتمزيقها، فاستيقظ الأولاد على صراخه، قيس الذي التزم الزاوية كعادته يبكي بصمت، وداني الذي حملته بين يدي خشية عليه، بينما راح ناجي يقفز على الصوفة الخشب ويصرخ في وجه والده مستخدمًا ألفاظًا يفهم معناها وأخرى لا يفهم معناها، كان ما يزال ناجي في السادسة من

عمره عندما قرر بمفرده أن يدافع عني وأن يقف في وجه والده . . .

وبقدر حزني على قيس الذي يأكله الخوف عند كل مرة يشتعل فيها عمار غضبًا، بقدر فخري بناجي الرجل الصغير الذي كان يدافع عني بكل قوة منذ كان طفلًا صغيرًا.

لم يكترث يومًا عمار للطفل الصغير الذي يقفز على الصوفة صارخًا في وجهه كما لم يكترث لذلك الباكي في الزاوية، ولكنه اكترث لشيء واحد فقط هو محاربتي وزرع الخوف في قلبي وقلب أولادي . . .

في ذلك العام، مزّع عمار الكتب لأكثر من مرة وشهدنا حروب كثيرة قبل الامتحان، الذي عزمت على إنهائه.

فيينا – 2023 - الغربة نعمة

لطالما عشقت حياتي في فيينا، عشقت الهدوء الغريب، الحياة التي قد تكون رتيبة ولكنها مثالية لتنشأة أسرة، عشقت سيري لساعات في وسط المدينة دون أن أشبع من جمال معمارها وعراقة تاريخها، عشقت حتى الهواء اللذيذ البارد الذي يدخل أنفي فيصل تلافيف عقلي ويبرد أفكاري المضطربة، عشقت الحدائق النظيفة والنظام الذي يأخذ مشاعري لمستوى آخر . . .

بعد أن تحدث سام كثيرًا لي عن خاله، أخبرني أنه سيعرفني به في لقاءنا القادم وفعلًا التقينا في أحد المقاهي، دخل سام ومعه رجل بقمة الرقي، شعرت بأني أرى سام ونسخة عن سام بعد عشرين عامًا يسيران معًا باتجاهي.

جلسنا معًا بعد أنْ قدّمني لخاله بصفتي زميلته في المشفى، كان يدعى محمد، وكان قد قدم إلى النمسا منذ عام 1994 كما أخبرني سام فيما مضى بعد فشل قصة حبه لابنة من الطائفة الأخرى.

عندما جلسنا، رحنا نتكلم، تكلمنا عن سوريا وهموم سوريا التي لا تنتهي، تكلمنا عن الأحداث وعن الأزمة وعن كل ما جعل من بلدنا ماهو عليه الآن، وككل المغتربين وفي كل جلساتنا مع أولاد البلد، لاشيء يجمعنا إلا الحديث عن البلد وجروحه ومشاكله. . .

لم يزر خال سام سوريا منذ غادرها بقلب مجروح، كان يعلم يقينيًا أن بلد كبلدنا لا يمكن أن يزدهر مازال الجهل يعشش في قلوب أبناءه والتعصب يتغلل في عقولهم. جاء فيينا علّه يجد في أوروبا تعويذة للنسيان، لكنه لم يجد يومًا ما بحث عنه، بل عاشت قصة حبه الغير مكتملة سنينًا في قلبه وكيانه قبل أن يفرغ مشاعره واضطرباته وضياعه بالكتابة ... الكتابة التي وجد فيها الصديق الوحيد الحقيقي في هذه البلاد الباردة...

أخذت الأحاديث من وقتنا فلم نصمت للحظة ولم نشعر بالوقت الذي يمضي مسرعًا، كان هناك ما يجذب خال سام للحديث إلي وللنظر في عيني وكأنه يعرفني أو يعرف روحي أو تقابلنا في حياة أخرى، حتى أن سام استغرب من ارتياح خاله أمامي وكأنه يعرفني منذ زمن، وعندما قلت بأنّ عليّ المغادرة وقف مودعًا إياي وفي فمه شيء يريد أن يقوله ولكنه متردد، شعرت بارتباك ذلك الرجل الستيني وتردده أمامي فسألته

- أشعر بأنك ترغب بأن تقول لي شيئًا

لكنه قال بعد شرود

- لا شيء، فقط رغبت بأن أقول بأني سررت بالتعرف إليك دكتورة حلي

ثم ابتلع ريقه بعد أن تلفظ باسمي فاختنقت الكلمات في حلقه واحمرت عيناه.

دمشق – 1992 - نهاية الحب

لقد قطعت أمل وعدًا لوالدتها بألا تلتقي محمد مرّة أخرى، والتزمت بوعدها، لذلك اتصلت بقيس الذي تحمّل مسؤولية إخبار محمد بهذا الخبر الجلل...

لم يعترض قيس على طلب خالته بل التزم بتعليماتها، وفعلا ذهب إلى محل الساعات الذي يعمل فيه محمد، دخل المحل القديم الذي لا يتجاوز عرضه متر ونصف وطوله عن مترين، في واجهة المحل يوجد طاولة خشبية يعلوها غطاء زجاجي تمتلأ فوقه معدات صيانة الساعات، مكبرة وعدسات مختلفة الأحجام.

على جدار المحل اليميني تتموضع واجهة زجاجية على طول الجدار يعرض خلفها مايزيد عن مئة ساعة مختلفة الحجم واللون، ساعات معدنية وذهبية، جلدية كلاسكية، والكثير من الساعات الملونة التي كانت موضة رائجة عند الأطفال والمراهقين.

خلف الطاولة الخشبية كان محمد يقف مشغولًا بالحديث مع بعض الزبائن، لكنه وما إن لمح قيس حتى ترك الزبائن واعتذر منهم قليلًا وأخذ قيس خارجًا به من باب المحل، وقفو عند زاوية المحل المُطل على تمثال صلاح الدين ويقابله مدخل الحريقة، نظر محمد في عيون قيس وقال "طمئني" أخفض قيس عينيه وقال

- لقد أوصتني بأن أخبرك بأن تنساها، لقد أحبتك وستحبك طيلة حياتها لكنها لن تجرح جدتي لأجل أي رجل مهما كان.

قذف قيس الكلمات التي بدت وكأنها أتعبت كاهله، رمى بحملها على محمد الذي تغيرت معالمه، ومضى مسرعًا

تلقى محمد الخبر كمن تلقى خبر إعدامه، تغيرت معالمه، وبدأ بالتعرق شاعرًا بضيق نفس مفاجىء.

عاد إلى المحل، اعتذر من الزبائن لكون الأمر طارئ، وسألهم المغادرة بتهذيب، ثم أنزل الغلق ومضى مسرعًا يحمله غضبه وتسارعات ضربات قلبه، وانكساره.

لم يعرف محمد أين يذهب، ولا لمن يتكلم، فلم يجد أمامه إلا حارات دمشق القديمة، فدخل من مدخل الحميدية، وسار في الشارع الأكثر ازدحامًا في دمشق والأكثر شهرة، شارع الحميدية الذي يمثل جزء من التراث الثقافي والتاريخي الغني لمدينة دمشق، والذي يزدحم على جانبيه بالمحال التجارية ويكتظ بالمتسوقون الذين يقصدونه من كل المحافظات السورية ومن لبنان والأردن ودول أخرى، حتى أنه مقصد للسياح بمختلف جنسياتهم والذين يذهلم السوق النابض بالحياة.

سار فيه شاردًا تأكله أفكاره حتى وصل البزورية ومنها إلى الجامع الأموي، عندما وصل إلى الساحة الشاسعة التي يطل عليها الجامع

الأموي، توقف للحظة ورفع عينيه إلى السماء وبكى، كانت أسراب طيور الحمام تملأ أرض الساحة وسماءها، بينما يستمتع المارة بإطعام فتات الخبز لسروب الحمام التي قطنت لسنين هذه الرقعة من الأرض رافضة مغادرتها، اقترب محمد من المسجد الأموي، انحنى، خلع حذائه ثم دخل المسجد الذي يعود تاريخه إلى ماقبل الميلاد بحواليْ ألف ومائتي عام.

الجامع الأموي الذي شهد تطورات مفهوم العبادة مع تطور الإنسان على مر القرون والسنين، حيث يعود تاريخ هذا الجامع المهيب إلى عهد الآراميين، وقد كان حينها معبدًا تقام فيه الطقوس الدينية، ثم تحول إلى معبد لعبادة الإله جوبيتر وهو إله السماء والبرق في الأساطير اليونانية، ليتحول بعدها إلى كنيسة في القرن الرابع بعد الميلاد تحمل اسم كنيسة يوحنا المعمدان والذي لا يزال ضريحه موجودا في قلب المسجد حتى الآن.

في العام الثالث الهجري والذي يوافق العام ستمائة وثلاثة وأربعين الميلادي قام المسلمون بفتح دمشق وتم تقسيم كنيسة يوحنا المعمدان إلى جزءان كنيسة وجامع نصفها للمسلمين ونصفها للمسيحين، فبقيت لسنين مقصدًا للمسلمين والمسيحيين يدخلونها لأداء صلواتهم المختلفة من باب واحد ولإله واحد يختلفون في وصفه، وظل الحال هكذا حتى العصر الأموي حيث أصبح المسجد الأموي جامعًا تقام فيها الصلاة للمسلمين فقط.

دخل محمد ساحة المسجد فحلّقت من حوله أسراب الحمام التي تفترش ساحة المسجد الداخلية، عابرًا بينها متجهًا نحو أحد أركان المسجد

الهادئة.

شهد المسجد الأموي حروبًا وكوارثًا وغزوات، شهد انكسارات وانهزامات وانتصارات، فمر به الملايين من المخلوقات، الملايين من بني البشر من شتّى الأجناس والعروق والطوائف، منهم من جاءه باكيًا ومنهم من جاءه محتفلًا، منهم من ينوح ويندب ومنهم من يناجي ويتأمل، منهم من يحمل قلبه ومنهم من يحمل سيفه، ولكل قناعاته التي يحارب لأجلها.

ورغم اختلافات من مروا به، ورغم اختلاف الله في أعين الناس جميعًا، إلا أنه كان إلهًا واحدًا لم يتغير في أعين وقلب هذا المسجد الذي يعلم أكثر من أي كيان آخر، أن الحضارة رغم مظاهرها لم تغير شيئًا من قلب الإنسان المضطرب والمجبول على القلق والتمرد والاختلاف . . .

اليوم هناك من يبكي في حرم هذا المسجد القديم قدم الزمان، يبكي عجزه عن الزواج بفتاة من طائفة مسلمة من غير طائفته، أي أن الإسلام ذاته تحلل وتفرع وبات فيه من العداء والتفرقة ما يفوق تصورات البشر.

صلى محمد ركعتين لله، وترجاه أن يساعده كي يتزوج أمل، وضع رأسه على السجادة العجمية التي تفترش أرض المسجد باكيًا متضرعًا لله بأن ينقذ حبه ويحقق حلمه بأن تكون أمل زوجته وأم أولاده .

غادر محمد الجامع الأموي وراح يمشي ويبكي للشوارع والطرقات همّه الكبير وحزنه وشعوره بالخذلان والاختناق واليأس، غير عالم أن هذه

الشوارع ستُبكي الأجيال القادمة بطريقة ربما أشد ألما وأكثر قسوة . . .بكى كالأطفال كارهًا كل شيء حتى الطين الذي صنع جدران هذه المدينة وأفئدة سكانها. . .

عندما حلّ الليل، وصل إلى ساحة باب توما، أوقف سيارة تكسي واتجه نحو منزل والديه، متخذًا قراره بأن يستنجد بهما.

لم يكن والدي محمد من الناس المنفتحين أو الذين سيتقبلون بسهولة زواج ابنهم من فتاة من الطائفة الأخرى ولكن ثقتهم العمياء بولدهم البكر الواعي، وكونه ذكر لا يعيبه في نظر الإسلام أن يتزوج من أي يكن، قبلوا الوقوف إلى جانبه ومساندته .

وما إن وصل إلى المنزل في ذلك المساء، حتى استقبلته والدته وأخواته فجلس بينهم على طاولة الطعام التي تفترش مدخل المنزل وراح يبكي، محمد رجل العائلة الذي لم يبكي يوما حتى في طفولته، كان يبكي على طاولة الطعـام في مدخل المنزل، بينما تطبطب عليه والدته وأخواته. . .

عندما عاد الأب من سهرته مع أصدقائه في القهوة، وجد الأم بانتظاره فأخبرته بما جرى وأقنعته بأن يذهبو لزيارة والدة أمل ويطلبوا منها رسميًا يد ابنتها، وافق الأب على ذلك نزولًا عند رغبة زوجته متجاهلًا إنزعاجه من الضعف الذي ظهر على ابنه فجأة .

اتجهت أم محمد مباشرة نحو غرفة ابنها لتخبره بموافقة والده على زيارة

أمل وأهلها غدًا صباحًا، فقفز محمد عن السرير وعانق والدته وقبّل يديها وتشكرها ثم اتصل مباشرة بقيس على الخط الأرضي الذي يحفظه جيدا والذي لطالما حدثته أمل من خلاله لساعات عند زيارتها لبيت أختها ليلى، أخبره بأن يخبر أمل بأنه سيذهب لخطبتها رسميا غدًا صباحًا مع والديه.

لم يتمكن قيس من إيصال الخبر لأمل في هذا الوقـت المتأخر من الليل لذلك همس لوالدته التي قررت أن تنطلق في الصباح الباكر لزيارة والدتها

...

وفي أحد صباحات الصيف من عام 1992، كانت سيارة قيس المازدا تشق طريقها نحو المزّة القديمة، فتوقفت بأحد مخابز المزّة، ونزلت منها ليلى التي اشترت كيلو حلو عربي وكيلو بيتيفور متجهة نحو منزل الجدة...

عندما دخلت ليلى وطفلتها حلي وقيس منزل الجدة محملين بالحلويات، استغربت الجدة قدومهم الباكر ولم تتردد في الإستفسار منهم عن سبب الزيارة الغريبة، فحكت ليلى ما بجعبتها، مما أزعج الجدة التي اضطربت وتوترت وراحت تسير في الفسحة السماوية تدمدم بكلام غير مفهوم، بينما تلحق بها أمل التي ترتجف توترًا وحماسًا في آن معًا، خوفًا وسعادة وهو شعور لا يعيشه إلا من يعيش الحب مع شخص مختلف في مجتمع لا يحترم الاختلاف ويحول كل اختلاف إلى خلاف .

طرق باب الدار الخشب، باب الدار الذي طرقته العديد من الأيادي على

مر السنين، هو باب خشبي بذاكرة من حديد، يذكر جيدًا يوم طرق في صباح من صباحات تشرين 1970، يوم جاء عمار بالشيخ ليكتب كتابه على ليلى، ويذكر العرسان الثلاث الذين تقدمو لأخوات ليلى واللاتي تزوجن وسافرن بهدوء وصمت مع أزواجهن، هو اليوم يطرق بيد عريس من طائفة أخرى، شاب جميل يرغب بالزواج من أمل التي هي أغلى وأثمن فتيات هذه الأسرة والأقرب على قلب والدتها، تساءل يومها الباب هل ياترى سترد تلك اليد خائبة؟!

استقبلت الجدة الضيوف بابتسامتها الراقية، رحبت بهم فجلسو جميعا في فسحة الدار التي لم تصلها شمس النهار بعد، راح والد محمد يُحَدِّث الجدة عن منزلها الجميل، وعن مميزات جدران هذه البيوت القديمة التي تحتفظ برطوبة البيت صيفًا ودفئه شتاء.

جلست الجدة تستمع لحديث هذا الرجل اللطيف وترمي بنظرها بين الفينة والأخرى على محمد الذي لن تنكر يومًا أنها أعجبت به وبأهله، فقد كان لها نظرة ثاقبة للأشخاص وتلك نظرة لم تخطئ يوما، ولكنها كانت تعلم جيدا أيضًا أن "من يتزوج من خارج ملّته يموت بعلته" وهذا ما شغل بالها أكثر من أي شيء آخر.

استرقت أمل النظر لعيني حبيبها الذي جلس صامتا، فرأت السواد الذي افترش أسفلهما والكآبة التي أكلت ابتسامته السعيدة، فاختنقت الدموع في أسفل حلقها ورغبت لو تصرخ وتملأ الدنيا نحيبًا . . .

وبينما هم يتحدثون، اتجهت حلي الصغيرة نحو محمد وابتسمت له، ثم قالت له "أنت حبيبها لخالتو أمل؟" خجل محمد من سؤال تلك الفتاة المباشر فابتسم لها دون أن يجيب فابتسمت له:

- لقد أخبرتني ماما، أن خالتو أمل ستصبح عروس وأخبرتي أيضًا أن ادعوا الله بأن تتزوج حبيبها

همس لها محمد:

- قولي يارب

ابتسمت حلي:

- يارب

كان يعرف محمد بعمق العلاقة التي تربط أمل بأختها ليلى وأولادها ويعرف أيضًا كم تعشق أمل هذه الصغيرة وكيف جعلت لحياة كل من في الأسرة نكهة حلوة خالصة.

في نهاية الزيارة قالت الجدة:

- لقد أحببناكم جدًا، يشهد الله على كلامي، فأنتم عائلة محترمة وأنا لن أتمنى لابنتي نسبًا ولا خلقًا أفضل منكم، لكنني أعتذر بشدة لأنني ومن المستحيل أن أقبل بــزواج ابنتي من شاب من طائفة أخرى

نظرت الجدة في عيني والد محمد ووجهت إليه سؤالًا

- هل ترضى يا أبو محمد بزواج ابنتك لشاب من طائفة أخرى؟

ولأنه رجل صادق التزم الصمت، فأعادت عليه السؤال

أخبرني، أترضى بذلك؟

زَمَّ والد محمد شفاهه وقال:

- لا أرضى

فوجهت نظرها لعيني ابنتها ثم لعيني محمد

- لقد سمعتم الجواب، وأنا أكيدة لو أن أبو عدنان – رحمه الله مازال حيًّا لكان لديه الجواب ذاته

وقف أبو محمد وزوجته وولده، وودعوا العائلة بعد أن تمنوا لها كل الخير في الحياة، وفي طريق عودتهم قال أبو محمد لزوجته وولده بأنه أعجب بذكاء تلك السيدة وبأنه تمنى حقا لو تصبح أمل كنة ولكنها العادات والتقاليد وهي أشياء لا يمكن للأفراد محاربتها . . .

شعر محمد بعد ذلك اليوم بأن سوريا وعلى كبرها ومساحتها تضيق الخناق عليه، فرغب بشيء واحد فقط ألا وهو الهروب.

في الوقت ذاته دفنت أمل حزنها في قبلها وبنت على قبره شاهدة رخامية كبيرة كتبت عليها "لا للحلم ولا للحب" وهي قناعة ستعيش معها ما بقي لها من حياة . . .

ليلى 1981 دمشق

ثلاث صبيان، هم أولادي الذي جعلو للحياة معنى آخر، وعكس والدتي التي ناجت الله كي تحصل على الصبي، كنت أناجي بدوري الله كي أحصل على فتاة، وهي متطلبات لن يفهمها إلا الله، الله الذي يستمع لمناجاتنا وهو عالم أن الرضا ليس من شيم البشر، فنحن لا نتوقف عن الطلب، ومهما أعطانا سنرغب بالمزيد مركزين في النقص فقط ناسيين كل عطاءاته...

في عام 1981، اتخذت قراري للمرة الثالثة بأن أتقدم لامتحان البكالوريا وهو الامتحان الذي لم أكمله لمرتين بسبب خلافاتي مع عمار.

في ذلك العام، ما كنت لأنجح لولا مساعدة غدير الذي عزم غدير على مساعدتي في الدراسة بذكاء لامتحان البكالوريا، فبدأ بإحضار أسئلة الدورات لي، وأخبرني أن أنسى الكتب وأن أركز في أسئلة الدورات فقط، وهكذا بدأت أتبع تعلمياته وأركز طاقتي وقدراتي في أسئلة الدورات، والأسئلة المتوقعة وهي أشياء ما كنت لأعرف بها لولا غدير الذي كان قد بدأ عمله كمدرس للتاريخ في إحدى الثانويات في دمشق فعمل جهده على مساعدتي.

حاولت أن أدرس بهدوء وذكاء دون أن يراني عمار الذي كان مشغولًا جدًا بتجارته في تلك السنين، ولكن عدم قدرتي على الحصول على إذنه بقي يشغل بالي حتى اقتراب موعد الامتحان.

وهكذا وفي أحد الأيام السعيدة عاد عمار سعيدًا للمنزل، وأخبرني بأن أحد تجار الجملة الكبار قرر أن يشاركه في تجارته فيتوسعان معًا، ولأن الدنيا لم تسعه من السعادة قرر أن يأخذنا لنتغدى في الغوطة، وفعلًا ارتدينا ملابسنا أنا وأولادي وركبنا معه في سيارتنا البيجو واتجهنا نحو الغوطة، راح الأولاد يلعبون في البستان بينما جلست بقرب عمار الذي لم يتوقف عن الحديث عن سعادته بتجارته الجديدة، وفي إحدى اللحظات بينما يضحك ويمزح، سألته الإذن بأن أتقدم لامتحان البكالوريا...

اتصف عمار بذكاء حاد وهو شيء لن أنكره أبدًا، نظر في عيني يومها، وتغيرت معالم وجهه كلها وانقلبت حالته تمامًا، التزمت الصمت وهربت من أمامه واتجهت نحو الأولاد الذين يركضون في البستان.

في طريق العودة من الغوطة وبينما نستمع لأغاني الصبوحة التي كانت تغني

" عالبساطة البساطة يا عيني عالبساطة"

قال عمار دون أن ينظر إلي

- أعتقد أنك لن تهدأي حتى تنتهي من امتحان الثانوية هذا

التزمت الصمت ولم أفهم إن وافق أم لا فالتزمت الصمت لبرهة ثم قلت

- الحمدلله، ربنا يحقق لك أحلامك وأتمنى منك أن تسمح لي بتحقيق هذا الحلم

تأفف مني ثم نطق بما انتظرت سماعه لسنين

- حسنًا افعلي ما تجدينه مناسبًا

بمجرد سماعي لتلك الكلمة، تغير الهواء الذي يرتطم بوجهي، وتغيرت مشاعري وصار لكل ما هو حولي معنى مختلف، الطريق بين الغوطة وبيتنا، أولادي الذي يجلسون بصمت في الخلف، وطفلي داني الذي يجلس بحضني، كلهم تغيروا لأن نظرتي لنفسي تغيرت في تلك اللحظة، فأنا سأحقق حلمي وسوف أترك لأولادي أن يفتخروا بي كأم ...

في ذلك العام تقدمت لامتحان البكالوريا، فانقضى بسلاسة بمساعدة والدتي التي راحت تجالس أولادي ريثما أعود من الامتحان، وهكذا تحقق حلمي وحصلت على شهادة البكالوريا الأدبي وأصبحت مؤهلة لتسجيل الجامعة.

بنجاحي بذلك الامتحان، تحسنت نظرتي لنفستي وشعرت بالرضا الذاتي وهو شعور جميل وعميق ولا يقدر بثمن، إلا أن نظرة والدتي لي لم تتغير ولم تعنيها محاولاتي الكثيرة لنيل الشهادة الثانوية ولم يعنيها طموحي المتأخر ورغبتي بالنجاح .

لقد سايرتني دون أن تشجعني ودون أن يعنيها نجاحي أو رسوبي، وهو شعور سيجرحني لطيلة حياتي .

دمشق - 1992 – لكل مشكلة حل

استغرقت الجدة في التفكير، هي تعلم الآن أن علاقة ابنتها بذاك الشاب الذي أحبته قد دامت لما يزيد عن العام وهو شيء لن تسألها عن تفاصيله، فكرامتها العالية لا تسمح لها الإعتراف بفشلها كأم أمام أمل التي اعتبرتها الأوعى والأغلى على قلبها، ثمّ كيف لم تتنبه لوقوع ابنتها في الغرام؟

كيف لم تشعر بتغيرها؟

أولا يتغير العاشقون!

لا بدّ وأنها تغيرت كثيرًا ولكنها لم تقرأ تغيراتها.

جلست الجدة حزينة جدًا تأكل الأفكار روحها المتعبة، تعيش الندم مسبقًا لأنها لم تستطيع أن تقول "نعم" لهذا الشاب الذي بدا عليه اللطف والتميز، ثمّ أنها تخشى على ابنتها من العنوسة بعد هذه التجربة، قد لا تجد من يملأ قلبها وعقلها.

ماذا ستفعل لتحل هذه المعضلة الجديدة في حياتهـا ؟

سؤال جديد راح ينهش عقلها.

ولذلك لم تنم الجدة في الليالي التي تبعت ذلك اليوم، كما لم تنم أمل ولم ينم محمد، لقد أخذ الحرّ في ذلك الصيف بالتآمر مع الأفكار المؤرقة لأولئك الثلاثة مانعًا إياهم من النوم.

وأما الحر في ذلك الصيف فقد منع قيس أيضًا من النوم، لأسباب ممتعة هذه المرة، فأمضى الليالي ساهرًا يتحدث إلى حبيبته مايا على الهاتف الأرضي.

وفي أحد الصباحات، وبعد ليل طيل من التفكير، اتخذت الجدة قرارها، فالتقت بإحدى جارتها التي تدعى أم مدين و بابنها مديّن وشربت لديهم القهوة، وبطريقتها الخاصة تغزلت الجدة بابن الجيران مدين وأخبرته بأنه عظيم الشأن والخلق وبأنها لتتمنى بأن يصاهرها، ألقت بطعمها ثم عادت لمنزلها، تاركة لمخيلة مدين ووالدته حرية التحرك لاتخاذ القرار عنها . . .

مدّين، ابن الساحل، شاب طويل مشـــورب، لكنه غير متعلم، يعمل في محل ميكانيك في المنطقة الصناعية ويكسب رزقه بعرق جبينه، وقد كان مدين لسنين معجبًا بأمل وهو أمر تعرفه الجدة جيدًا ولكنها لطالما تمنت بأن تزوج ابنتها لطبيب أو لمهندس، غير أن الأقدار العثرة شاءت أن تسعى لتزويج ابنتها لمدين طالما أنه ابن طائفتها، لم تسأل الجدة نفسها مرتين إن كان قرارها حكيما أم لا لأنها لم ترضى يومًا بالحلول الوسطى لطالما كانت متعصبة لقرارتها.

لعل الحياة صنعت منها ما هي عليه، ولعل زواجها بزوجها الطيب "رحمه الله" جعلها هكذا، ولعلها خلقت هكذا لكنها لم تتعرف على شخصيتها إلا مؤخرًا . . .

لم تنتظر الجدة لأكثر من يومين، حتى طرق بابها وإذا بها أم مدين تعود لزيارتها، وبينما هنّ يشربن القهوة نطقت أم مدين بما انتظرته الجدة طالبة يد أمل لابنها مدين، لم تبتسم الجدة ولم تعط أي رد فعل على وجهها إلا أنها قالت:

- لنا الشرف، سأشتير عدنان وأمل قبل أن أعطيك الجواب

وهكذا راحت الجدة ترسم مستقبل ابنتها دون أن تسمح لأحد في الكون بأن يجعلها تحيد عن رأيها...

عند المساء وبينما كانت تقف في المطبخ لتعد العشـاء،

دخلت عليها أمل كي تساعدها، وما إن دخلت حتى أخبرتها الجدة بأن أم مدين طلبت يدها لابنها مدين وبأنها ستوافق على هذا العريس .

ابتلعت أمل ريقها، وتخدرت حركتها، تجمد وجهها للمرة الأولى في حياتها دون أن يكون له أي رد فعل بينما راح عقلها يبكي، وقلبها يتحطم لأجزاء صغيرة، شعرت بثقل فوق صدرها وكأن بلاطة رخامية كبيرة سقطت فوقه، تركت المطبخ واتجهت نحو الغرفة لتغيير ملابسها، وهناك فقط عندما تأكدت أنها بعيدة عن والدتها، راحت تبكي وتجهش بالبكاء...

وبعد خمسة عشرة دقيقة من البكاء، مسحت دموع عينيها بينما تركت لقلبها حريته بالبكاء للأبد، ثم خرجت لوالدتها لتخبرها بقرارها ...

فيينا – 2022 - الخال محمد

حكى لي سام عن إعجاب خاله بي، كان قد قال له "هذه الإنسانة رائعة" فضحكت قائلة "يا أخي أنا قطعة نادرة " ثم خطر على بالي سؤال فرميته دون أن أفكر

- وما كان رأيه عندما قابل نور للمرة الأولى؟

ابتسمت عينا سام ونظر لي من طرفهما وكأنه يعرف لما أرمي، ثم قال:

- أذكر أنه بارك لي زواجي قبل أن تنقطع علاقتي به تمامًا لأن نور رفضت علاقتي برجل أعزب حتى إن كان خالي

هززت رأسي سعيدة برأيها الغريب، لطالما وضعت نفسي في منافسة مع هذه الأنثى التي لم أرها إلا مرة في حياتي، ولا أدري لماذا أشعر بتضائل في الحجم والأهمية عندما أتذكرها، ألأنها وفية لا تخون! أم لأنها تتشارك الحياة مع حبيبي سام بينما أتشارك الحياة مع رجل لا يراني ولا يرى بي شيئًا يدعوه للحب أو للسعادة أو للابتسام!

لا أدري ولكن الأسباب التي تدفعني للشعور بالغيرة منها كثيرة وأحدها هو حظها السعيد بالإرتباط بشخص مثل سام ينبض بالحياة، بينما كان حظي أن أتزوج من رجل لا يجمعني به أي شيء لا ماضي ولا ذكريات ولا حتى نكهة القهوة في الصباح . . .

اتفقنا أن نخرج في موعد آخر برفقة خاله محمد، فلم أعترض بشرط حصولي على نسخة من رواياته موقعة منه، وهكذا التقينا في مقهى لندتمان، وصلا قبلي للمرة الأولى فقد كانت السماء تمطر بشدة جاعلة مني أضحوكة مبللة بالمطر، إلا أنني لم أتذمر يومًا من المطر مهما اشتدّ فقد كان لارتطامه بي شعور خاص وكأني أتواصل مع الله وأتحد مع الأرض في آن معًا، جلسنا في إحدى زوايا المقهي بعد أن خلعت معطفي المبتل، وأخذنا الحديث كعادته . . .

الكلام الذي بقي عالقًا في حلق خال سام، كان هو نقطة البداية التي انطلقنا بها في حديثنا، سألته:

- لقد شعرت بأن لديك ما تقوله لي، شعرت بملامحك وقد تغيرت في آخر لحظة من نزهتنا الماضية وكأن الوحي قد نزل عليك

ضحك من قلبه ضحكته المثيرة قائلًا:

- لأنك تشبهينها كثيرًا

سألته

- أشبه من؟

أدار رأسه نحو النافذة بينما ترتطم الأمطار بالزجاج، ثم التفت إلي ونظر في عيني

- خالتك أمل

هنا ابتلعت ريقي، وعدت برأسي للخلف وكأني أتلقى لكمة

- أتعرف خالتي ؟

وهنا بدأ الحديث الذي لم ينتهي، إذًا محمد خال سام هو حبيب خالتو أمل التي رفضت جدتي أن تزوجها له فغادر سوريا بجرح بالغ في القلب دون أن يملك الجرأة للعـودة يومًا . . .

رحنا نتحدث وما ظهر بأنه يربطني ب محمد أكبر بكثير مما ربطني بأي شخص آخر في فيينا، فقد عرف إخوتي جميعًا قيس وناجي وداني، وقد حفظ عن ظهر قلب رقم هاتف بيتنا الأرضي، هو يعرف حكاية والدتي وزواجها من والدي، كما يعرف جدتي جيدًا ولأرائها الصارمة أثر عمق في حياته.

إنه حقًا فرد من عائلتنا حتى ولو لم يحظ بحظه بالزواج من واحدة من بناتنا . . .

وبينما يتكلم أمامي هذا البروفيسور السيتيني ذو الشيب الأبيض الوقور والحضور الراقي، رحت أتخيل خالتي أمل لو أنها أصبحت زوجته، تعيش في فيينا ولديها ولدين يدرسان في جامعات أوروبا، يا لحظك العاثر يا خالتي أمل! ويا لقسوتك يا جدتي! لقد دمرتي حرفيًا مسقبل ابنتك ودفنتها مع رجل غير متعلم وغير طموح، وحولتها من مهندسة يبتسم لها المستقبل

إلى ربّة منزل تسعى بكل قدرتها للعمل وتحسين ظروف أسرتها . . .

وبينما يتابع سرد ذكرياته، ذكرياته التي انفجرت أمامي كنبع من الكلام المتراكم لسنين، سنين من الصمت، رحت ألعن الطوائف كلها التي جعلت الناس يختلفون على القشور وينسون المعادن، رحت ألعن الأقدار كلها التي جعلت شعبًا كالشعب السوري يعيش ويموت خائفًا من طائفته وعليها، رحت ألعن الأقدار كلها التي لم ولن تجعلنا نستيقظ ما دمنا خلقنا في تلك الرقعة المجبولة على الإختلاف من الأرض. . .

الطائفية التي قتلتنا في 2011 وما بعدها هي ذاتها الطائفية التي قتلت قلب خالتي أمل في تسعينيات القرن الماضي ودفنت حلمها وجعلتها تذبل أمام أعين الجميع وبموافقتهم . . .

ليلى – 1982 –

ومتعة الأمومة للمرة الأولى

بعد إكمالي البكالوريا، رغبت بشدة بأن أبدأ بالدراسة في الجامعة إلا أن أولادي كبروا وبات الاهتمام بهم وباحتياجاتهم يحتل وقتي كاملًا، قيس الخجول الذي كسرته قسوة والده فبات هادئًا ولطيفًا للغاية، أكبر بكثير من عمره، ابن الإحدى عشر عامًا والذي يكاد يكون أخًا لي منذ ولد، سندي وصديقي وبيت سري.

ناجي، فرحة منزلنا، لولا وجوده في حياتي لما ضحكت، كان ما يزال في السابعة عندما بدأ بمعاكسة بنات الحارة والوقوع بغرامهن، عدا عن مغامراته التي لا تنتهي مع أصدقائه، كانت مورثات والده تجري في عروقه، كثير الحركة، منطلق بعكس قيس الذي كان نسخة مصغرة عني هادئ ومتزن ...

وأما داني فقد كان مراقبًا حذرا لأخويه الكبيرين، جميل كالبنات ولطيف، حنون وخجول وقليل الكلام، يلحق بأخويه كظلهما ولا يعرف شيئًا عن الحياة إلا ناجي وقيس حتى أنه يعتقد بأنهما والديه، لم أذكر أني عانيت مع داني بأي شيء فقد تعلم النوم وحده لأنه رغب منذ سنته الأولى بأن ينام مع أخويه، عشق المدرسة لأنهما يذهبان إليها، كما أنه تعلم الاستحمام بمفرده كما يفعلان، أحيانا أشعر بأنهما من ربياه وليس أنا ..وتلك حقيقة لا يمكن

إنكارها . . .

وكان علي أن أهتم بكل منهم، الخجول أن أشجعه على الانطلاق، المنطلق أن أوجه انطلاقه وأعلمه حسن التعامل مع الناس، الذكي أن أوجه ذكائه والغير مجتهد أن أبذل الوقت في تعليمه، كنت أعرف تمامًا ما يتطلبه كل منهم، وكنت أشعر بأنه علي أن أبني مستقبل هؤلاء الصبية لبنة فوق لبنة.

وأما عمار فقد كان موجودًا بمشكلاته طبعًا، بالمشاكل التي يخلقها أسبوعيًا، ولكنه لم يكن يومًا موجودًا كقدوة، كسند أو كأب. . .

ترك لي مهمة أن أكون الأم والأب باستثناء واحد وهو تكاليف الحياة التي كان مسؤولًا عنه بالكامل. . .

يقولون بأنّ التربية قادرة على تغيير المورثات إلا أنني ومن خلال تجربتي في الأمومة، وجدت أن المورثات وحدها من يحرك أولادي فتصنع منهم نسخًا مصغرة عن والدهم وربما عني، نحن عبارة عن مزيج من المورثات المتنافسة، والتي سيسيطر أحدها على الآخر مع تبلور شخصياتنا، أما التربية فقد يكون لها دور ما في أفكارنا وقناعاتنا، لكننا مهما فعلنا سنبقى عبيد للمورثات . . .

وفي عام 1982، كان عمار يعيش أجمل سنين حياته المهنية، لقد أصبح غنيًا وميسور الحال مما زاد من جماهيريته بين أقاربه والجيران، فاستمر

منزلنا بكونه فندقًا لكل من يقصد دمشق لدراسة الجامعة أو بحثًا عن عمل.

وفي ذلك العام بالتحديد أهداني الله أجمل هداياه على الإطلاق .... تمامًا في 31 آب 1982

المزّة – 1992

في 31 آب من عام 1992، أحد أكثر أيام الصيف حرارة، وتمامًا عندما كان المؤذن في الجامع القريب من منزل الجدة في المزة ينده على المصلين "حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح"، استيقظت الجدة، توضأت وصلت صلاة الصبح وراحت تدعو لابنتها أمل.

كان عليها أن تقوم بالكثير من الأعمال في ذلك الصباح، فتحت باب خزانتها الخشبية، أخرجت منها علبة من كؤوس الكريستال كانت قد خبأته لعرس أمل، كما أخرجت دزينة الصحون الروميو والجولييت، أخذتهم نحو المطبخ، غسلتهم جيدًا، جففتهم ووضعتهم جانبًا.

كانت مشاعرها تتقلب بين الرضا وعدم الرضا، هي التي لم تتردد في شيء ولطالما كانت حازمة بكل شيء، إلا أن قرراها اليوم لم يكن واضحًا لقلبها وضوح الشمس فبقيت محتارة ومشغولة البال طيلة النهار.

لم تنم أمل في تلك الليلة، فقد جافاها النوم منذ أيام، ورغم سماعاها للضجيج الذي صدر عن تحركات والدتها إلا أنها فضلت أن تدفن رأسها في المخدة وأن تدعو الله بأن ينهي هذا الكابوس ...

في الوقت ذاته، في منزل ليلى، كانت ليلى قد استيقظت مبكرًا أيضًا وراحت تغلف المزيد من الصحون والكؤوس والملاعق، وجهزت حقيبة السفر، ثمّ أيقظت أولادها لتناول طعام الفطور.

وفي تمام الساعة السابعة، انطلق قيس مع والدته، أخوه ناجي وأخته حلي في سيارتهم متجهين نحو منزل الجدّة.

إنه صباح اليوم الذي لن تنساه أمل في حياتها كلها، ولعله اليوم الذي ستتمنى لو تنساه للأبد أو ربما سيتحول ليوم عادي مشابهًا لكل أيامها فتنسى مشاعرها المضطربة، ضياعها وضعفها.

قاد قيس السيارة المتجهة من دمشق إلى اللاذقية وعلى يمينه تجلس والدته وفي حضنها تجلس ابنتها حلي، في الخلف تجلس الجدّة، أمل ومعهم داني، لم ينبس عن أي منهم أية كلمة وبصمت مطلق انطلقو في السيارة التي أقلّت أمل نحو قدرها الذي لن تتمكن يومًا من الهرب منه ...

تقرر عقد قران أمل على مدين في بيت الضيعة، الذي تتسع فسحته السماوية للمعازيم، كما سيتمكن أخوات أمل وليلى وأسرهن من حضور العرس بينما سيلتحق بهم عدنان من ثكنته العسكرية.

لم يكن في تلك السيارة التي تسير بهدوء على اتستراد الشام اللاذقية ما يبعث على السعادة، الجدّة تدعو لابنتها بالسعادة بصمت، ليلى تأكل نفسها حزنًا لعجزها عن تغيير قدر أختها، قيس راح يحدث نفسه عن حبّه لمايا قاطعًا على نفسه الوعود بأن لا يفرقه عنها أي شيء في الكون، داني كان شاردًا في النافذة.

الشخص الوحيد الذي كان سعيدًا بتلك الرحلة هو حُلي التي كانت تطير

من الفرح بينما تجلس في حضن والدتها فتحيط بها ذراعيها، وتنظر حولها لتجد وجوه كل من أحبتهم يومًا وأحسّت بالأمان بقربهم، متجهين إلى الرقعة الأحب إلى قلبها من الكون وهي اللاذقية.

وأما ناجي فقد كان آخر من علم بأن خالته ستتزوج من رجل آخر غير حبيبها محمد، وفي مكالمته الأخيرة لوالدته في مساء الليلة السابقة سمع بالخبر فجنّ جنونه حتى كـاد يخرج من سماعة الهاتف صارخًا

- أفقدتم عقلكم! كيف تدمرون خالتي بهذه الطريقة

ولذلك وتمامًا بعد أن أغلق مكالمته مع والدته، اتخذ قراره بأن يمنع هذا الزفاف مهما كلّفه الأمر ...

وصلوا بيت القرية في جبلة، في تمام الساعة الحادية عشر تمامًا، أوقف قيس السيارة في الممر الترابي قائلًا "الحمدلله على سلامتكن".

كان الطقس في الساحل السوري حارًا للغاية وشديد الرطوبة، بمجرد نزولهم من السيارة تجمعت ندف الرطوبة والعرق على جبين كل منهم.

"لن يكون يوما سهلًا" قال قيس لنفسه، بينما ركضت حُلي مسرعة للعب في بستان المنزل الذي تحفظه عن ظهر قلب وتعشق كل شبر فيه ...

سأل قيس جدته الإذن بالاستحمام، بينما أخرجت ليلى الكراسي الملونة من داخل الدار ووزعتها في فسحة الدار السماوية والتي تظللها عريشة عنب خضراء اللون، تظلل الفسحة وتزينها بعناقيد العنب الأبيض التي

تدلـــت شهية وناضجة .

كان منزل الجدة أحد الأماكن الأكثر غلاوة على قلوب أحفادها، ففيه يجتمعون عادة في الصيف ويسهرون تحت ضوء القمر، يغنون ويضحكون حتى الصباح، ناسين الهموم والمشاكل والمعاناة ومستمتعين بالإجازات الصيفية القصيرة التي كانوا يمضونها في هذا المنزل، فسحة الدار الكبيرة المعتقة بالذكريات كانت كبيرة بما فيه الكفاية لتتسع للمعازيم في حفلة اليوم، يطل البيت عليها من جهة بينما تحيط بجوانبها الثلاثة الباقية أشجار السرو العالية، وبين أشجار السرو كانت قد زرعت الجدة الكثير من الأشجار المثمرة، شجرتا جوز، نحت على جذع أحدهما عشرة أسماء هي أسماء أحفادها يعلوهم اسم عدنان أصغر أبناء الجدة ويتبعه اسم قيس وناجي وتتالى الأسماء في طقس سيمارسه كل حفيد يزور ذلك المنزل مؤرخًا بأن طفولته عبرت من هنا، في ذلك الصيف بالذات ستحفر حلي اسمها على شجرة الجوز تلك تحت لائحة أسماء أخـوتها وأولاد خالاتها.

بقرب شجرة الجوز، توجد شجـــرة الأكي دنيا التي تشارك في تناول ثمارها كل زوار المنزل سواء كانوا بشرًا أو مخلوقات أخرى كالعاصفير الذين ينقرون الثمار غالبًا قبل أن تصل إليها عصى الجدة الخشبية الطويلة والتي تستخدمها عادة لقطاف الايكيدنيا، وتحت الشجرات ستجد الكثير من الأواني الحجرية التي زرعت بكل أشكال الورود، من الجوري إلى فم السمكة بلونيه الزهري والبنفسجي ومعهما الكثير من نبات السجاد الذي

اشتهرت به تلك المنطقة فزين كل منازلها.

في الطريق الترابي الذي يصل الطريق العام بالمنزل وفسحته السماوية، زرعت الجدة الحبق ونبتة الشاب الظريف التي تتفتح بالليل وتنام في النهار ... كما زرعت شجرة تين في الصيف الماضي وشجرة زنزرخت.

لشدَة تعبهم، بعد أربع ساعات من السفر، توزعوا على الكراسي المطاطية ملتمسين نسمة هواء ضائعة تبرد عرقهم وترطب قلبهم، إلا أمل التي قررت أن تقتل الوقت بتفريغ الحقائب...

فيينا - 31 آب 2022

سوريا ... أشعر دومًا بأن كل سوري في هذا الكوكب هو ولدي ووالدي وأخي، كل تلك الوجوه الجميلة التي أثقلها الحزن فتآكلت ملامحها هي وجوه أهلي... كل صور السوريين التي ملأت الأخبار على مر السنين، من مهاجرين إلى ثائرين، ضباط وعسكريين، كلّهم على اختلاف طوائفهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، جميعهم على اختلاف الأطراف التي يقاتلون معها أو يدعون لها بصمت هم أهلي ... جميعهم...

اليوم وبعد عشرة أعوام على بدء الحرب في سوريا عاد ليجمع السوريون شيء جديد - يضاف إلى لائحة الأشياء التي جمعتهم على مر السنين- ألا وهو الخديعة ..

لقد خُدعنا جميعًا، من كان مؤيدًا ومن كان معارضًا، من استشهد ومن لم يستشهد، اليوم جميع من هم في سوريا يجمهم حلم واحد هو الهرب، الهرب خارج حدود الوطن الذي الْتَهَم سنينهم ولم يبقي في معالـــــم وجههم إلا على الأخاديد ... أخاديد الفقر، الحزن والخذلان ...

كنت أجلس مع سام في أحد المقاهي، أحدثه عن أفكاري عن سوريا وأهلها، وللمرة الأولى جلسنا متقاربين جدًا ... في كرسيين متجاورين لا متقابلين ورحنا ننظر إلى نافذة المطعم الزجاجية الكبيرة، نتابع تحركات السياح والمارة ونتحدث، لقد أصبحنا أكثر من صديقين حتى أنّ اقترابه مني

بات يريحني ويجعلني أشعر بالامتنان والاطمئنان لانتمائي لهذا الرجل السوري الجميل، لقد مضى على صداقتنا ما يقارب السنة ولعلنا أصبحنا أكثر بكثير من صديقين.

وبينما أحدثه دون توقف، اقترب النادل مننا وراح يغني لي " Happy Birthday"، إنه عيد ميلادي، لم أكن قد نسيت يومًا عيد ميلادي ولكنني يومها تحديدًا كنت أشعر بهدوء غريب جعلني أنسى حتى التخطيط لعيد ميلادي، ذلك العيد الذي يشغل عادة الكثير من أفكاري ومخططاتي، لعلّ وجود سام في حياتي جعلني أكتفي به وأنسى المتع العابرة، ضحكت من قلبي لرؤية قالب الكيك الصغير المغطس بالحليب والمزين بالفراولة، وشعرت بأني مراهقة يحتفل حبيبها بعيد ميلادها، إلا أنني أنضج مراهقة في الكوكب.

وقفت ورحت أغني مع النادل ووقف معي سام ورحنا نغني حتى أني بدوت أغرب محتفلة بعيد ميلادها في العالم بأسره، ثم عانقت سام عناقًا خميميًا وألتصق صدري بصدره وخدي بخده دون أن يعنيني وجودي بين الناس في قهوة عامة ..

بعد انتهاء وصلة الغناء، أعطاني سام الهدية التي كان قد خبأها تحت الطاولة، وعندما فتحتها وجدت المجموعة الكاملة لروايات (أليف شافاق)، كاتبتي المفضلة، والتي لم أتمكن من إيجاد رواياتها المترجمة للعربية بسهولة في مكاتب فيينا، إلا أن سام تمكن من الوصول للكتب جميعها

بمساعدة خاله.

أسعدتني تلك الهدية وفرحت بها كفرح طفلة بلعبة باربي، فرغبت بالعودة مباشرة إلى المنزل للبدء بالقراءة، ضحك سام على لهفتي وفرح برد فعلي وقال لي أن نمشي بعد تناول الكيكة كي لا أتأخر على موعدي مع (أليف شافاق)، ضحكت له، ورحنا نتناول الكيك.

بينما ابتلع لقمتي الأولى قال لي:

- لقد أحبك خالي

- وأنا أحببته أيضًا

- لقد قال لي "إياك أن تفقد هذه الإنسانة الجملية"

تجمد الدم في عروقي، تذكرت بأني متزوجة أي مكتوبة جسديًا وروحيًا باسم رجل آخر، وهناك من يفكر بألا يفقدني، أنا أصلًا لست متاحة كي يفقدني أحد . . . ابتسمت له ابتسامة مجاملة والتزمت الصمت . . .

وجهة واحدة اللاذقية - 1992

جنّ جنون ناجي لمعرفته بأنّ خالته ستتزوج من مدين، فانطلق منذ الصباح في الباص المتجه من حلب نحو اللاذقية محاولًا بدم الشباب الذي يملأ عروقه بأن يمنع هذه الحماقة من الحدوث، عاجز تمامًا عن فهم عقول هؤلاء البالغين، والدته، جدته، الناس جميعًا الذي قبلوا أو سيقبلوا بزواج كهذا ...

خالته الجميلة والذكية أمل التي تنبض بالحياة والحب، ستتزوج من معلم الميكانيك، الجار الغليظ الذي لم تتحمل طيلة حياتها أن تتكلم معه للحظات كي تتحمل أن تعيش معه لعمر كامل ...أي جهل هذا .؟!..

اندفع الأدرينالين في عروقه فركب في باص الهوبهوب عازمًا على منع هذا الزواج، كان الباص المتجه من حلب إلى اللاذقية يمتلأ بالركاب، وكان الجو حارًا جدًا والعرق يتصبب من ناجي وكل من هم يركبون معه في باص الهوبهوب ذاك، ولكنه لم يكترث للحر بينما يرسم سيناريو للأحداث التي سيقوم بها ريثما يصل، كيف سيمسك خالته من يدها ويخطفها من العرس ويخرج بها من المنزل لتجد محمد بانتظارها خلف صف أشجار السرو ويهربان معًا.

لقد تحدث إلى محمد مساء أمس بعد أن استعان بأحد أصدقائه في دمشق وأخبره بأن يذهب إلى محل الساعات الواقع على الزاوية مقابل تمثال

صلاح الدين وأخبره أن يعطي رقمه في حلب لمحمد، وفعلًا اتصل محمد ب ناجي فور حصوله على الرقم ورغم واقعيته وعقلانيته إلا أنه وافق على لقائه في اللاذقية وهكذا سافر محمد إلى اللاذقية للقاء ناجي واختطاف أمل . . .

وبينما هناك ناجي المندفع المجنون في الباص المتجه من حلب نحو اللاذقية كان هناك محمد العقلاني في الباص المتجه من دمشق إلى اللاذقية، باصان والوجهة واحدة، شابان بالاندفاع ذاته، مع فرق كبير في سلوك وتفكير كل منهما، فمحمد يعرف تمام المعرفة أنه لن يتمكن من القيام بفعل كهذا كما يعرف تمامًا أن أمل لن تقبل بمجاراته حتى إن حاول القيام بما يمليه عليه قلبه، لذلك قبل بالسفر لسبب وحيد وهو أن يلقي نظرة أخيرة على حبيبته قبل زواجها وكي يكون الجرح بالغًا في قلبه وكافيًا لدفعه للسفر ومغادرة سوريا دون عودة .

ليلى 31 اب 1982 وروح جديدة

في أحد أشد الأيام حرًّا في آب، وضعت ابنتي حُلي في المشفى الفرنسي في دمشق، كنت أتصبب عرقًا وأختنق لسماكة الهواء وجفافه، كانت أختي أمل تمسك بيدي، بينما تحاول ممرضة راهبة مساعدتي في الولادة لانشغال الطبيب بثلاث نساء أخريات يلدن في الوقت نفسه . . .

بني المشفى الفرنسي منذ أيام الاحتلال الفرنسي 1904، وقد عد لسنين واحدًا من أهم مستشفيات دمشق، ولذلك قررت أن ألد حلي في المستشفى وليس على يد قابلة قانونة كما كان الحال في ولاداتي السابقة لصبياني الثلاث.

لم تكن ولادة حلي سهلة بل ككل الولادات، إلا أن ترقبي لولادتها فاق كل الآلام، ففي اللحظة التي وضعت فيها الممرضة الطفلة على صدري وسمعت صوت نفسها قرب رقبتي، نسيت كل ألم وتوجت نفسي أمًّا لأجمل المخلوقات وأكثرها نبلًا وهن الفتيات.

عندما عدنا للمنزل في ذلك اليوم، كنت لا أزال متعبة من الولادة فحملت أمل ابنتي وصعدت بها درج المنزل حيث كان ينتظرنا أولادي، وعندما شاهدوها تحمل حلي، قالت لهم:

- هذه ابنتي، تعالوا تعرفوا عليها، اسمها حلي

اندفعو يراقبون الطفلة التي تحملها أمل بين يديها، والتي كانت فعلًا

بمثابة ابنة لها وربما أكثر.

كان ذلك العام من أجمل الأعوام في حياتي، وضعت صبياني على السكة الصحيحة على صعيد دراستهم واهتماماتهم، بينما انشغل عمار بعمله الكثير الذي ازدهر كثيرًا في ذلك العام، حتى أنه بات يسعد بدعوتنا أسبوعيًّا إلى المطاعم في بلودان وعين الفيجة مستمتعين معه بأغاني الصبوحة على الطريق وأغاني فيروز ونجاة الصغيرة، وبينما هم جميعهم يكبرون حولي رحت أعيش أنا أمومة بنكهة خاصة فقد اقتربت من الثلاثين، ربما نضجت نوعًا ما أو فهمت الحياة بطريقة أخرى ولعلني أصبحت خبيرة بالأمومة، فوجدت بابنتي صديقة ولعبة وهدية إلهية، وهكذا كان العام الذي ولدت فيه حلي من أجمل الأعوام في حياتنا جميعًا...

فخلقنا معها طقس جديد في المنزل وهو عيد ميلادها. فبات عيد ميلادها مناسبة نحتفل فيها جميعًا ونلتزم بها عامًا بعد عام.

أعد الكيك والحلوى، التبولة الفواكه والمسكرات، اللحم بالعجين والفطاير ونجتمع جميعًا للاحتفال بعيدها، حيث تنضم إلينا الجدة وأخواتي وعدنان الذي كان يشكل مع قيس وناجي جماعة واحدة(شلة) يستمتعون بصحبتهم برعاية خاصة من أمل التي تكبرهم بعام أوعامان إلا أنها أوعى منهم بأجيال. ويرافقهم كظلهم داني الذي ينظر إليهم بإعجاب مقلدًا إياهم بكل ما يفعلونه، وفي كل أعياد الميلاد والمناسبات كان ناجي محور الحفلة، يجهز أشرطة الأغاني ويبدأ بالرقص والدبكة دافعًا بنا جميعًا

للضحك دون توقف، ثم يلتقط لنا صورًا بالكاميرا التي اشتراها عمار له والتي تطبع الصور مباشرة بعد التقاطها ...

العرس – 31 أب 1992

في مطبخ منزل القرية المعتم الذي لا تدخله الشمس إلا من نافذة صغيرة تظللها أشجار الليمون مانعة حتى شعاع الشمس من أن يدخل نحو المطبخ، كانت أمل تقلي البطاطا على غاز صغير بالمقلاة السوداء التي استعملت وستستعمل لسنين قادمة دون أن تعطيها الجدة الإذن بالتقاعد.

وبينما كانت تقلي البطاطا، جلست أخواتها الأربع في الصالون تتساعدن في تقطيع البقدونس لإعداد التبولة بينما انشغل قيس وعدنان الذي وصل من حمص بشواء الدجاج في البستان.

لم يبد على أمل أي ملامح تدل على أنها عروس... أية عروسة هي تلك التي تنشغل بقلي البطاطا في زيت الزيتون يوم عرسها؟!

كانت تخدر روحها بالأبخرة المتصاعدة من زيت الزيتون المحترق، فانتشرت زيوته العطرية المعتقة بأبخرته المقدسة في فضاء المطبخ الضيق، لطالما قيل أن زيت زيتون لا يصلح للقلي، لسرعة تبخره ولكن من يقنع أبناء الساحل الذي يزرعون الزيتون بأن زيته لا يصلح للقلي ؟ حتى أنّ من كبر على نكهة زيت الزيتون في القلي لن يرضى ببديل له مهما كان لذيذًا أو صحيًّا...

امتلأ المنزل بأحفاد الجدة، وبينما انشغل كل منهم بأمر ما، اتجهت الجدة بصمت نحو قبر زوجها، الذي دفن قبل عامين ونصف في بستان هذا

المنزل، تمامًا بين شجر الليمون، جلست على صخرة بقربه وللمرة الأولى شعرت بأنها تشتهي الموت لترتاح من هذه الحياة، فها هي تقرر مصير ابنتها لشدّة خوفها عليها من المستقبل، فتحرمها من الزواج بحبيبها.

نظرت إلى القبر وراحت تحدث زوجها عن همومها

.

- يا الله يا أبو عدنان، لم أعش ولا يوم مرتاحة البال، لا قبل زواجي بك ولا بعد زواجي منك، عشت سنيني كلها وأنا أركض، أركض للحاق بمواسم الزيتون والليمون، أركض لبيع المنتجات على الاتستراد، أركض كي أرزق بصبي، أركض لتربية البنات، وآه من البنات وهمومهن التي لن تنتهي، وهم عدنان الذي كان أكبر من هموم أخواته حتى. نسيت أن أخبرك أني أرسلت وحيدك إلى الكلية الحربية، لم اتجرأ على إخبارك وأعرف كم تكره الجيش وحياة الجيش، لا تسألني كيف فعلت ذلك، أنت لست هنا لتشعر بي، أساسًا حتى في حياتك لم تشعر بي لتشعر بي الآن بعد أن مت. آخ يا أبو عدنان، لا أدري إن كنت قاسية ولا أدري إن كنت مخطئة بما أفعله مع الأولاد، وأن أخاف حقًا من أن تتهمني أمل بتدمير حياتها أو أن يكرهني عدنان لأني أجبرته بالالتحقاق بالجيش، لم يعنيني شيء في حياتي كإسعادهم، أتراني سأندم يا أسعد؟! أنت لم تفعل شيئًا في حياتك يدعوك للندم ليش لأنك ملاك بل لأنك حيادي وتركت الحياة تجري وأن تشاهدها عن بعد، وحدي أنا من قررت وعملت وحاربت.

وصل ناجي ومحمد إلى مدينة جبلة، استقلا تاكسي لتقلهم إلى القرية، لم

يزر محمد يومًا قرى اللاذقية وكانت تلك زيارته الأولى لذلك المكان الذي ورغم جماله لم يتمكن من رؤية شيئًا فيه يدعوه للتفاؤل.

توقفت السيارة التاكسي التي كانـــت تقلهم، تمامًا أى جانب بستان الليمون الذي شيدت الجدة حوله منذ سنين صفًّا طويلًا من أشجار السرو لتحدد حودو أرضها أولًا ولتحمي بستانها من المتطفلين ثانيًا.

طلب ناجي من محمد الانتظار قرب إحدى أشجار السرو البعيدة عن مدخل المنزل

- سأعود إليك حالا، انتظرني هنا وانتبه أن يراك أحد

عبر ناجي مسرعًا بستان الليمون والممر الضيق الذي يصل الطريق بفسحة المنزل، اجتاز عدنان وقيس المشغولان بالشي إلا أنه لم يلقي عليهما السلام واتجه مسرعًا نحو الفسحة السماوية حيث وجد أولاد خالاته جميعًا في فسحة الدار، لم يكترث لأحد ولم يلقي سلامه على أحد وتابع سيره متجهًا نحو المطبخ ...

فيينا – أربعين اللهفة

الأربعين، أجمل عمر للمرأة، أنا في الأربعين اكتشفت أماكن القوة بداخلي.

وفي الأربعين اكتشفت أن أبشع امرأة قادرة أن تحرك جيشًا من الرجال.

وفي الأربعن شعرت بأنوثتي لأول مرة، شعرت كم أنني جميلة، فازداد إحساسي بنظرات المعجبين

وفي الأربعين تغيرت قناعاتي كلها، وأصبحت مخلوقًا مختلفًا تمامًا، صرت شخصًا يعشق ذاته، ولا يعنيه رأي أحد فيه.

وفي الأربعين اقترفت هذا الفعل الحلو، وخنت شريكي بكل رضا وسلام داخلي.

كم جميل هو عمر الأربعين...

عدت للمنزل بقمة السعادة وأنا أحمل روايات أليف شافاق، كنت على موعد مع السعادة الغامرة، وضعت الكتب في زاويتي الخاصة في غرفة النوم، بالقرب من النافذة الزجاجية الطويلة المطلة على الشارع، حيث صنعت لنفسي ركنًا للقراءة، كنبة بنية اللون جلدية مريحة ولامبدير "ضوء" ذهبي اللون طويل وفي الجدار المحاذي للنافذة وضعت مكتبة خشبية عمودية وطويلة، كنت قد رتبت عليها جميع الكتب التي قرأتها منذ قدومي

ل فيينا والتي سأضم إليها مجموعة أليف شافاق، أفرغت رفًّا للمجموعة الجديدة ثم عدت لأولادي لأجلس معهم، كان زوجي في طريقه نحو المنزل يحمل قالب الكاتو للاحتفال بعد ميلادي، وكان أولادي قد رتبوا غرفة الجلوس احتفالا بي ، ورتبوا طاولة الطعام بعد أن أضافوا لها الصحون والمعالق الذهبية اللون، ولأنني أعيش سعادة بنكهة مختلفة أخبرتهم بأن نطلب البيتزا عوضًا عن تحضير العشاء.

في انتظار الديلفري "رجل التوصيل" رحنا نرقص على صوت الأغاني الدارجة على قناة اليوتيوب، ساعة كاملة من الرقص أوقفها وصول الديلفري وزوجي معًا، كان يحمل قالب كيك وهدية اشتراها دون أن أرافقه كعادتي، لعله تنبه لبرودي وعدم اكتراثي، فلم يسألني مشاركته في اقتناء هدية.

كنا قد أفرغنا كل طاقتنا بالرقص، فلم نملك إلا القليل من الطاقة صرفناها في تناول البيتزا ثم تقطيع الكيك قبل الخلود للنوم.

وبعد أن خلد الأولاد للنوم، رحت أرتب السفرة فتقدم زوجي نحوي وحاول مساعدتي، كان يرتدي بيجامة صيفية كحلية اللون كنت قد أهديته إياها منذ سنتين ورفض ارتدائها لأنها لم تعجبه، استعجبت من ارتدائه لتلك البيجامة، وبعد أن انتهينا من ترتيب المطبخ وغرفة السفرة بصمت، سألني عن رغبتي بحضور فيلم معه على نتفليكس، نظرت في عينيه واستغربت جدا فلماذا لا يتركني أنتهي من الترتيب وأختلي بإحدى روايات أليف شافاق، أتراه شعر بأنه على وشك خسارتي فقرر أن يفعل شيئا لينقذ

علاقتنا ؟

أم أنه اشتاق لي، لم أزح نظري عنه بينما شردت بأفكاري فرميت السؤال

- أي فيلم تريد أن تتابع؟

- فيلم جديد ل جوليا روبرتس وجورج كلوني .

- أوه أكثر بطلين أحبهما، قلت لنفسي ثم أجبته ب أوك

بعد سنتين وربما أكثر من الجفاء العاطفي والنفسي الذي عشته مع زوجي، قرر أن يشركني بحياته فنحضر فيلمًا معًا، أعددت كأسا من الشاي وجلست على الكنبة فسألني أن أجلس بقربه

- لا ضرورة لذلك أنا مرتاحة هنا

- أرجوك تعالي – أصر

حملت كأس الشاي وجلست بقربه وشعرت وكأني أجلس مع غريب.

غريبة مشاعرنا، كم هي مضطربة وتحتاج لمن يشخص علاتها، فأنا أشعر بالغربة بجانب جسد زوجي بينما أشعر بالانتماء لرجل آخر غريب لم يجمعني به إلا القهوة وسوريا في أكثر الأحوال، أخجل أن أعترف أني شعرت بخيانة سام باقترابي من زوجي.

حالما انتهى الفيلم دخلت للنـــــوم دون أن أستجيب لملاطفات زوجي التي لم أفهم غايته منها، تبعني إلى غرفة النوم ونظر عابسًا بعيني

- مابك، لا يعجبك شيء هذه الأيام

التفتُّ نحوه

- كل شيء أعجبني، شكرًا لك

رفع صوته

- زوجك يحاول الاقتراب منك بينما تنفرين منه!

- حبيبي، أعتذر أني لم أفهم أنك تحاول التقرب مني، أعتذر عن جهلي، فأنا لست معتادة إلا على تجاهلك

- اسألي نفسك لماذا أتجاهلك!

- سألت نفسي ووجدت الجواب، ورضيت بقدري، فلا تحاول فجأة أن تغير تصرفاتك وتنتظر مني أن أسعد بها

رفع صوته أكثر

- يبدو أنك فقدتي عقلك، وليس هناك ما يرضيكي

توترت من صراخه

- أرجوك لا ترفع صوتك فالأولاد نائمون

لم يستمع لي وراح يصرخ أكثر وأكثر إلى أن وقفت في وجهه وحدقت في عينيه

- بترجاك لا تصرخ، لا تصرخ

رمقني بنظرة غاضبة وغادر الغرفة.

تسارعت نبضات قلبي وارتجفت يداي فشعرت بثقل في رأسي، وضعت رأسي على المخدة وأغلقت عيني، حاولت النوم فتذكرت خلافات ماما وبابا، تدنَّى إلى سمعي صدى صوت صراخ بابا، كعادتنا في بيتنا في دمشق، في منتصف الليل وبعد أن ننام نستيقظ على صراخه لأسباب مختلفة وكثيرة، ليس هناك أقسى وأكثر إيلامًا من استيقاظك المفاجىء وأنت طفل على صراخ والديك، الجرح الذي يخلفه شعور كذلك لن يندمل مهما حاولت تجميله، تذكرت وجه والدتي وهي تسارع لاحتضاني كي لا أخاف وكي لا أبكي، بينما يدخل في المعركة إخوتي الشبان جميعهم عدا داني الذي لطالما جلس يتابع الخلافات كمن يتابع مباريات لا يشجع أيا من طرفيها بوجهه الخال من التعابير، إلى أن يمّل من المشاهدة فيعمد إلى إنهاء المباراة بصفارته الخاصة، وهكذا كان لداني وعند كل مرة قدرته الخاصة على إنهاء الخلافات بحمل أحد قطع الأثاث الثقيلة ورميها في منتصف الصالون، فينتشر الزجاج وينسحب بابا بعد أن يقول " تفضلي، لقد جن أولادك بسببك" متهما والدتي بأنها سبب جنوننا، فتتجاهل والدتي كلامه بينما تسارع لتنظيف الزجاج، بينما نحوم بقربها جميعًا إلى أن نتأكد من دخولها للنوم في غرفة أخوتي التي أصبحت غرفتي بعد أن تزوجوا أو سافروا.

لم أرغب يومًا بأن يعيش أولادي الأجواء التي عشتها كما لم أرغب بأن أخلق في قلبهم الجرح ذاته ولكنني وعلى ما يبدو سأخلق لديهم جرحًا من نوع آخر وهو جرح سأكون وحدي متهمة بصنعه . . .

دمشق، ليلى – الثمانينات

لم أفكر يومًا بالأثر الذي ستتركه علاقتي بزوجي في نفوس أولادي، لعل متطلبات الحياة، سرعتها، الأمومة المبكرة التي اختبرتها، الهموم الصغيرة الكثيرة التي عشتها، جعلتني عاجزة عن التفكير بالأثر البعيد للأمور التي مرت في حياة أولادي وتأثيرها في نفسياتهم.

هناك ناجي الصاخب واللطيف الذي يحاول جاهدًا أن يبدي عدم اكتراثه لكل الحروب العائلية التي نعيشها، فيضحك كثيرًا ويخلق الفرص للفرح بشتى الوسائل، لقد بدأ الآن بسن المراهقة فأصبح يعبر لي عن أمنياته بالحب والارتباط بامرأة مثلي، هو معجب بي كأم، يقترب مني عندما يكون بمزاج سعيد ليهمس في أذني

- عندما سأبحث عن زوجة، أريد امرأة مثلك يا ماما، قصيرة وممتلئة وجميلة

ثم يضحك ضحكته الصاخبة وكأنه سمع نكة للتو ويغادر المكان مسرعًا قبل أن أشكره على حبه لي.

وهناك قيس الناضج منذ خلق والكبير منذ نعومة أظافره، هو يخجل أن يتكلم عن الحب إلا فيما ندر وإن تكلم فهو يصف الفتاة التي يتمناها بالطويلة والنحيلة والقوية، ومن الواضح بأنها لا تشبهني بشيء، وهو ما أبرره بالمعاناة التي عاشاها بقربي فقد كنت بدأت أمومتي له وأنا طفلة،

وأعترف بأنني لم أكن لا في عمر ولا في موقف يساعدني على درء ظلم والده عن كلينا، ولعله رأى فيني الضعف الذي يكرهه ويهرب منه، لذلك هو يريد امرأة طويلة ونحيلة والأهم من ذلك قوية.

وهناك داني الذي يكره الصراخ حتى أنه يكره الكلام أيضًا فيمضي معظم وقته بالاستماع للأغاني أو كتابة مذكراته، إنه يعشق الجلوس في المنزل ويصعب عليه حتى تشكيل الصداقات. لعلّ لوجود أخويه في حياته دورا في اكتفائه بهما وعدم رغبته بأي صديق آخر، هو المراقب العام لما يمر به المنزل من عواصف ومن مهرجانات، لطالما أكثر من انتقادي وفي الوقت ذاته لطالما منعنا من انتقاد والده بشيء، أخذًا في الدفاع عنه.

وأما حلي فلعلها أكثر ما يعنيني رأيهـــا، لأنها ابنتي الوحيدة والتي أخشى ما أخشاه أن تقسى علي بانتقادها، فلا تُقدر ما بذلته من جهد لجعلها تعيش الحياة التي تتمناها، غيّرتني حلي، فلأجلها وبدعمها غادرت غرفة نومي وصرت أنام في غرفتها، لقد شجعتني بأن أمتلك الجرأة فلا أدع لرجل بأن يتحكم بي، وكما كانت تقول لي دومًا

- إن لن تكوني قادرة على استرداد ما ذهب من كرامتك، فرجاء يا ماما حافظي على ما بقي منها .

وهكذا وعندما بلغت حلي السادسة عشرة من عمرها، دعتني للنوم في غرفتها بعد إحدى المعارك العائلية التي طحنت إحدى مساءاتنا، وهكذا

انتقلت للنوم معها في الغرفة التي أصبحت غرفتنا، فتشاركنا السرير نفسه حتى اليوم الذي سافرت به إلى فيينا.

أعلم بأني اختبرت الأمومة بسن صغير، إلا أنني لا أندم على لحظة أمضيتها مع أولادي، في اللعب معهم، والتسلية، في متابعة التلفاز وفي تدريسهم، لقد أصبحوا مع السنين ليلى التي حلمت يومًا بأن أكونها ...

وكجزء من الروتين كان هناك عمـــــار الذي لم يغير مزاجيته شيء، فهو يوم سعيد ويوم نكد، وفي كلتا الحالتين كنا نحرص على معاملته بجدية وحذر خوفًا من مزاجيته ونوبات غضبه المفاجئة.

كبر الأولاد وبقي عندي رغبة واحدة وربما رغبتان الأولى هي أن أدرس في الجامعة والثانية هي أن أدخل عقل عمار وأعرف ما يجول بدماغ هذا الرجل الذي عشت معه حياتي كلها دون أن أجد وسيلة لفهمه.

الحب والعقل - 31 آب – 1992

وجد ناجي خالته داخل المطبخ المظلم تقلي البطاطا، بينما تغطيها رائحة الدخان المتكاثف من احتراق زيت الزيتون، صدمه منظرها، شعرها غير المصفف، قميص النوم الذي ترتديه للتخفيف من حر ذلك اليوم بينما يعج المطبخ بخالاته المشغولات في إعداد طعام العرس.

سعدت أمل جدًا لرؤية ناجي، ابتسمت له ابتسامه عريضة، وتمنت لو تضمه إلا أنه صرخ في وجهها قبل أن تأتي بأي حركة

- ماذا تفعلين؟

حركت يديها وشفتيها دون أن تجد من تقوله، قال لها:

- تعالي معي

وشدها من يدها نحو غرفة النوم الوحيدة في منزل الضيعة ذاك، الغرفة التي يفترشها سرير حديدي وحيد وتمتلأ أرضها بالفرش الاسفنجية لاستيعاب زوار هذا المنزل الكثر، وقفوا خلف الباب الخشبي الذي سيشهد نهايتان لتلك الشابة الجميلة، إحداهما نهاية قصة حبها والأخرى نهاية قصة حياتها ...

تمامًا أمام الجدار الذي تغطيه سجادة صوف نقش عليها صورة أسد وأولاده الثلاثة، نظر في عيني خالته

- لماذا تسمحين لهم بقتلك بتلك الطريقة؟

التزمت الصمت

- أتعلمين أنك تنتحرين بزواجك من مدين، مدين الذي كرهتيه منذ طفولتك، كيف ستعيشين معه العمر كله؟!

ابتلعت ريقها، بينما تطقطق أصابع يديها، استجمعت ما لديها من كلام، تنهدت وقالت:

- أنت لن تفهمني

- أنا أفهمك وأفهمك كثيرًا أيضًا، أعرف الحب بينك وبين محمد، لقد عشت الحب معكما ولقد جعلتموني أشتهي الحب وأتمناه، كيف تضحين بكل ذلك الحب، لماذا تضحين بنفسك هكذا؟

- أنا .... لم تعرف ما تقول

أمسك ناجي يدي خالته وشد عليهما

- لن أسمح لك بالزواج من مدين، وأنا لا أمزح عندما أقول ذلك، هيا ارتدي شيئًا ودعينا نغادر هذا المكان

نظرت في عينيه

- عندما تكبر ستفهمني بالتأكيد

- أكبر؟ أنا كبير وأعرف تماما أنك تنتحرين بقبولك هذا الزواج

- ادع لي يا ناجي

تنهدت وأرادت مغادرة الغرفة، فصاح ناجي

- خالتو، ارتدي ملابسك وهيا بنا

نظرت لعينيه

- ليتني أمتلك جرأتك وقوتك، أنا ضعيفة، أمي ضعيفة، ونحن جميعنا ضعاف، لا نريد أن نحارب لأجل شيء وكل ما نريده أن نعيش بسلام

لشدة انفعال ناجي، اختنق الكلام في حلقه فراح يبكي، وراحت تبكي معه، واستمروا بالبكاء لدقيقة أو عشرة، لم يكن هناك من يحصي الدموع ولا من يحصي الدقائق...

مسح دموعه، نظر في عينيها وقال "محمد ينتظرك عند أشجار السرو"

اندفع الأدرنالين في جسد أمل، وشعرت بضربات قلبها تتسارع وتتسارع حتى وصل صوت الطرق في صدرها إلى ناجي الذي قال "ألا يستحق منك وداعًا؟"

صرخت وصوتها يرتجف

- مالذي جاء به إلى هنا، بماذا تفكر عندما تتصرف بهذه الطريقة، أتريد جدتك أن تقتلني ؟

بصوت مبحوح

- فقط ودعيه، هو بانتظارك

لم تعرف أمل كيف تتصرف، ولكنها رغبت بشدة بأن تبرح ناجي ضربًا وبأن ترى محمد ولو للمرة الأخيرة، فأخذت نفسًا عميقًا، شبكت أصابع يديها ببعضهما وضغطت بشدة، ثم قررت ما ستفعله.

ارتدت تنورة سوداء مكسرة وقميص أسود نصف كم، ثم اجتازت بستان الليمون كي لا تمر من فسحة الدار ولا من الممر الترابي حيث ينتشر أخواتها وأولادهم، وقف ناجي على مفرق الطريق يراقب من بعيد بينما سارت نحو أشجار السرو حيث ينتظرها محمد...

كان وقت الظهيرة ذاك من أشد الأوقات حرًّا ورطوبة، وكان العرق يتصبب من محمد كالماء من دوش غير مرئي فوق رأسه، وعندما شاهد أمل تقترب منه ازداد تعرقه، واضطربت ضربات قلبه، فاعتدل في وقفته وانتظر وصولها إليه، وقفت أمامه وابتمست له ابتسامتها الملائكية، بينما كان شعرها مسدولًا متموجا حول رقبتها.

" لماذا أتيت؟"

شعر بأنها تتهمه بسؤالها فهي لا تتوقع منه تصرفا كذلك

" ناجي أقنعني بالمجيء"

"شكرا لأنك أتيت"

نظر في عينيها "إنتي منيحة؟"

تنهدت وزمت شفتيها كمن يحاول أن يمتنع عن البكاء "سأصبح جيدة يومًا ما"

صمت دون أن يدري ما يقول، وبعد طول صمت نطق بما أتى به من دمشق إلى اللاذقية

- أتيت لأهرب بك بعيدًا، أتقبلين بالهروب معي؟

كان صوت العصافير التي تسكن أشجار السرو في ذلك البستان، يعلو وينخفض، بينما يسمع جيدا صوت ديك الجارة ودجاجاتها، هناك كلب ينبح في مكان ما ليس ببعيد، وقطة تموء، وفأر يقضم ثمرة برتقال يابسة محاولًا بيأس الوصول لعصيرها، أصوات الكائنات علت وسيطرت على تلك اللحظة، حتى بدت تلك اللحظة طويلة كدهور . . .

" لقد عاهدت نفسي على ألا أكسر كلمة أمي"

ابتسم محمد لأمل وكأنه يعلم بجوابها مسبقًا، وقبل أن يهم بالرحيل طلب معانقتها، فاقتربت منه وتعانقا . . .

لم يتنبه محمد لرائحة زيت الزيتون المحترق التي كانت تفوح من شعر أمل، ولكن الرائحة تلك سترافقه لحيوات قادمة، دون أن يعرف مصدرها، ستفوح من لاوعيه في كل مرّة يذكر بها أمل، كما أنه وفي كل مرة سيعبر برائحة زيت الزيتون المحترق سيشعر بانقباض في أسفـل بطنه وشعور قديم

بالحزن الذي سيرافقه مابقي له من حياة . . .

اعتنقت أمل دينًا واحدًا في حياتها، هو دين والدتها، كانت ما تزال طفلة في عامها الأول عندما هربت ليلى مع عمار، فعاشت منذ نعومة أظافرها آثار ذلك اليوم في حياة والدتها وأخوتها، لقد دمرهم تمامًا هروب ليلى واضعًا قطر حياتهم في سكة مختلفة تمامًا عن السكة التي كانت والدتها تسعى لإبقائهم عليها، ولذلك هي لن تقترف الخطأ ذاته مهما كانت تضحيتها كبيرة . . .

فيينا ... وذكريات العمر التي لا تنقضي

لم أتمكن من النوم في ليلة عيد ميلادي ولا في الليالي التي تبعتها، فأنا لا أكره شيئًا في الحياة ك كرهي للصراخ، كيف لا أكره الصراخ وأنا التي عشت طفولتي كلها في حضن المشاكل، ما الذي أشد صعوبة ياترى؟ أطفال يكبرون بحضن والدتهم وهم على دراية كاملة بأنها انفصلت عن والدهم بدون صراخ أو مشاكل، أم أطفال يكبرون في حضن والدين لا يكفون عن خلق المشاكل، لقد نشأت وكبرت بالطريقة الثانية ولكنني لا أزال عاجزة عن اتخاذ القرار بما يخص زواجنا فهل عليّ أن أترك لأولادي اختبار النوع الأول من الحياة بوالدين منفصلين، وأترك للقدر حرية ترك أثار وصدمات نفسية من نوع مختلف في شخصياتهم.

لطالما تمنيت لو ينفصل والداي، لقد كان ذلك واحدًا من أجمل أحلامي، أنا وأمي وأخواتي نعيش في منزل لوحدنا، لا يهم ما نأكل ولا ما نرتدي بقدر ما يهم أن نكون معًا سعيدين بالهدوء والطمأنينة، أذكر أني اعتدت عند كل معركة عائلية على حزم أمتعتي مستعدة للرحيل، منذ كنت في الثالثة من عمري، حتى أنني شعرت بسعادة غامرة في ذلك المساء، عندما نشب خلاف كبير في المنزل، فتركتهم يشتمون ويصرخون ودخلت غرفتي لتوضيب أمتعتي، وفعلا قررت يومها ماما أن نترك المنزل فشعرت بسعادة غامرة لذكائي بتوضيب أمتعتي مستعدة للرحيل، وهكذا حملني داني بينما أحمل حقيبة صغيرة مليئة بملابسي بين يدي، وغادرنا المنزل، ركبنا

بالتاكسي.

كانت تلك واحدة من أسعد لحظات حياتي، أجلس في حضن والدتي وأحمل حقيبة ملابسي بين يدي، ونتجه بالتكسي نحو الهدوء والأمان، لم يكن بابا يوما مصدرًا للأمان لطالما خشيت وجوده وخشيت تصرفاته وكلامه...

في تلك السيارة الصفراء كنت أعيش السعادة المسروقة التي انتهت عند مفرق الحارة، فقد تبعنا بابا بسيارته واستمر باللحاق بنا حتى مستشفى المجتهد وهناك في قسم الإسعاف عانقنا واحدًا تلو الآخر واعدًا إيانا بأن يصبح والدًا أفضل.

دمشق ليلى – 1989 – جهلة الأربعين

ازداد عمار جمالًا ببلوغه الأربعين، نحيل طويل بشعر أسود كثيف يتخلله شيب قليل، وعينين ثعلبيتين زادت التجاعيد الخفيفة على طرفيهما من سحرهما، يتزين كل صباح بإحدى بدلاته الرسمية التي فصلتها له عند خياط في الحريقة، ويمشي متبخترًا من باب المنزل نحو سيارته البيجو البيضاء التي اشتراها مؤخرا فزادته جاذبية.

لقد كنت ولسنين سندًا لعمار، سواء اعترف بذلك أم لا، فعلى مر سنيني معه، كنت أدّخر الأموال كي أشتري الذهب، وعندما أصبح الذهب الذي جمعته كافيا لسد ثمن سيارة، أقنعته بأن نبيع الذهب كي يشتري لنفسه سيارة جديدة تناسبه وضعه الاجتماعي الجديد، وفعلا بعنا الذهب لأحد تجار الذهب في سوق الذهب بسعر مناسب واشترى سيارته البيجو البيضاء التي زينت شبابه وزادته غنى، شكرني يومها وقال لي بأني سند له وبأنه لن ينسى كم ضحيت لأجله، كانت تلك كلماته في المرة الأولى التي قاد بها السيارة في نزهتنا الأولى بها نحو الغوطة، والتي نسيها تمامًا بمرور أيام قليلة.

لم يكن عمار إلا بحرًا هائجًا تستقر أمواجه في أوقات نادرة، وأما الأموال في يديه فقد كانت كالزبد على أمواج البحر، تظهر وتختفي، يرميها البحر على الرمال فتتلاشى ليظهر غيرها، لم يعرف يومًا كيف يحافظ على المال

ولا كيف يدخره، لذلك كانت تأتيه فيصرفها دون اكتراث على الغريب قبل القريب، ولذلك اعتدت ادخار الأموال كي لا ننقطع فجأة من المصروف فنحتاج للغريب.

وهكذا عشت حياتي في تدبير أمور المنزل وأمور الأولاد لتوفير احتياجاتهم عندما يحتاجونها وعندما يعجز عمار عن تدبيرها في الوقت المناسب...

وفي صيف عام 1989، وهو العام الذي اشترينا فيه السيارة، عشنا أسوأ الأيام في حياتنا كعائلة

كنت أجلس مساء كعادتي وأولادي نتابع التلفاز بينما انشغل قيس بقراءة إحدى الروايات التي اقترضها من أمل، ومع بداية السهرة، دخل عمار المنزل فجأة في غير موعده والنار تستعر في عينيه، لقد كان يستشيط غضبًا، عدلنا جميعًا من جلستنا، فدخل إلى منتصف الغرفة وبيده سيجارة لا تزال في منتصفها، نظر في أعيينا واحدًا تلو الآخر حتى توقف شَعْر أبداننا خوفًا منه، عرفت لحظتها أنه يبحث عن شيء ليبدأ الصراخ، وفعلا وجد قيس منزويًا في زاوية الغرفة ومازالت الرواية التي كانت يطالعها في يديه، وهنا بدأ عمار بالصراخ

- أتقرأ الروايات يا قليل التهذيب، لقد علمتك وكبرتك لتقرأ الروايات لا لتقرأ كتبك، لو أن والدتك علمتك قيمة العلم لما مسكت كتاب كهذا بين

يديك"

التزمنا جميعًا الصمت بينما نشهد فيض الغضب الذي دخل به زوجي إلى المنزل، ولم نملك ما نقوله، فوقفت من مكاني وقلت لأولادي

- هيا ماما، تحركوا إلى غرفتكم وناموا

وهنا اشتعل الحقد في عيونه موجهًا كلامه الجارح لي هذه المرة

- لو أنك تعلمين أصول التربية لما ربيتي أولادك بهذه الطريقة، لا عتب عليهم وأنت أمهم

هنا لم يملك ناجي الذي ورث سرعة الغضب عن والده إلا أن يجيب

- أقسم بالله العظيم، أن أخذ أمي وأخواتي ونغادر هذا المنزل إن تحدثت مرة أخرى عن أمي بهذه الطريقة، أساسًا لولاها ولولا صبرها وتربيتها لكنا أولاد شوارع بسببك

- اخرس يا قليل التهذيب . . . صرخ به عمار

- إن كنت قليل تهذيب فلأني ابنك وأحمل مورثاتك . . . أجاب ناجي

اندفعت ليلى نحو ولدها ناجي

- أرجوك اقتصر الشر واصمت، ارجوك يا ناجي أرجوك، خذ إخوتك وادخلوا غرفتكم ودعوه يقول مايريد

أخذ عمار نفسًا عميقًا من سيجارته ونظر نظرة حقد لي

- دعه يقول ما يريد! ما من أم عاقلة في الكون تقول لابنها أن أباك مجنون ودعه يتكلم حتى يشبع، تعلمينهم احتقاري بدلا من احترامي

التفتت ليلى نحو زوجها وصرخت في وجهه:

- دعهم وشأنهم، لا يزعجوك بشيء، عاقلين مهذبين ومجتهدين ولكنهم لا يسلمون من لسانك وبطشك

ثم التفتت نحو أولادها وصرخت

- هيا إلى غرفتكم

لم يتحرك أيًا منهم إلا حلي التي هربت نحو غرفتها، وفتحت حقيبة صغيرة وراحت تملؤها بالملابس مستعدة للهروب.

استمر الخلاف في غرفة الجلوس، وبين صد ورد، حمل عمار حوض زريعة كان قد وجده عند زاوية الغرفة، ثم رفعه عاليًا وقذفه في اتجاه ناجي الذي رفع يديه محاولًا إبعاد الحوض الذي كان يطير باتجاه وجهه، وصده بأصابعه فركضت ليلى وهي تصرخ باتجاه ابنها الذي كان على وشك أن يسقط مصابًا بحوض التراب والورد الثقيل ذاك، وما إن اطمأنت أنه تمكن من رد الحوض عنه، حتى راحت تصرخ في وجه أولادها

- من المستحيل أن أترككم تعيشون مع هذا الرجـــل ولا حتى ليوم آخر

دفعت أولادها خارج المنزل وبحثت عن حلي التي كانت تنتظرهم عند باب

الدار بعينيها الواسعتين وقلبها الذي ينبض خوفًا بشدة، أمرت ليلى قيس بأن يوقف تاكسي من رأس الحارة وخرجت مع أولادها نحو الحارة التي كان يقف كل سكانها على الشرفات وفي مداخل المنازل يستمعون لأصوات الصراخ التي لطالما علت من بيت أم قيس فكانت حديث كل من يسكن ذلك الحي .

لم تكترث ليلى وأولادها لأعين الناس الشبقة ولا لهمساتهم، وبينما ينتظرون التاكسي كان عمار ما يزال في داخل المنزل يدخن سيجارة جديدة.

نظرت ليلى نحو ناجي الذي كان يتفحص يده، فتفحصت بدورها أصابعه لتجد أن خنصره قد كسر فعانقت ولدها وراحت تبكي بشدة.

خلال ثوان ركبو جميعًا بالتاكسي، لم يكونوا على معرفة بالوجهة التي ينبغي لهم أن يأخذوها، فأمرت ليلى الشوفير بأن يأخذهم نحو مشفى المجتهد، وما إن سـارت التاكسي في بداية الحارة حتى كان عمار في سيارته يتبعهم .

كانت حلي هي الوحيدة التي تنبهت لسيارة والدها التي تتبعهم لأنها تجلس مرتفعة في حضن والدتها تراقب السيارات بحذر، إلا أنها لم تتكلم متمنية من قلبها بأن يتوقف والدها عن ملاحقتهم ويترك لهم حرية الحياة بعيدًا عنه .

في المستشفى، دخلت العائلة التي كان يرتدي أفرادها البيجامات ويبدو

على وجوههم القلق والخوف نحو قسم الطوارئ، حيث أكد الطبيب على ضرورة إجراء عمل جراحي لإصبع ناجي المكسور وضرورة فتح ضبط شرطة بالحادثة إلا أن ناجي أكدّ أن سبب الكسر سقوطه بطريقة خاطئة من سقيفة المنزل حيث هبط ثقل جسده كاملًا على إصبعه فكسر، وهذا ما اتفق على روايته مع أخوته ووالدته .

وبينما هم ينتظرون ناجي خارج غرفة العمليات، دخل عمار المستشفى بحثًا عنهم، وما أن رآهم حتى عانقهم فردًا فردًا واعدًا إياهم بأن يصبح شخصًا أفضل وهي وعود لم يملكوا إلا أن يقبلوا بها لأنهم ما زالون صغارًا عاجزين عن إيجاد منزل يأويهم أو عمل يطعمهم .

حزنت حلي كثيرًا لأنها عادت ليلتها نحو المنزل الذي تكره وتخاف، بل ازداد خوفها من والدها الذي لم يردعه شيء عن محاولة قتل ناجي، ولكنها لم تكلم أحد عن مخاوفها وعن عجزها الدفين عن الثقة بذلك الرجل الذي يدعى "بابا".

أما ليلى فقد كان حزنها مختلفًا، لقد أصاب ابنها ندب في جسده بسبب والده، عدا عن الندوب الكثيرة في الروح والتي لم تملك يومًا القدرة على علاجها أو إخفاء معالمها، هناك من يكسر قلوب أولادها في كل يوم ، ويحطم ثقتهم بأنفسهم دون أن يدري كم هي مؤلمة الثقة عندما تتحطم وكم يستحيل جبرها.

اللاذقية - الهزة الثانية - 31 آب

دخلت أمل للإستحمام، خلعت ملابسها وجلست على المقعدة الخشبية الصغيرة التي يستخدمونها للإستحمام، وأمامها طِشْت ماء بارد بداخله تطفو مِكْيَلة بيضاء بلاستيكية، ماهي إلا علبة معجون غسيل الصحون (من ماركة مدهش) والتي استخدمت محتوياتها في غسيل الصحون ليعاد استخدام العلبة البلاستيكية كَمِكْيَلة في حمام هذا المنزل كما في حمامات منازل القرية كلها . . .

لم تسخن الماء، بل أرادته باردًا كي يخفف عنها حر ذلك المساء، واحتراق النار في قلبها. وبينما تسكب الماء على رأسها، راحت تنسكب الدموع من عينيها، تبكي وتجهش بالبكاء، بكت كمن يبكي على شخصٍ غالٍ مات للتو، لم تكن تبكي أحدًا إلا نفسها، وبعد ربع ساعة خرجت من الحمام وكأنّ شيئًا لم يكن، ارتدت فستانها الزهري الفاتح المصنوع من التول والمكشكش من أكمامه، والضيق عند خصره، واتجهت نحو صالون المنزل متوجة نفسهـا عروس هذا المساء.

ما إن خرجت حتى راحت أخواتها تزغردن لها، إلا أنها تجاهلت الزغاريد واتجهت نحو حلي التي كانت تجلس بقرب والدتها تبحلق بعينيها الواسعتين في خالتها التي ترتدي فستانا جميلًا، قبّلتها ونظرت في عينيْها

- اليوم هو عيد ميلادك يا أغلى طفلة في العالم، أعتذر لأننا لم نحتفل

بك هذا العام ككل عام

ذرفت أمل الدموع بينما تحتضن حُليْ بين يديها، فاقتربت ليلى منهما وعانقتهما وهمست في أذن أمل

- وأنت يا أمولة غالية علي كغلاوة حلي، الله يسعد قلبك ويباركلك بهالزواج

كانت الجدة تراقب مشهد العناق من بعيد حزينة في قلبها على زواج أمل الذي لم تكن لتتمناها يومًا أن يتم بهذه الطريقة.

تمّ ترتيب الكراسي والطاولات وتوزيع المشروبات عليها في فسحة المنزل السماوية وخلال دقائق سمعت خطوات المعازيم، مدين وأقاربه، فاستقبلهم عدنان وقيس وأزواج أخوات عدنان وعمار الذي كان قد وصل للتو من دمشق، عُقد القران في غرفة الجلوس ثم انتقلو جميعًا للاحتفال في فسحة الدار، حيث بدأت حفلة العرس.

كان هناك استريو صغير وضع عليه قيس شريطًا من أغاني الأفراح الذي اشتراه من أحد محلات الكاسيك في دمشق، فانشغل بتنظيم الأغاني بينما جلست أمل ومدين على كنبة منفصلة، الأسكي الذي لم يزينه شيء إلا أمل وفستانها، ويقرب الأسكي على مقربة من خالتها جلست حلي دون أن تغادر مكانها حتى نهاية الحفل . . .

مع غروب الشمس، خفّت الرطوبة بينما راح صوت الأغاني الساحلية

يصدح في المنزل "شفتك يا جفلي عالبيدر طالعة، عيونك يا بيي الشمس الساطعة" تبعتها أغنيات نجوى كرم "أنا مافيي حبك أكتر من عيني" وعندما صدح صوت نجوى كرم في المنزل، ازداد الحماس عند العريس فوقف ليرقص إلا أن أمل رفضت مشاركته في الرقص والتزمت مكانها، فأصر عليها وابتسم في وجهها مكشرًا عن أسنانه، لم يتركها وشأنها فاستمر يبحلق في عينيها إلى أن استسلمت فوقفت وشاركته الرقص، وبينما يبحلق الجميع فيها، راح القلق يصعد إلى جسدها، فشعرت بانقباض شديد في أسفل البطن، وبرودة في رؤوس أصابعها ، فركت يديها ببعضهما وأزاحت نظرها عن الناس لتجد يد حلي تمسك بفستانها وتسير معها إلى الرقص، لن يدرك أحد مدى القوة التي أعطتها تلك الطفلة لخالتها مانعة إياها من الإنهيار في تلك اللحظة، فمشت أمل نحو منتصف الفسحة وراحت تهز أكتافها يمينًا ويسارًا بينما راح العريس يرقص بكل ما أوتي من طاقة.

وبينما هو يرقص راحت تنظر إليه من الأعلى نحو الأسفل، متوسط الطول ممتلىء الجسد، مستدير الوجه، ليس بشعًا، فلماذا اعتادت على كرهه منذ أن كانت طفلة، لقد كان سمجًا، ثقيل الدم الآن تذكرت، ومازال ثقيل الدم للأسف، راحت تتفحصه بعينيها وتتخيل الحياة التي بدت مظلمة منذ بدايتها.

انتهى العرس بتقديم الهدايا والتهاني للعروسين، فأوصل قيس العروس والعريس إلى بيت أهل العريس الواقع في القرية المجاورة، كان الليل قد

أنزل سدائله على القرية، فعمَّ الصمت والهدوء أرجاء القرى بينما تسير السيارة التي يقودها قيس نحو منزل العرسان.

نزلو جميعًا من السيارة أمام منزل مدين، ودع قيس العرسان وطبع قبلتان باردتان على خدي خالته ثم ودع العريس وركب بسيارته عائدًا إلى منزل جدته . . .

لم يكن هناك ما يدعو قيس الشاب المهندس الجميل للبكاء إلا أنه بكى، توقف بسيارته عند مفترق بين تلك القرى الجبلية يطل على سهول الساحل، التي يظهر ورائها البحر، نزل من سيارته وراح يبكي على خالته، على صديقته وأخته، لم يتمكن من أن يتخذ موقفًا ولا أن يكون سندًا لها، لم يفعل شيئًا سوى أن يراقب ما يجري دون أي تدخل، لقد بكى على ضعفه وانهزامه وعجزه عن الكلام قبل الفعل، الضعف الذي خلقه والده في قلبه منذ أن فتح عينيه على هذا الدنيا شاهدًا على والدته تعنف من أبيه يوميًا، تُضرب فتبكي بصمت، لقد ولد و العجز سويًا وكبرا معًا حتى صارا كيانا واحدًا لا يتجزأ .

راح يبكي متمنيًا لو يخرج الرجل الكامن بين ضلوعه بدلًا من أن يموت صامتًا، وتمنى بقلبه لو أنه يملك جرأة ناجي، الذي جاء من حلب ليلقي السلام على خالته رافضًا أن يبقى لحضور عرسها وهو موقف رجولي لكل من يعرف من هي أمل وما الذي كان يمكن أن يتنظرها في هذه الحياة قبل أن يدفنوها مع الرجل الخطأ .

في الوقت ذاته، وفي منزل متواضع في الضيعة، كانت أمل تبدل فستان عرسها مقررة الخلود إلى النوم، فنظر زوجها في عينيها واقترب منها،

- أتمزحين معي، أتعتقدين بأني سأدعك تنامي الآن؟!

- في الحقيقة أنا متعبة وأرغب بالنوم .

- لا ياقلبي، لن أدعك تنامين بهذه السرعة

اقترب من جسدها المستلقي على السرير فصرخت في وجهه

- أقسم بالله، إن اقتربت مني لأجمع عليك الناس بصراخي

نظر إليها مستهزئًا

- ولماذا ستصرخين؟ زوجتي وحلالي

اقترب منها أكثر، فنفر الـدم نحو أطـرافها، ووقفت مسرعة متجهة نحو الباب تريد أن تهرب، تبعها وأمســك بيدها وشدها نحوه

- إلى أين تعتقدين بأنك ذاهبة؟

- أرجوك، دعني أعود لأمي، لا أريد هذا لا أريد

ضحك باستهزاء أكثر

- وماذا تريدين أن يقول الناس عنك إن تركتك تعودين لأمك، سيقولون وجدها عائبة فأعادها لبيت أهلها في الليلة الأولى

تجمد الدم في عروقها وتلاشت معالم وجهها، وتذكرت العار الذي لطالما حملته والدتها، والذي تخاف أن تحمّلها مثله، عبرت بجسدها نسمة باردة فارتعشت أطرافها قبل أن تعود أدراجها مستسلمة نحو سرير الزوجية الذي ينتظرها ...

جبلة – الكورنيش - محمد وناجي

بعد أن أنهت أمل الحديث مع محمد بعناق وعادت أدراجها بين أشجار الليمون نحو المنزل، اقترب ناجي الذي كان يراقب المشهد من بعيد ووقف بالقرب من محمد دون أن يملك أن يقول له شيئًا ولا أن يواسيه، فقد كان يؤنِّب نفسه لكونه السبب في قدوم محمد إلى القرية من دون جدوى.

سار ناجي بالقرب من محمد وراحوا يتجهون غربًا مبتعدين عن منزل الجدة، كان الطريق الترابي الذي يسيرون عليه مليئًا بالحصى والتراب تفترشه على اليمين ورود وشجيرات مختلفة، وردة المجنونة بلوْنيها الزهر والأبيض، أشجار الزنزرخت وبساتين الليمون وأشجار السرو، بينما يمر شارع ضيق معبد بالزفت على يسار الطريق الترابي، تعبر به كل السيارات حتى تلك التي تقل المسافرين من اللاذقية إلى حمص، إلى دمشق وإلى غيرها من المحافظات.

وبينما يسيرون ويتعرقون محتارين في وجهتهم، حاول ناجي مرارًا إيقاف السيارات العابرة دون أن يتوقف أي منها، وإذا بأحد الموتورات (دراجة نارية) يتوقف للشابان فيسألهم سائقه عن وجهتهم فيجيبه ناجي "بتوصلنا على جبلة"

وافق قائد الدراجة الشاب الأسمر على إيصالهم، فركبوا خلفه على الدراجة ثمّ انطلق مسرعًا على الطريق العام، بينما راح هواء الساحل المشبع

بالرطوبة يرتطم بوجه الشبان الثلاث.

عندما وصلوا إلى جبلة، تشكروا الشاب وعرضوا عليه المال إلا أنه رفض وقال لهم أنه كان قادمًا إلى جبلة بكل الأحوال، فتشكروه مرة أخرى وسارا معًا باتجاه الكورنيش البحري.

لم يرغب ناجي أن يترك محمد يعود مكسورًا وحيدًا إلى دمشق لذلك قرر أن يجلس معه على كورنيش جبلة، وفعلًا اشترى ناجي من أحد الأكشاك المنتشرة على الكورنيش زجاجتا كولا وجلسا معًا على أحد المنحدرات الصخرية المطلة على البحر المتوسط الأزرق الكبير.

شرد الاثنان في زرقة البحر الجميلة وأمواجه الكثيرة المتراطمة، بينما راح النسيم البحري يخفف عنهما الحر والرطوبة، تنهد ناجي "أعتذر"

التزم محمد الصمت.

- أعتذر لأني أقنعتك بالسفر كل هذه المسافة دون جدوى، كان ينبغي علي أن أستخدم عقلي، لكنني لم أتخيل أن خالتي ستتزوج من مدين فجأة وبهذه السرعة، لم أتقبل أن الحب بينكما انتهى هذه النهاية المؤلمة

- ما العيب في مدين ... تساءل محمد بينما ما زالت عيناه معلقتان بالبحر

- خالتي أمل تكرهه كثيرًا مذ كنا صغارًا

هز محمد رأسه دون أن ينطق

- ما يدهشني هو الطائفية التي لا نسمع بها وممنوع أن نتكلم عنها، لكنها تعيش معنا، أتعلم أني لم أعرف طائفتنا حتى هذا العام، لأن بابا وماما لم يتكلموا أبدًا في موضوع كهذا أمامنا، كما أنني لا أرى أي فرق بيننا، لا أجد أن بك ما يجعلك مختلفًا عني وعن قيس أو حتى عدنان

لم يجب محمد

- أتدري أن بابا ملتزم دينيًا أكثر من الشيوخ لديكم، وجدتي أيضًا، لم يسمح لنا يومًا بتناول الكحول، حتى البيرة ممنوعة، حياتنا كلها دراسة، الدخان ممنوع، حتى إن ظهرت قُبلة صدفة على التلفاز قد يكسر التلفاز، قراءة الروايات ممنوعة، ماما تصلي ولا تقطع فرض كذلك الحال مع جدتي وخالتي أمل، أتفعلون في طائفتكم شيئًا لا نعرفه ولا نفعله؟!

تحركت مجموعات من السرطانات البحرية عند أسفل المنحدر الصخري الذي يجلسون عليه فراح محمد يراقب حركتها

- اشرب رشفة من الكولا كي يبرد قلبك ... طلب ناجي طلبه بخجل ثم أضاف

- بصراحة الفرق الوحيد بينا وبينكُن هو أنّ بنتاتكن يرتدون الحجاب وليس جميعهن كما أعتقد ... هذا الفرق الوحيد بيننا، ما رأيك؟

استمر محمد بتحديقه للبحر، لكنه تنحنح وكأنه يرغب بالكلام

- الشيء الوحيد الذي أنا أكيد منه، هو أن أمل جميلة جدًا، من الداخل أجمل بكثير من الخارج، مهذبة، خلوقة وزكية، طيبة وحنونة وأخت رجّال ولطالما أحببتها

- أنا حزين على خالتي أمل .... تنهد ناجي، ثم أضاف:

- أنت مهذب وراقي، لقد أحببناك وأحببنا خالتي بقربك

- لا أدري لعله الجهل، أو الخوف من المجهول هو ما أوصلنا لهذه النهاية

- أنت واضح، ليس بك ما يدعو للخوف

نظر محمد في البحر الواسع الممتد أمامه، تنهد وقرر أن يصمت.

فيينا - 2022 – الصيف في فيينا

استيقظت باكرًا، كانت الغيوم تملأ السماء رغم أننا في أيلول، هي هكذا فيينا، تفاجئنا بأمطارها، أعددت الفطور لأولادي، وبعد أن ودعتهم، ارتديت بيجامة الرياضة ونزلت للركض تحت المطر، أمسكت بهاتفي واتصلت بوالدتي، ثم اتصلت بخالتي أمل ، وباركت لها لنجاح ابنها الأصغر بمعدل عالي بالبكالوريا، كانت سعيدة جدًا بعلاماته، أخبرتني بأنها تتمنى أن ترسله للدراسة في أوروبا فالمعيشة في سوريا باتت مستحيلة، وعدتها أن أحاول مساعدتها، كان صوتها دافئًا كعادته لكن نبرة السعادة كانت تزينه في ذلك الصباح، وقبل أن تغلق السماعة رميت لها جملة واحدة

- سأطلب المساعدة من محمد ولعله يساعدني

استغربت خالتي من أسلوبي بقوْل تلك الجملة فقالت "من محمد؟"

ابتسمت لسؤالها ورغبت بشدة لو أنها أمـــامي لأرى ملامح وجهها عندما أخبرها عن محمد

- محمد لقد أصبح أستاذ بأهم جامعات فيينا، أستاذ محاضر في الهندسة المدنية

اختنق صوتها لدقائق، فقلت " خالتو أنا آسفة"

صمتت، أعدت " خالتو؟"

- أريدك أن تساعدني وليس أي أحد آخر

استغربت من ردها ووعدتها بأن افعل ما أستطيع ... أغلقت الهاتف وعدت للمنزل، غيرت ملابسي، استحممت ثم ذهبت للعمل، التقيت بسام في حديقة المستشفى، جلسنا معًا، كان الطقس ماطرًا وغيومه تملىء السماء، فجلسنا على كرسي خشبيه تظلله قُبُّة خشبية درءت عنا المطر بينما نستمتع بهطوله، حدثته عن مكالمتي مع خالتي أمل

- لقد صدمتها بكلامك

صمتت كطفلة ارتكبت خطأ فادحًا، أضاف

- لا تزعجي نفسك حلي، أي رد فعل توقعتي أن يصدر عنها!

- لم أتوقع شيئًا وربما توقعت أن تسعد بكلامي عنه

نظر في عيني محاولًا تغيير الموضوع

- بالتأكيد لم تنزعج منك ولكنها فوجئت فقط، فلم تعرف ما تقول

- معك حق

ابتسم وعاد لينظر ف عيني

- يبدو أن القدر جمعنا

ابتسمت له

- ليس لدي أي شك، أعجز عن تخيل الكون وصغره

- للأسف قصة حبهما لم تكتمل لكنا التقينا بظروف أفضل

صمَتُّ وابتلعت ريقي لأني شعرت بما يرمي لقوله بتلك الجملة، أتراها قصة حب حقيقية تلك التي أعيشها مع سام، نثرثر لساعات، نملأ خلايانا بالكافايين ونمضي في طريقين مختلفين حيث تنتظرنا عائلتين مختلفتين ...

أترانا نحب بعضنا حقًا أم نمر بأزمة منتصف العمر؟!

سؤال سأترك للقدر حرية الإجابة عنه.

ليلى 1990 – الحياة الحلوة

رغم كل المعاناة التي عشتها بقرب عمار إلا أنه لم يعبر بي يوم إلا وشكرت ربي ألف مرة أو أكثر على النعم التي عشتها، أولادي بصحتهم وهناك سقف يسترنا.

عمار الذي رغم قسوته لم يجعلني أحتاج يومًا لأحد، وهذه حقيقة يصعب نكرانها فالحياة لا يمكن أن تكون بيضاء أو سوداء، إنها دومًا مزيج من اللونين وهذا ما يجعل للسعادة فيها نكهة خاصة.

توالت السنين بحلوِها ومرها وبقي حلمي بأن أدخل الجامعة معلقًا لأجل مجهول، لم أكن أعرف لماذا أرغب بشدّة بدخول الجامعة، ألأثبت لوالدتي بأنني لم أخذلها وبأني أهل للنجاح، والدتي التي لم يعنيها نجاحي بالبكالوريا وكل محاولاتي باسترجاع ثقتها بي، أم تراني أرغب بذلك كي يفتخر أولادي بي، أولادي الذين كبروا علي وأنا معنفة، ضعيفة وخاضعة. لا أدري ولكن الجامعة هي حلم أرغب بشدة بتحقيقه.

عدنان 1995- دمشق

تغيرت ملامح عدنان فتحول من الشاب الرقيق الذي يخشى قتل ذبابة إلى رجل أسمر بأكتاف عريضة، يتكلم بطريقة خشنة ويحاول بين الحين والآخر أن يستعرض قواه العضلية، وأما اللهجة الشامية التي اعتاد عليها في كلامه في البيت والمدرسة في دمشق تلاشت لتحل محلها لهجة ساحلية اكتسبها من رفاق الكلية الحربية اللذين لطالما تنمروا على لهجته وكلامه المهذب الرقيق حتى عمل جاهدًا على تغييرها.

ازداد عرض أكتافه، واكتسب بعض العضلات هنا وهناك من كثرة وشدة التمارين الرياضية التي يمارسونها في الكلية، كما اكتسب وجهه سمرة جميلة جعلت منه رجلًا حقيقيًا.

لم يبق من عدنان القديم أي شيء يذكر إلا رغبته الشديدة بأن يفعل شيئًا مهمًا يرفع من قيمته بنظر والدته ونظر أولاد أخته ليلى، قيس المهندس وناجي الطبيب ...

لقد كان لغيرته من هاذان الشابان الأثر الكبير في حياته، ولكن شعوره بالغيرة في هذه المرة دفعه للإصرار على أن يصبح عظيمًا، بعد أن كان شعوره بالغيرة فيما مضى يدفعه للإكتئاب والإنطواء.

وفي نهاية الصيف من ذلك العام، تخرج عدنان من الكلية الحربية برتبة ملازم، وحضر الإحتفال أخته ليلى وأولادها مع والدته وأخته أمل وزوجها

مدين، الذين غادروا دمشق في الصباح الباكر متجهين نحو الكلية الحربية في حمص حيث أقيمت مراسم تخريج طلاب الكلية الحربية.

وفعلًا تخرّج عدنان وتم تعيينه في إحدى الثكنات العسكرية في حرستا حيث سيبدأ حياته كضابط ملازم في الجيش العربي السوري.

بعد حفل تخرجه من الكلية الحربية، عاد عدنان مع عائلته إلى منزلهم في المزة حيث تم إقامة حفل شواء على شرفه، وسهروا جميعًا يغنون معًا ويضحكون فرحين بالضابط الجديد.

دمشق – 1995 - طلاب الهندسة المدنية

لم تكن أمل من أولاءك النساء اللاتي يتذمرن من أزواجهن، بل كانت صامتة وراضية، حتى أنها مع السنين بدأت تجد في زوجها ميزات لم تكن قد توقعتها، كشهامته مع والدتها وأخواتها، واندفاعه في مساعدة كل من يسأله العون، حتى أنه كريم.

وفي منزل صغير في حي جوبر، عاشت أمل حياة زوجية بعيدة كل البعد عن أحلامها وتوقعاتها، بغرفة نوم سوداء تشبه إلى حد كبير غرفة نوم ليلى، خالية من الحب أو الشغف ومليئة بالإستسلام والروتين، كان محل الميكانيك الذي يعمل به مدين قريبًا من منزله ولذلك كان يمضي وقتًا طويلًا مع أمل التي تمنت لو لم يكن قريبًا لهذه الدرجة كي يعطيها القليل من الحرية في الدراسة للجامعة والتحضير للإمتحانات.

لقد عانت معه كثيرًا في موضوع دراستها في الجامعة، فلطالما تذمر من اهتمامها بالدرس، وحاول إقناعه بالتوقف عن الدراسة والاهتمام بشؤون المنزل، علمًا أنه كان شرط الجدة الوحيد عندما وافقت على زواجهما مؤكدة على أن دراسة أمل خط أحمر وعلى أنها يجب أن تكمل جامعتها.

ولأن أمل لم تتمكن من الإنجاب، اتخذ مدين من دراستها ذريعة لعجزها عن الإنجاب فأصبح يفتعل المشكلات كي تحيد عن دراستها وتتفرغ نفسيًا وجسديًا لموضوع الإنجاب.

في الوقت نفسه كان محمد قد غادر سوريا نحو أوربا، وكان قيس قد اتخذ قراره في الزواج من مايا لذلك وفي ذلك العام، جلس قيس مع والده للمرة الأولى جلسة رجل لرجل.

في تموز 1995، تمامًا في اليوم الأخير من امتحانات كلية الهندسة المدنية، عاد قيس سعيدًا ومضطربًا نحو المنزل فسارع بالدخول نحو المطبخ حيث كانت والدته مشغولة بإعداد الغداء المكون من الأرز والفاصولياء وما إن رأى والدته حتى عانقها وأخبرها بأنه يحبها كثيرًا فضحكت جدًا لأنه كان نادرًا ما يعبر لها عن مشاعره، ثم أخبرها بأنه يرغب بإخبار والده بأنه سيتزوج من مايا .

ابتسمت ليلى لولدها وأخبرته أن يتروى ريثما ينهي سنته الأخيرة إلا أنه أصر أن يتزوج مايا على وجه السرعة لأنها تخرجت منذ عام، وعادت إلى حمص حيث تقطن عائلتها وهو يخشى خسارتها لذلك انبغى عليه أن يتخذ قراره فيتزوجا فورًا، اقترحت ليلى على قيس أن تحدث والده في الموضوع ولكنه أصر على أنه من يجب أن يخبر والده بتلك الرغبة .

في مساء ذلك اليوم، جلس قيس مع نفسه يحدثها، كان عليه أن يواجه الرجل الذي يخشى مواجهته ويتحاشاه، الرجل الذي لم يتجرأ يومًا على الحديث إليه أو النقاش معه، الرجل الذي زرع في قلبه الخوف والخجل من الكلام، ولكنه يرغب بشدة أن يواجه خوفه كي يبدأ حياته مع مايا من دون عقد ومخاوف، سيكون رجل حياتها ورجل بيتها وكي يثق بنفسه لفعل ذلك،

عليه أولًا أن يجلس مع والده – الرجل الوحيد الذي يخشاه في الحياة، ويقنعه برغبته الشديدة بالزواج من مايا.

دخل قيس إلى والده في غرفة الجلوس حيث كان يتناول عشاءه ويتابع الأخبار على التلفاز، جلس قيس على كنبة مجاورة، ومن دون أن يبتسم أو يتردد نظر نحو والده

- أريد أن أحدثك في موضوع هام

كانت تلك هي المرة الأولى التي يجلس فيها قيس مع والده جلسة رجل لرجل، نظر أبو قيس -الذي كان يمضغ لقمة في فمه -نحو ولده وزم عينيه محاولًا قراءة الكلام قبل سماعه، بلع اللقمة ثم قال:

- تفضل بابا – ماذا تريد أن تقول؟

- أنا أفكر إن لم يكن لديك مانع أن أتزوج

ضحك أبو قيس ثم وضع لقمة أخرى في فمه، فارتبك قيس

- ترغب بالزواج

تجمد الدم في عروق قيس فالتزم الصمت وبدأ يتعرق

- تريد الزواج من تلك الفتاة التي تأتي لزيارتنا؟

ذكرني باسمها

- مايا

هز أبو قيس رأسه

- مهذبة هذه الفتاة وتبدو خلوقة

هز قيس رأسه موافقًا بينما نزلت على جبينه أول قطرة عرق باردة

- من أين هي؟

- من حمص . . . أجاب قيس

ضحك عمار بينما يستلذ بمراقبة الإرتباك الواضح على ولده فقال:

- قل لوالدتك أن تستعد لنسافر غدًا إلى حمص لطلب يدها

تلاشى التوتر من جسد قيس وشعر بالارتياح ينتشر في جسده بينما راح العرق البارد يتساقط من جبينه، فتشكر والده وخرج مسرعًا ليخبر والدته.

فيينا - 2023 - الخيانة والزوجة الصالحة

لم تتنبه نور للتغيرات الكثيرة التي طرأت على زوجها، اهتمامه الزائد بنفسه وبما يرتديه على العمل، لطالما كان أنيقًا إلا أن أناقته ازدادت، فبات ينتقي برعاية البدلة التي سيرتديها، يومًا يرتدي البدلة البيج الكتان مع قميص أبيض وحذاء جلد عسلي وحزام عسلي، وفي يوم آخر يرتدي بدلته الكحلية مع حزام عسلي وحذاء عسلي وقميص أبيض، كما أنه فتح خزانته في أحد الأيام وقرر التخلص من كل الملابس التي باتت قديمة، ثم بدأ بعادة جديدة وهي شراء الملابس عند كل فرصة متاحة، فبات يدخل المنزل محملًا بأكياس من الملابس من ماركات مختلفة، يبتسم لزوجته ويقول لها (تعالي ورجيكي شو جبت لقطات) فتدخل معه غرفة النوم تراقب لهفته في عرض ما اشتراه، فتبتسم له وتهز رأسها دون أن تفكر ولو للحظة بأنه قد يخونها.

لم تشك نور يومًا بأنها قد قصرت بحق زوجها، فهي زوجة مخلصة، تهتم كثيرًا بتدريس أولادها وبمستقبلهم وبأنواع الطعام الذي تعده لهم، كما أنها غير مبذرة بل جمعت كل قرش في شراء العقارات في دمشق حتى أنها وزوجها يعتبرون من المغتربين القلائل في أوربا والذين يتمكنون رغم الضرائب الكثيرة من إدخار الأموال لشراء العقارات، والفضل في ذلك يعود لها فهي التي رفضت كل عروض سام المغرية بالسياحة في أوربا والسفر لدول آسيا بل حتى أنها رفضت أن تصرف فلسًا واحدًا في غير مكانه الصحيح، لذلك كانت مدبرة ماهرة وهو شيء لن يعترف به سام الذي

استيقظ بعد سنين عشر ليجد أن حياته خلت من الحياة، لا سفر، لا صداقات، لم يطرق يومًا باب بيتهم، لم يبنوا أي صداقات بأي كان، لقد قطعت نور علاقاته بالكون كله، وعاشوا وحيدين في غربة صنعتها هي تضاف لغربتهم الحقيقية فما الحياة بدون صداقات، بدون سفر، بدون أهل وأقارب!

استيقظ ليجد أنه أضاع سنين عمره مع الشخص الخطأ فبدأ يستعيد أحلامه التي دفنتها نور وكأنه يرغب بشدة بأن يعيش كل ما سلبته.

أخذت أحلام سام تكبر مع حلي متخيلًا نفسه برفقتها في

رحلات إلى سويسرا، إيطاليا وغيرها من البلدان، لقد وجد في حلي كل ما فقده في نور، فهي تعشق السفر وتكره إدخار الأموال بل تؤمن بأن الأموال خلقت لنسعد بالحياة لا لنخبئها فيسعد بها غيرنا، كما أن حلي تهتم بجسدها، نحيلة رشيقة رياضية، تعرف كيف تتأنق وكيف تنتقي ملابسها برقي وتنتقي ما تقرأه وما تطالعه بحذر وهو شيء لم يراه ولم يشعره مع نور التي أهملت نفسها وروحها وتحولت لربة منزل .

كل هذه التغيرات بحياة سام، نظرته الجديدة للكون، أناقته المبالغ بها، سعادته غير المبررة وغيرها أشاء كثيرة تاهت عن نور التي وضعت قدميها في ماء بارد بعد أن أصبح زوجها خاتمًا في إصبعها لا يجادلها بشيء وينفذ ما تطلب حتى أنه يعطيها كل راتبه كي تستثمره في المكان المناسب، وهي

مؤشرات لا تدل إلا على اللامبالاة وعدم الاكتراث وتكاد تكون مؤشرات أشد خطورة من الخلافات والمشاجرات وإن دلت على شيء فتدل على انعدام الحب وتلاشيه والاستسلام لكل ما قد يأتي مهما كان جديدًا وغريبًا.

دمشق -1996

هناك نظرة واحدة ينظر بها لكل سوري في هذا الكوكب، من قبل كل الجنسيات الأخرى، فالسوريون هم الشعب الوحيد "تقريبًا" الذي يدرس العلوم والرياضيات باللغة العربية، حتى الطِّب بمصطلحاته العالمية يدرّس في سورية بمصطلحات عربية تثير سخرية كل من يقابل طبيب سوري مغترب حديثًا عن بلده.

المعادلة العالمية التي تقول (X+Y=Z)

ستجدها غريبة بالنسبة للسوري الذي يفهم الرياضيات بمعادلة واحدة لا غير هي س+ع=ص

السوريون شعب طيب بكل طوائفه وأديانه، يحب الحياة، يعشق فيروز بل يقدسها، شعب ينتظر بكامله موسم الباذنجان لصنع المكدوس وتؤمن نسائه بأن الشعر يتساقط في موسم المكدوس، وهي قناعة ستجدها في الساحل كما في المنطقة الوسطى أو الشرقية، كما في دمشق.

جميعهم يحتفلون بأعياد ميـــلاد أولادهم ورأس السنة بالطريقة نفسها، تبُولة وبطاطا وكاتوا وكولا، مع تنوع باقي الأطباق باختلاف غنى الشخص وقدرته المادية على الصرف على أعياد الميلاد، وفي المونديال أو كأس العالم، ستجد الشعب مقسوم تقريبًا في تفضيله لثلاث فرق البرازيل، والأرجنتين وألمانيا حتى أن بعضهم يصل به الحماس لدرجة تشعرك بأن

جذورنا كانت أرجينتية أو برازيلية.

الفطور في معظم البيوت هو ذاته، لبنة وزيتون وبيض ومكدوس، كذلك وجبة الغداء رز وشيء يجاوره أو أكلة تؤكل بالخبز، فاصوليا بزيت، فول بالكزبرة والتوم، محاشي ورق عنب وكوسا، الثقافة ذاتها وكلها جاءت من المنهاج الوزاري لوزارة التربية، الخلفية الفكرية تقريبًا ذاتها، الأحلام ذاتها، معالم العيون وعمقها هي ذاتها عند الشعب كله.

وفي عام 1996 كان هناك ما جمع الشعب كله في الوقت ذاته على النشاط ذاته، من شمال البلاد إلى جنوبها، كساندرا، المسلسل اللاتيني، الذي جعل حرفيًا شعب بكامله يلتزم المنزل لمتابعته في موعده المعتـــاد على التلفزيون السوري.

كان قيس قد تزوج حديثًا من مايا، وكانت مايا حاملًا بطفلهما الأول يوم بدأ عرض المسلسل الذي كان نافذة الشعب على حياة لم يعرف عنها شيئًا، ولذلك يوميًا عند موعد بدء المسلسل، يجلس قيس بقرب زوجته ليتابعان المسلسل في غرفة جلوسهما البيضاء الجلدية والتي انتقتها مايا بعناية عندما فرشت منزلها، وفي الوقت ذاته، تجلس أمل في غرفة الجلوس البنية المخمل في منزلها في جوبر بينما ينضم إليها مدين الذي يغادر ورشته باكرًا ليصل المنزل تمامًا مع بدء المسلسل، وما إن تظهر كساندرا على التلفاز حتى يبدأ بكلامه الجارح "ليش مانك حلوة متل كساندرا" تلتزم أمل الصمت بينما تقطع الفاكهة بيديها أو تسكب الشاي الساخن في الكؤوس، ليعيد

عند كل فرصة سانحة محاولاته بتجريحها والتقليل من قيمتها، خصوصًا بعد تخرجها من كيلة الهندسة وتعيينها كمهندسة في المديرية العامة للمصالح العقارية.

أما ليلى فعادة ما تجلس مع داني وحلي في غرفة الجلوس العسلية اللون، التي اشتراها عمار من أحد نجارين الخشب في داريا والتي رغم قدمها ما تزال محافظة على لونها وشكلها وقوة خشبها وجودة اسفنجها، وكما يقول عمار دوما " الغالي حقو فيه"، وهكذا يوميًا يتسمر داني وحُلِيْ أمام التلفاز ليتابعون المسلسل مع صحن بوشار يعده داني يوميًّا بينما تعد والدته إبريقًا من الشاي، فينسجمون في المسلسل مأخوذين بجمال الأبطال وقصة المسلسل المثيرة بينما يتملكهم خوف من وصول والدهم في أي لحظة فينتقد كعادته تعلقهم المرضي بهذا المسلسل السخيف.

وما إن ينتهي المسلسل حتى يتصل ناجي من حلب مع أخوه قيس على التلفون الأرضي ليتغزل بجمال كساندرا "ولي عليي ما أحلاها، شفلي مايا عندها هيك رفيقة حلوة تزوجني ياها" فينقل قيس الكلام لمايا التي تضحك وتقول "ماعندي والله هيك جمال"

"يلعن إخت حظي، لماذا لا نملك هكذا جمال في سوريا، أحلم يوميًّا بأن تزورنا في المستشفى مريضة بهذا الجمال فأقع في غرامها "

يضحك قيس "أين أخلاق الطبيب يا ناجي"

فتضحك معه مايا وترفع صوتها كي يصل لناجي عبر سماعة الهاتف التي يمسكها قيس بيديه "صايع كعادتك يا ناجي، متى ستعقل ك قيس ؟"

ينقل قيس الكلام لناجي الذي يقول

- ياما تحت السواهي دواهي- من قال لك إن قيس عاقل!؟

تنظر مايا بعيون قيس "عنجد؟"

يجيب قيس خائفًا " أتصدقينه؟"

- كيف لا أصدقه وهو أخوك ويعرفك أكثر مني

- لكنك حبيبتي وكل حياتي

- كاااااذب .... يصيح ناجي عبر سماعة التلفون الأرضي فيغلق قيس بوجهه الخط قائلًا

- هيا اذهب ابحث عن كساندرا أحلامك في شوارع حلب واتركني مع كساندرا حياتي الحلوة .

أمل – عندما تصبح الحياة قبرًا

تذبل الورود الجورية، وتظهر أعراض ذبولها بوضوح للجميع، تبدأ بتجعد الأوراق، ونقص سماكتها وتنتهي بإصفرار لونها كليًّا قبل تحولها للبني وعندها نعرف جميعًا أن الوردة قد ماتت.

ولكن من ينتبه لأعراض ذبول الفتيات، الفتيات اللاتي يُخلقن مفعمات وممتلئات بالحياة، ليحدث ولسوء حظهن أن يرتبطن برجل يسرق الإبتسامة من عيونهن، والرونق من خدودهن، فيذبلن تمامًا كما الوردة الجورية، تشحب وجوههن، ويتوقف إحساسهن باللحظة الحالية فيعشن إما بالماضي الجميل أو يحلمن بمستقبل بعيد عن حياتهن فيفقدن حرفيًّا نكهة الحياة ومعناها وينصهرن مع الحزن ويتوحدن معه حتى يصبح الحزن كحل لعيونهن وقلوبهن.

الفرق بين الفتاة والوردة هو أننا كبشر نلحظ تغيرات الوردة ونسميها ذبولًا، لكننا لا نلحظ ذبول الفتيات ولا نعترف حتى بوجوده .

ذَبلت أمل، بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى، انطفىء الشعاع الجميل في عينيها، لم يعد لضحكتها من صدى ولا لابتسامتها من معالم، بهتت وانغلقت على نفسها واستمرت بالحياة دون أن تسمح للحياة بأن تحيا حقًا بداخلها .

لقد ارتبطت برجل، رغم حديثها عن محاسنه في بعض الأحيان، إلا أن

ارتباطها به كان مأساة لا تغتفر، تعيش معه بكوكبان منفصلان، هو غارق بجهله وقناعاته المتحجرة، وهي غارقة بهمومها.

تعيش معه في منزل واحد لكن روحها تحلق في مكان آخر مع شخص آخر، شخص كان وسيبقى رفيق روحها الوحيد.

وبينما تكمل معه الحياة غير آبهة بتفاصيلها، استمرت بزيارة الأطباء محاولة إنجاب طفل تسكت به إخوتها، والدتها وزوجها الذي لا يكف يتذمر عن تأخرها بالإنجاب.

فيينا – سبتمبر 2022

كنت في موعدي المعتاد مع سام في أحد مقاهي فيينا، ولكني كنت متعبة نفسيًّا لدرجة غريبة دون أن أفهم أسباب كآبتي، حزينة على كل سوري في هذا الكوكب، وحزينة على نفسي قبل كل شيء.

أنا التي عشت حياتي سعيدة بكل إنجازاتي الصغيرة منها قبل الكبيرة، سعيدة بأولادي وحياتي الهانئة، كنت أشعر يومها بالكآبة، فَرُحت أتنهد كعادتي بصوت عالي وكأني أختنق تحت جبل من الهموم.

كان الطقس باردًا في فيينا، وكانت تمطر دون توقف، عندما رآني سام صدمه منظري فسألني عن أسباب الحزن الذي تعرش على وجهي كعريشة عنب على جدار قديم، لم أجد ما أقوله له سوى " لا أعرف "

- تكلمي حلي، أكل شيء بخير؟

- كل شيء بخير لكني حزينة

- لماذا؟

زممت شفتاي وحاولت تغيير مشاعري

- أظن أن مشاعري ستتحسن إن تناولت قطعة كيك مع فنجان القهوة

- لعينيك أطيب قطعة كيك بالجزر المفضلة لديك

- لا . . . أريد كيك الشوكولا

مستغربًا رغبتي بالشوكولا ، هز رأسه ابتسم "تكرمي !"

نادى على النادل وطلب لي كعكة بالشوكولا وكانت تلك المرة الأولى التي أشتهي بها الشوكولا .

تنهدت مرة ومرتين وثلاثة بينما يراقبني بعينيه دون كلام، عندما جاءت الكابتشينوا والكيك بدأت بتناول الكيكة بشهية وما إن انتهيت حتى قلت له :

- أشعر بالاختناق، أشعر بأني سلحفاة صغيرة تحمل منزلها الكبير فوق ظهرها وقد أثقلتها همومه ولكنها تعجز عن الهرب وعليها أن تتابع السير معه، أتمنى لو أهرب لو أعيش

صُدم سام بكلامي فهو لم يفهم معناه كما لم أفهمه أنا، فتابعت كلامي

- أنا حزينة لأني سورية، سورية قد تمكنت من الهروب، من السفر والعمل، ورغم ذلك مازلت عاجزة عن تغيير شيء في الكون

- ليس مطلوب منك أن تغيري شيئًا في الكون

- من سيغير إذًا ؟!

- القادة، أصحاب النفوذ والمال، ليس نحن من نغير الأشياء يا حلي . . . نحن نقبلها كما هي . . . قد نكون محظوظين إن تمكنا من تغيير حياتنا

- كان لدي الكثير من الأحلام الكبيرة عندما كنت ابنة العشرين، ولكني الآن أدركت أني عاجزة عن تحقيقها، لقد حلمت بأن أصنع شيئًا جميلًا لبلدي

- ما هو هذا الشيء؟ تكلمي دعيني أشاركك أحلامك

- كان لي حلم فيما مضى عندما غادرت سوريا، بأن أصبح غنية، فأبني مدرسة كبيرة في قريتنا في جبلة، مدرسة تدرس الأولاد باللغة الإنجليزية والعربية، مدرسة تعلمهم الرقص، الموسيقى والمسرح، أتمنى لو يحظى أبناء شعبنا بفرصة التعلم الصحيح كي يصبحوا واثقين بأنفسهم، قادرين على تحقيق ذواتهم وأحلامهم، ويصبح لدينا جيل فنان، جيل يرسم لوحات فنية على كل الجدران المحطمة، جيل يفهم الموسيقى بلغاتها، جيل قادر على إيصال صوته لكل العالم، جيل يهدم العشوائيات في سوريا ويبني مجمعات سكنية تليق بنا، جيل يجعل من سوريا ما تستحق أن تكون، في كل دول العالم هناك فن وجمال، وفي سوريا أيضًا ولكننا كجيل لم نر من سوريا إلا الحرب والدمار، مذ كنا صغارًا وحتى اللحظة.

استمع سام لي باهتمام

- أنت أغرب إنسانة رأيتها في حياتي

خجلت من النظر في عينيه فزممت شفتاي وحدقت في أرجل الطاولة التي أشبك قدمي تحتها، تنهدت للمرة المليون.

- أيعقل أنك لا تري الجمال في حارات دمشق، الزواريب الضيقة التي غالبًا ما تحدثيني عنها وتشتاقين لها، البيوت العربية القديمة، الجدران العالية السقف واللوحات الفُسَيْفُسَائية التي تزينها، النوافذ الخشبية، والسقف المزخرفة بدقة مذهلة، هل نسيتي كل ذلك يا حلي؟

خجلت من سام ولكني أجبته

- أعشق كل ما هو قديم في الشام، كل جمالها قديم، أنا أحلم بمستقبلها، أحلم بأن تصبح أجمل مما كانت عليه .

ارتشف سام من فنجان قهوته وسألني " متعصبة أنتي لقريتك؟ لذلك قلت بأنك ترغبين ببناء مدرسة في قريتكم وليس في دمشق؟"

ضحكت ضحكة صاخبة وكأنه ألقى نكتة

- لم أنتبه لكوني متعصبة ولكني بدوت كذلك من كلامي، في الحقيقة أنا أشعر بالحزن على أبناء القرى، خصيصًا أن معظمهم أصبحوا من أولاد الشهداء، لقد عاشوا ظروفًا صعبة، دون أن يحظوا بأي اهتمام، فيما مضى وأقصد في أيام العز، كان حلم أحدهم أن يصبح ضابطًا أو موظف في الدولة، وإن كان ذكيًا يحلم بأن يصبح طبيبًا، أو مهندسًا... جميعهم لديهم الأحلام ذاتها، تمنيت لو يأتي أحدًا يهتم بمواهبهم، يساعدهم كي يكتشفوا الحياة ويدركوا أن بها ما هو أجمل بكثير من حياة الجيش ووظيفة الدولة. الميزة الوحيدة لهذه الحرب البشعة أنها جعلتهم وأخيرًا يحلمون بالهجرة والسفر،

لعلهم بذلك يدركـون كم هي جميلة الحياة .

كنت أتابع حديثي بينما كان سام يجلس ساندًا خده على باطن يده محدقًا بي، شعرت بالخجل والحب فقررت أن أصمت فقال:

- تابعي، يسعدني حديثك وأنا محظوظ لأنك رفيقتي

تابع كلامه بينما شردت في كلمته "رفيقتي" فاضطربت مشاعري، وشعرت بسعادة لحظة أنستني كآبة الصباح وهموم الوطن التي لن تنتهي.

الجدة -1996 - دمشق

أن تظنّ أن الهموم تنتهي بوقوع أكبرها، أو أن الحياة قد تكف عن خلق المشكلات فأنت بلا شك على خطأ.

أن تعيش يعني أن تختبر يوميًا مزيجًا من كلّ ما يمكن للحياة أن تعطيه أو تأخذه، بدءً بالحب والرضا انتهاء بالفقد والمعاناة، لن يتوقف هذا الدفق المضطرب من كل ماهو جميل ومرّ في آن معًا إلا بتوقفنا عن التنفس.

هذا ما كانت تعانيه الجدة، التي علمت بأن دماغها لن يتوقف عن القلق ما دام حيًا وهذه حقيقية يجب أن تتعايش معها، لذلك وفي ذلك الصباح الهادئ من يوم الجمعة من شهر أوكتوبر، كانت تجلس بمفردها في فسحة دارها الصغيرة في المزة، وسماء الخريف تزين سقف فسحتها السماوية، ونسماته ترتطم بخديها المكتنزين، بينما تحاول كعادتها إيجاد حل لمشكلة ما.

قالت لنفسها

- من قال أن هم البنات للمات هو بلا شك على حق

كان هم أمل هو ما يشغل بالها ذلك الصباح، فهي لا تعرف متى سينعم الله عليها بالأطفال كي يطمأن قلبها وعقلها، ولأن الجدة لا تقبل بالانتظار كحل، اتخذت قراراها في ذلك الصباح الخريفي من شهر تشرين، ارتدت سترة صوف رمادية فوق فستان كحلي منقط بالأبيض وغطت شعرها

الرمادي بشال أبيض حريري كانت قد أهدتها إياه أمل في نزهتهم الأخيرة إلى الحريقة برفقة ليلى وحلي، حيث اعتاد الرباعي على الذهاب كل يوم جمعة إلى الحارات القديمة حيث يسيرون من باب شرقي باتجاه باب توما مرورًا بكنيسة حنانيا التي لطالما أذهلت الجدة بقدمها وبرودة جدرانها وقصة القديسين الذين عبروا بها، تضيء ليلى الشموع وتدعو لله بأن يحمي أولادهم، بينما تدعو الجدّة بأن يرزق الله ابنتها أمل ولدًا يُزَيِّن حياتها، ثم يتابعون السير باتجاه السيدة رقية حيث يدخلونها متدثرين بثوب أسود طويل يمكن استعارته من مدخل المسجد، فتصلي الجدة هناك برفقة ليلى وأمل صلاة الظهر بينما تراقب حلي مشاهد الزوار الذين يقصدون السيدة رقية من شتى البلدان وعيونهم مصبوغة بالحزن والترقب منتظرين من الله أن يستجيب لصلاتهم ودعائهم، وبينما تنشغل الجدة وبناتها بالدعاء لله ذاته الذي دعوا له في الكنيسة تستمر حلي بمراقبة الناس والمقارنة بين من رأتهم في الكنيسة وأولئك الذين رأتهم في المسجد، جميعهم يتشابهون ويدعون لله نفسه إلا أن العباد في المسجد أشد حزنًا وكأنهم يحتاجون الدمع والحزن كي يتواصلو مع الله على عكس أولئك في الكنيسة الذين باعتقادها يمارسون طقوس عبادتهم بطريقة مبهجة وتثير الفرح في القلب.

تبكي أمل في كل مرة تجلس فيها في مقام السيدة رقية ولكن بكائها يبقى مكبوتًا صامتًا لا يشعر به إلا الله، إلا أنَّ حلي تلاحظ حزن خالتها وتشعر به فلطالما استشعرت بالناس وتعاطفت مع كل من هم حولها.

يتابعون سيرهم نحو قهوة النوفرة حيث يشربون الشاي معًا أو يتناولون الشاورما من أحد المحال التجارية في الطريق قبل أن يصلوا الجامع الأموي حيث يرتدون العباية البنية اللون ويدخلون المسجد الكبير من بابه الخلفي ويتجولون به أسبوعيًا دون أن يملوا وإن كان الحظ حليفهم يصلونه قبل إقامة صلاة الجمعة فيستمعون لخطبة الخطيب.

وتنتهي نزهتم دومًا بالحميدية أو الحريقة حيث يشترون البياضات والمناشف أو الزهورات من سوق العطارين وغيرها من الأشياء التي تخطف القلب في تلك الحارات الضيقة التي قد لا يصلها نور الشمس لكن نور الله يملئ قلوب سكانها.

في ذلك الصباح الباكر من شهر أكتوبر وبينما كانت أمل مشغولة في المطبخ بتنظيف صحون الإفطار، وزوجها يستعد للذهاب للورشة، طرق باب المنزل، تركت أمل الجلي من يدها، غسلت يديها بالماء وجففتهما جيدًا ثم اتجهت نحو باب المنزل لترى من القادم، وعندما فتحت الباب فوجئت برؤية والدتها التي نادرًا ما تزورها.

جلست الجدة وابنتها وصهرها مدين الذي دخل ورحب بها مستغربًا زيارتها المفاجأة، ولأن الجدة صريحة كعادتها، بدأت بحديثها مباشرة

- لن أماطل في حديثي لأني أرى في عيونكم الاستغراب من زيارتي، ولكني متعبة وقلقة وأريد منكم أن تخبروني بصراحة سبب عجزكم عن

الإنجاب، في كل مرة أسأل أمل تخبرني بأنها تزور الطبيب لمساعدتها وتقول لي (الله كريم)، أنا مؤمنة بكرم الله ولكن الله يطلب منا أن نعقلها ونتوكل، لذلك عليكما أن تذهبا معًا لزيارة الطبيب قبل أن تندموا

جلست أمل هادئة كعادتها دون أن تعطي أي رد فعل، إلا أن مدين تدخل

- والله يا خالتي نحن نحترم خوفك ونقدر لهفتك أيضًا ولكن الموضوع بيد الله واعذريني لكني لا أومن بقدرات الأطباء الخارقة

امتعضت الجدة من كلام صهرها، فنظرت في عيني ابنتها وقالت لها "أريد فنجانًا من القهوة"

تحركت أمل باتجاه مطبخها بينما بقيت الجدة تحدق بعيني صهرها، فنظر إليها بدوره – نعم يا خالتي

تنهدت الجدة

- لماذا ترفض زيارة الطبيب، أنت بمقام ولدي ولو أن عدنان يتصرف كما تتصرف لتدخلت وأقنعته بأن يُحَكِّم عقل

- لقد زارت أمل العديد من الأطباء وجميعهم أكدوا أن الوقت سيحل المشكلة

- أنا أؤيدك ولكن عليك أيضًا أن تستشر طبيبًا، لا عيْب في استشارة الطبيب، مشكلة كبيرة قد يكون حلها بسيطًا جدًا

امتعض مدين من حديث الجدة دون أن يتكلم

- يا خالتو، يا حبيبي، أنت من زينة الرجال ولذلك وافقت على تزويجك لأمل وأنا مؤمنة بأنك ستسندها وتقف في ظهرها وتحميها، والحياة من دون أطفال تفقد معناها

- أمل طلبت منك أن تقنعيني بزيارة الطبيب

- لا والله، لقد مضى على زواجكما أربع سنين وأنا متأكدة من أنك أصبحت تعرفها، لها فم يأكل ولا يتكلم

صمتت الجدة قليلًا ثم أضافت:

- يا خالتي، قد يكون الموضوع بسيطًا للغاية، ولكنك تستمر في تأجيلة وتكبيره وتضخيمه، زر أي طبيب قد تثق به ولا تؤخر متعة الحصول على أطفال، تخيل نفسك تحمل صبيًّا صغيرًا من لحمك ودمك، لا تؤخر نعمة كهذه!

هز مدين رأسه دون أن يجيب، فوقفت الجدة واتجهت نحو مكان جلوس مدين وقبلته من جبينه " عيني قلبك"

في تلك اللحظات دخلت أمل نحو غرفة الجلوس ورأت والدتها تقبل جبين مدين، لكنها لم تبدي أي رد فعل لما رأته بل قدمت القهوة وبقيت ساكنة كعادتها.

ليلى- 1996

الحب، لن يتصف الحب بوصف واحد مهما حاولنا تعظيم شأنه، فهو العين التي تغشى عن الحقيقة في معظم الأوقات، هو القلب الذي ينبض مضطربًا من غير دقة ولا انتظام، هو القلق، هو التضحية، هو أن تسعد من دون سبب وجيه، أن تهب قلبك من غير مقابل وأن تمنح حياتك للغريب .

كانت ليلى قد عاشت الحب بكل تفاصيله منذ نعومة أظافرها، كانت قد تيمت حبًا ب عمار فمنحته القلب والروح وكل ما يربط بينهما، ورغم الألم والقسوة إلا أنها لم تتوقف يومًا عن حب ذلك الرجل الذي خسرت لأجله الكثير وكسبت في الوقت نفسه ماهو أكثر بكثير، خسرت نفسها وكسبت أولادها، خسرت طفولتها واختبرت الأمومة في سن صغير.

هي لن تنكر أنها عشقت عينيه اللوزيتان، جسده النحيل، كرمه المفرط مع كل غريب وقريب، لكنها كرهت فيه ماهو أكثر، شكّه الغير مبرر، أفكاره اللاعقلانية، مزاجيته وقدرته الغير مسبوقة في تحطيم السعادة وتهشيم عظامها.

لقد كان عمار شخصًا عصيًا عن الفهم، لا يملك نسقًا واحدًا للحياة ولا يسلك طريقًا واضحًا، بل كان متعدد الوجهات ومضطرب المشاعر، يحب ويكره في آن، يمتدح ويذم في آن، يرفع من شأن الآخر ويحط من شأنه في الحديث ذاته وفي المناسبة ذاتها، وهو ما جعل ليلى تخشى من أن تفتح أي

حديث بقربه وكذلك كان أولادها دائموا الصمت بقربه، يجيبون عن أسئلته عن الدرس باقتضاب ويعملون جاهدين على ألا يتواجدوا معه في الغرفة ذاتها لأكثر من خمس دقائق تجنبًا للمشاكل.

في الأسبوع الأول من شهر آذار، يوم الجمعة، استيقظت ليلى على آذان الصبح كعادتها، صلت الفجر ثم أعدت لنفسها فنجانًا من القهوة وجلست في غرفة الجلوس تشرب القهوة وتأكل قطعة من المعمول المحشي بالفستق الحلبي، كان الطقس جميلًا وكانت تتمنى لو أن عمار يستيقظ باكرًا ويذهب إلى عمله كي يتسنى لها الذهاب لزيارة الجدة، لكن عمار لا يستيقظ باكرًا في العادة لذلك كان عليها أن تشغل نفسها بترتيب المنزل، إعداد الفطور ل حلي وداني وغيرها من الأشياء في انتظار استيقاظه ومغادرته المنزل.

وبينما كانت تجلس مع أولادها حلي وداني في غرفة الجلوس يتناولون الإفطار ويتابعون مسلسل سوري على القناة الأولى، أخذ داني يتشاجر مع حلي ويناكدها على أبسط التفاصيل وهي شجارات اعتادت عليها ليلى وتعايشت معها.

وما إن استيقظ عمار حتى توقف داني وحلي عن الشجار بانتظار والدهم للانضمام إليهم على طعام الفطور، التزموا الصمت كعادتهم ريثما يتبينوا مشاعر والدهم الصباحية، أهو سعيد أم منزعج.

استمروا بتناول الطعام بينما راح والدهم يستفسر عن دراستهم وعن المدرسة، محذرًا إياهم كعادته من أصدقاء السوء، وهي عادة عند عمار فهو لا يكف عن الكلام عن أصدقاء السوء وضرورة الحرص من أصدقاء السوء، بينما تهز حلي رأسها له موافقة على كل كلامه وكذلك يفعل داني .

أنهيا فطورهما واتجها نحـــو غرفتهم تاركين لوالدتهم مهمة جمع الصحون وتنظفيها كالعادة.

قلب ليلى كان منقبضًا كعادته لوجود زوجها بقربها، شرايينها متقلصة وأعصابها مشدودة، تتنفس بحذر وتخشى أن يعلوا صوت نفسها فيثير شكه أو غضبه، لا تتلكم أبدًا إلا ما ندر، كأن تسأله عن قسط مدرسة حلي أو تسأله المرور بمحل السمك بما يناسب وقته لأن الأولاد يشتهون السمك، وأسئلة كهذه الأسئلة واضحة ومعروفة الغاية وضرورية، لا تسأله أبدًا عن عمله كي لا يعتقد بأنها تتجسس عليه، لا تسأله عن عائلته كي لا يعتقد بأنها تغار منهم أو تكرههم، لا تسأله بأن يأكل أكثر ولا ما يشتهي أن يأكل على الغذاء لأنه يؤمن أن الطعام ليس للذة بل ضرورة للاستمرار بالحياة لذلك لم يتذمر يومًا على نوع الطعام ولا على نكتهته بل حتى أنه لا يأكل إلا ما ندر لذلك وبمرور السنين بقي عمار نحيلًا للغاية بالدرجة نفسها التي بقي فيها عصيًا عن الفهم .

في ذلك اليوم من آذار، بقي عمار جالسًا في غرفة الجلوس يتابع الأخبار فاضطر داني وحلي على البقاء بغرفهم بينما انشغلت ليلى كعادتها بتنظيف

المنزل ثم التحضير لطعام الغذاء، وعندما جاء موعد الغداء، دخل داني وحلي إلى المطبخ حيث والدتهم تعد الطعام.

- أمي، ألن يغادر بابا المنزل اليوم؟

- والله لا أعرف يا ماما

- يا الله، يبدو أنه لن يذهب للعمل اليوم ... تذمرت حلي

- والدكم هذا ومن حقه أن يجلس يومًا في المنزل ... أجابت ليلى

- إن بقي سيكون يوم القيامة قد اقترب لأنه لم يفعلها في حياته أن يبقى في المنزل دون عمل ... أضاف داني

- اذهبوا إلى غرفكم واقرأوا شيئًا

نظرت حلي في عيني والدتها بينما تقطع البصل الأخضر لتحضير السلطة

- ماما، سيبدأ كساندرا بعد ساعة، إن لم يذهب بابا لن نتمكن من متابعة الحلقة

ضحكت الأم

- عندما يبدأ المسلسل، ادخلوا إلى والدكم وتابعوه معه

تغيرت ملامح داني وحلي

- كيف يمكننا أن نحضر كساندرا مع بابا، أتريدينه أن يقتلنا ؟!

- ماما، ما رأيك بأن أذهب مع داني لنتابع المسلسل في منزل قيس ؟

سألت حلي

- طبعًا يمكنكم الذهاب

- ماذا ستقولين ل بابا

أجابت ليلي ببرود

- سأخبره أنكم ذهبتم لزيارة قيس

أضاف داني بتوتر

- ماما، أجننتي! يجب أن تجدي حجة مقنعة

- أنتم اذهبوا وسأفكر بحل

- يا الله يا أمي، كم أعصابك باردة، ماذا إن أنفجر فيك غضبًا

تركت الأم البصل من يديها وتنهدت

- ماذا تريدون، لقد أنهكتموني بالزن، اذهبوا وسأجد حلًا

نظرت حلي في عيني داني منتظرة رؤية موافقته

- هيا بنا نرتدي ملابسنا

- لن أترك ماما وأذهب

تذمرت حلي

- أنت من اقترحت تلك الفكرة، الآن تحولت لحنون!

تغيرت معالم داني وتحول للوجه الحازم الذي لطالما استخدمه مع حلي لإسكاتها

- لن أذهب... انتهى الحديث

- وأنا لن أذهب أيضًا

وقفت ليلى تتابع مشهد ولديها اللذين مهما طالت قاماتهما يبقيان طفليها الصغيرين المدللين.

في غرفة الجلوس كان عمار وللمرة الأولى في حياته يجلس شاردًا لساعات طويلة، هو الذي لم يجلس يومًا لساعة واحدة متواصلة ولم يمر به يوم إلا وذهب فور استيقاظه للعمل، كان يومها شارد الذهن، ولكنه وقبل موعد عرض مسلسل كساندرا بدقائق دخل نحو غرفة أولاده نظر إليهم فوجد حلي مستلقية على السرير وبيدها كتاب من كتبها المدرسية، بينما يجلس داني على طاولته يلعب بالألعاب الالكترونية – الأتاري التي اشتراها له خصيصًا من لبنان، نظر عمار نحو أولاده وضحك ضحكته التي تعكس مقدرته على قرائتهم

- هيا، تحركوا لمتابعة التلفاز فأنا ذاهب إلى العمل

تبسمر الولدان في مكانهما دون حراك.

- أتحتاجان لأي شيء... أضاف عمار

- سلامتك بابا

- حسنًا، سأغادر الآن وأترككم تتابعون مسلسلكم الذي تنتظرون متابعته منذ الصباح .

لم يجب داني أوحلي، لم يبتسما بل استمروا بالصمت

- ما كان اسم المسلسل؟

لم يتجرأ داني على الإجابة فتشجعت حلي وابتسمت وقالت " كساندرا"

ضحك عمار متجهًا نحو باب المنزل، مودعًا أم قيس

- أتريدين شيئًا يا أم قيس

- نريد سلامتك فقط ... أجابت أم قيس

- ادعيلي

- الله يرزقك ويفتحها بوجك

ثم أكملت أم قيس الدعاء بقلبها للرجل الذي أحبته يومًا ولم تتوقف بعدها عن حبه.

ما إن خرج عمار من المنزل حتى قفز داني وحلي نحو غرفة الجلوس مستعدين لمتابعة كساندرا.

فيينا - 2023 – نهاية شهر كانون الثاني

الطقس الشتوي يبعث على الحب، هذه قناعتي منذ نعومة أظافري، كيف إن عشت الشتاء في فيينا، حيث يسكن الكون مبكرًا، وينام الحي مبكرًا وتبقى وحيدًا في الليالي الباردة تبحث عن الدفء في الذكريات التي صنعتها يومًا أو تلك التي تحلم بصنعها .

لطالما بعث الشتاء في أوروبا على الكآبة في قلوب ساكنيها، فالليل طويل والصمت طويل، إلا أنني لم أشعر بالكآبة يومًا لأني أعشق البرد والصمت والهدوء.

في ذلك الشتاء تطورت علاقتي مع سام فأخبرني للمرة الأولى بأنه يعشقني حدّ الجنون وبأنه يرغب بي كلي، وكان للشتاء ولأغاني أم كلثوم دوره الكبير في تطور مشاعرنا فقد تمكنت الرغبة منا وغرقنا معًا في الحب بأشهى صوره، نسهر يوميًا على أم كلثوم ونستمع لأغان من عصر آخر:

" وإن كنت أقدر أحب تاني ... أحبك إنت

كل العواطف الحلوة منك ... كانت معانا حتى بخصامنا

وازاي تقول أنساك واتحول ... أنا حبي لك أكتر من الأول أكتر من الأول"

وبينما نعيش الحب بكل مشاعره القديمة التي ربما لم نعشها قبلًا أو لم

نختبرها بقوتها كنت أتخيل نفسي مع سام في سرير واحد، وأتخيل الجنس بقربه.

الجنس...الرغبة المدفونة، لم أفهم يومًا ما يعنيه أن يكون للجنس حضور حقيقي في حياتنا، وأنا التي عشت في بلد كسوريا، بلد ملتزم.

وأنا التي ولدت لدى أسرة مضطربة كأسرتي، أمي التي تحتقر الجنس وتعتبره اللعنة التي تدفع زوجها ليخونها مع كل نساء الأرض.

ولأني عشت حياتي وحيدة، ما من إخوة بنات يشاركنني مراهقتي وشبابي، مامن صديقات مقربات أتحدث إليهن عن المواضيع الحميمية التي تشغل الفتيات، فكنت وحيدة في مراهقتي وشبابي مقربة لوالدتي فقط مؤمنة أن الجنس لا يعني شيئًا وبأنّ ليس له أي ضرورة في حياتنا...

وعندما تزوجت، كنت وزوجي في الفراش، كغريبين، غريبين فكريًا وجسديًا فانتظرت من الجنس أن يكون مليئًا بالعاطفة واللهفة والحنان، بينما كان للجنس في نظره مفهوم مختلف مرتبط بالمتعة الخالصة.

وهكذا لم يكن للجنس وجود معنوي في حياتي حتى بعد زواجي، فتجاهلت أهميته ولم أدرك إلا متأخرة أن الجنس حاجة وأنه ضروري لسلامة حياتنا.

استغرقت سنينًا كي أتصالح مع جسدي وأفهم احتياجاته، كأن أسمح له بأن يفسر حالته المزاجية، كأن ألاحظ متى أكون سعيدة ومتى لا، متى

الحب ومتى لا.

أصبح جسدي مع السنين واضحًا بالنسة لي فأعرف تمامًا متى اشتهي زوجي ومتى أنفر منه، وهي أمور نكتسبها مع الأيام ومع المراجعات الكثيرة لطبيب النسائية الذي يخبرنا بيوم الإباضة ومتى ينبغي لنا أن نمارس الجنس لنرزق بالأولاد، وبعد سنين تبين لي أن يوم الإباضة هو اليوم الذي أشتهي فيه الجنس وبشدة...

ولأني كنت يومها في ذلك اليوم من الشهر، ولأن سام بكل مشاعره وكلامه العذب وحبه متوفر في حياتي ورهن إشارتي ولأني أشتهي الحب أكثر من أي شيء آخر ولأن الجنس حاجة مثله مثل الحاجة للماء والطعام ولأنني أنثى قررت أن ألتقي سام في أحد أوتيلات النمسا ...

وفي 1 شباط 2023، في يوم شتوي بارد، يبعث الرغبة بالحب، حزمت ما أحتاجه لإمضاء ساعتين مع سام في فندق صغير في النمسا، لانجري من الدانتيل الأسود، مرتدية فوقه فستانًا أسود قصير ومتلحفة بالجاكيت الأسود الفرو، وانطلقت بسيارتي نحو وجهة واحدة وهي الحب بأعمق وأجمل أشكاله، مقتنعة أني لا أخون زوجي بقدر ما أخون سنين الجفاء التي عشتها بقربه.

في غرفة صغيرة، ينتصفها سرير أبيض وتظللها ستائر ذهبية، وتخلو جدرانها من أي شيء إلا لوحة كبيرة لجبال الألب، كنت أجلس بالقرب من

سام، أسند ظهري إلى صدره وأحتسي معه كأسًا من النبيذ.

كانت تلك نزهتنا الأولى الخالية من الكافيين، حيث كنا على استعداد بأن نحصل على الدوبامين -هرمون السعادة- من منبعه الأم لا من مصادره الثانوية، أمضينا ساعة من أجمل الساعات في حياتي، جسدان ملتصقان يتحدثان عن الحب والحياة، ينبضان حبًّا قبل أن ينبضا رغبة، ولأول مرة سمحت لتفكيري بأن ينام ولضميري بأن يدفن نفسه تحت أعماق الأرض بينما سمحت لمشاعري كلها أن تتأهب وللرغبة بأن تشتعل حارقة حولها كل ما بنيته من قناعات لسنين...

ورحت أفكر بينما يحدثني سام عن حياته، ليس هناك ألذ من الجنس بين اثنين لا يبنيان لما بعده أي توقعات، فلا ينتظران منه أن يشفي علاقة حبهما القاحلة ولا أن يرزقا بطفل ولا أن يشترك فيه أحدهما فقط لمسايرة رغبات الآخر وخوفًا من جرح مشاعره، جنس خالص لأجل الحب.

وقبل أن ننتهي من الكلام وقبل أن نبدأ بما قررنا البدء به، استيقظت من غيبوبتي فوقفت فجأة وتركت سام دون كلام أو تفسير أو اعتذار ركضت خارجة من باب الغرفة ومنها إلى خارج الأوتيل.

ركبت في سيارتي مضطربة واتجهت مباشرة نحو اللامكان...

لم أتمكن من خيانة زوجي، لم أتمكن من خيانة أولادي، ما إن ركبت في السيارة حتى تدفقت ذكرياتي وخوفي القديم من الإرتباط برجل كأبي دون أن

أدرك أني أحمل مورثات أبي في دمي وأني أنا الخائنة .

أوقفت سيارتي على بعد حارتين، أوقفتها وأجهشت بالبكاء.

عدنان- 1998 - هناك

من يحارب الحب حتى قبل بدءه

يرث الإنسان من والديه، لون شعره وعينيه، عرض أكتافه وشكل خديه.

ليس هذا فقط، بل يرث أيضًا مخاوفهم، نظرتهم للحياة، طريقة تفكيرهم وقناعاتهم وهي مورثات تكاد تكون أكثر فتكًا من الأمراض الوراثية التي نخشاها جميعًا.

كانت الجدة تزداد فخرًا يومًا بعد يوم بولدها عدنان، عدنان الذي حولته البدلة العسكرية من شخص كئيب يلازم الفراش لشخص ذو هيبة وحضور، يسير في الحي ببدلته العسكرية معتزًّا بنفسه، فيلقي تحيته على الجيران مبتسمًا، ورغم رضاه الداخلي عن كونه ضابطًا إلا أنه لم يشكر والدته يومًا لإجباره على الانضمام للكلية الحربية، هو لم يشكرها لا لأنه ينكر الجميل بل ببساطة لأنه نسي الماضي بكل تفاصيله، كما ننسى جميعنا الماضي وندّعـــي أننا لم نصل لما نحن عليه إلا بجهدنا و ذكاءنا.

وهكذا تدرج عدنان بالرتب العسكرية من ملازم إلى ملازم أول إلى رقيب، ومع كل ترفيعة كانت تذبح الجدة الأضاحي كي يحمي الله وحيدها، وتوزع قطع اللحم على أولادها أولًا ثم جيرانها ثم الفقراء.

وفي أحد أيام الخريف من شهر أيلول من عام ١٩٩٨ حدث ما هو أجمل

بكثير من الرتب العسكرية في حياة عدنان فنبض قلبه للمرة الاولى.

كما تجري العادة من كل عام في موسم قطاف الزيتون، تسافر الجدة إلى قريتهم في الساحل يرافقها عدنان، وبينما يتجول عدنان في القرية بحثًا عن عمال لمساعدته ووالدته في قطاف البستان، وقعت عيناه على فتاة في غاية الجمال، كانت تدعى ربا، وترتدي فستانا أحمر منقش بالورد الأبيض، وشعرها الكستنائي الطويل يتموج حتى خصرها، بينما تنحني أمام فسحة دار أهلها تكنس الأرض من أوراق دالية العنب المتساقطة، وما أن عبر بها حتى استقامت ونظرت في عينيه، فذاب قلبه لجمال عينيها العسليتين اللوزيتين.

سألته بينما يحدق إليها

-أتريد شيئًا؟

ارتبك عدنان لرؤية الفتاة فلم يعرف ما يقول، فالتفت وعاد أدراجه مسرعًا نحو منزلهم، استغربت الجدة عودته المسرعة فسألته

- أوجدت عمالًا لمساعدتنا

فأجاب بارتباك، تحدثت لشابان من سوق الخضار سوف يرافقوننا في الصباح الباكر نحو (الوطى) البستان

وكانت أرض الزيتون التي تملكها الجدة تقع في أرض منخفضة لذلك يدعونها بالوطى.

لم يتمكن عدنان من منع نفسه عن العبور مجددًا بمنزل تلك الفتاة، وفعلا بعد ساعة من الزمن ارتدى بدلته العسكرية وعلق عليها الرتب، ثم انطلق نحو رأس التلة حيث يقع منزلها.

لم تحتج الجدة لمن يخبرها بأن عدنان مغرم بإحداهن فهي على درجة عالية من الذكاء والفطنة تمكنها من قراءة وجوه الغرباء، كيف إن كان وجه ابنها هو الذي تقرأه؟

تركت الجدة ل عدنان حرية الذهاب والعودة طالما أنه لا يتلكىء أو يتكاسل في عمل الأرض، لا بل إنها وجدت فيه همة لم تعتدها في ذلك العام فقد تحمل مسؤولية المحصول وتعامل مع العمال برجولة كبيرة جاعلا من موسم القطاف ذلك موسمًا ناجحًا.

عندما جمعت الجدة المحصول، وفرزته إلى زيتون للعصر وآخر للرص، وتمامًا في اليوم الذي حمل فيه عدنان المحصول إلى المعصرة لاستخراج زيت الزيتون، قرر أن يحدث والدته بموضوع ربا.

عاد من المعصرة مساء، وجلس يحتسي الشاي مع والدته التي كانت تجلس على كرسي تحت دالية العنب التي تعتلي الفسحة السماوية من منزلها بينما يضيء القمر سماء ذلك المساء، وبينما تستمع الجدة لصوت أم كلثوم على إذاعة مونتكارلو نظرت في عيني عدنان

- أتريد أن تقول لي شيئًا

ارتبك عدنان

- لا أبدًا

- ألست مغرمًا بإحداهن؟

- تغيرت ملامح وجه عدنان الذي لم يسمع جملة بجمال تلك الجملة من والدته

- الله كريم

ضحكت الجدة وأخفضت صوت المذياع

- أخبرني إن أعجبتك أي فتاة من القرية فأذهب لخطبتها غدًا

نظر عدنان في وجه والدته وبالقدر نفسه من الفرح الذي اعتلا قلبه في تلك اللحظة اعتلا عقله حزن قديم، وهو شعوره العتيق بأن والدته قادرة على معرفة أعمق أسراره حتى تلك التي لم يبح بها إلا لنفسه، حاول أن يلتزم بالفرح شريكًا لتلك اللحظة وتنهد محاولًا طرد الأفكار السلبية

- هناك فتاة تدعى ربا، ابنة أبو ياسر الذي يسكن رأس التلة

تغيرت معالم الجدة وانخطف لونها، فعلم عدنان باطنيًا أن هناك ما تكرهه في بيت أبو ياسر، وعلم أيضا أن زواجه لن يحصل إلا بمعجزة إلهية فهز رأسه والتزم الصمـــت،

وكذلك التزمت والدته الصمت لدقائق عديدة قبل أن تنطق

- أتدري أنك ضابط، وبمقدورك أن تتزوج من طبيبة إن تشاء

عاد عدنان لتقوقعه القديم ولم يجب على كلام والدته .

ساد الصمت في منزل الضيعة، صمت قطعه صوت فايزة أحمد وهي تغني "أنا قلبي ليك ميال ومافيش غيرك عالبال ... إنت وبس اللي حبيبي ... إنت وبس اللي حبيبي ... مهما يقولو العزال "

لم يكن يومًا إرضاء الجدة بالأمر السهل فإن أحبت أحدا جعلت منه أميرًا وإن كرهت أحدا جعلت منه أسفه خلق الله، ولكن من يلوم أمًّا ترى في وحيدها ملك زمانه فلا ترغب بتزويجه إلا لأكثر النساء جاهًا وجمالًا.

أمل ... والأمومة 1998

أنجبت أمل طفلها الأول بعد أعوام من المعاناة، المعاناة الفارغة، فلم يكن من سبب لمعاناتها إلا تحجر رأس زوجها، الذي ما إن قبل -بإصرار الجدة- على زيارة الطبيب حتى تبين سبب المشكلة التي عانى منها والتي سببت تأخره بالإنجاب، وهي مشكلة صحيّة بسيطة لم تكن لتتطلب سوى دواء بسيط لعلاجها، وما إن عالجها حتى حملت أمل وعاشت العائلة الكبيرة والصغيرة سعادة غامرة بولادة أمل لصبي صغير أسمته علي، نزولًا عند رغبة زوجها، كان علي جميلًا بطريقة غريبة، عيون كبيرة ملونة برموش طويلة بنية، وشعر بني وخدود موردة، نسيت والدته بوجوده الدنيا بأكملها وغرقت في حبه ودلاله، كان لعبة إلهية، هدية جميلة من الله الذي لا ينسى عباده مهما طالت سنين رجوتهم ودعائهم له.

وخلال أشهر قليلة من ولادتها لعلي حملت للمرة الثانية بفتاة أسمتها لميا، وبولادة لميا توقف الكون في نظر أمل عن الدوران حول الشمس وبدأ يدور حول هذين الطفلين الذين شغلا بالها وقلبها، فأضافا لحياتها كل المعنى والنكهة والحب.

لم تكن أمل أمًا عادية بل من ألطف الأمهات، تقضي الوقت مع أولادها، تهتم بتربيتهم، باللعب معهم، بنوعية الغذاء الذي يتناولونه ونوع البرامج التي يتابعونها، أصبح نجاحهم هدفها بالحياة. بينما عاش مدين في حياة

موازية يراقب، يؤنب في بعض الأحيان، يحارب بعض قناعات زوجته الحادة برأيه، فهو يريد من أولاده أن يأكلوا التراب ويمرضوا وأن تدعكهم الحياة فيصبحوا قادرين على مواجهتها، فيما تحلم أمل بأن تعبّد لهم الطريق لحياة حلوة وخالية من المتاعب، وهو صراع سيستمر بين أمل ومدين لما بقيَ لها من حياة.

فيينا - 2023 - بداية شهر شباط

عدت للمنزل في تلك الليلة في حالة ضياع حقيقية، تركت ملامح وجهي، بهجتي وحبي للحياة في تلك الغرفة من ذلك الأوتيل، وعدت المنزل محملة بالعار، العار لأنني فكرت ولو للحظة بأن أخون زوجي، زوجي الوفي.

وما إن وصلت المنزل حتى دخلت مسرعة للحمام وأكملت البكاء.

على أرض الحمام الرخامية ركعت وتشكرت الله لمليون مرة لأنني لم أخطئ بحق نفسي، لم أسمح للشر بداخلي بأن يتحكم بجسدي ويأخذني نحو الخطيئة، شكرت الله على كرمه معي وعلى نعمه التي لا تعد ولا تحصى، بكيت من نفسي لأنها فكرت ولو للحظة بأن تقدم على فعل كهذا.

اعتبرت نجاتي من ذلك اليوم، يوم ولادة جديد ولكنني كنت خجلة من نفسي، خجلة من النظر في المرآة وخجلة من النظر بعيني أي أحد .

في صباح اليوم التالي اتصلت بالمستشفى وأخذت إجازة طارئة، لم أجب على رسائل سام الذي لم يتوقف عن مراسلتي، وأخبرت زوجي أني مكتئبة وبأني بحاجة ماسة للسفر إلى سوريا .

صُدم زوجي من قراري، ولكني أكدت له بأني متعبة من العمل ومن الحياة في الغربة وبأني بحاجة ماسة إلى إجازة أبتعد فيها عن كل شيء، وأقنعته بأني لن أتغيب لأكثر من عشرة أيام، اعترض في البداية ولكنه قرر الموافقة على مضض لأنه رأي في معالمي ما يدعوه للموافقة فقد بدوت

يومها ميتة بجسد حي.

اتصلت بشركات الطيران وحجزت تذكرة سفر ذهاب وإياب إلى بيروت ومنها سأنتقل بالتاكسي إلى دمشق.

وضّبت حقائبي على عجل، ودعت أولادي وقبلتهم المئات من القبل فقد كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التي أسافر فيها بدونهم، ثم أقلني زوجي إلى المطار.

وصلت بيروت في صباح الثاني من شباط، وما إن نزلت في المطار، حتى شعرت بأن الروح عادت إلي وبأني توهمت كل ما جرى لي وكل ما كان من الممكن أن يجري، تنشقت الهواء البارد في بيروت واستقليت تاكسي خاص كنت قد اتفقت مع سائقه بأن يقلني من المطار إلى الحدود.

وعلى الطريق الأجمل، شردت بخضار الجبال في لبنان وبجمال بيوتها، لطالما عشقت هذا البلد الصغير الذي يجاور بلدي وأعجبت بساكنيه، بروحهم المرحة، بثقتهم المفرطة بالنفس وقدرتهم الغريبة على الفرح.

عند الحدود، حملت حقيبتي الصغيرة من تاكسي لبنان إلى التاكسي السورية التي ستقلني إلى دمشق حيث تنتظرني والدتي، على الطريق من لبنان إلى دمشق، كنت أبكي على مشاهد الدمار الذي ملأ الطرقات، مشاهد تجرح العين لمجرد رؤيتها، نسيت تمامًا مَصائبي أمام مصائب كل سوري في هذه الأرض وللمرة الأولى تمنيت أن أرد على رسائل سام وأخبره

بأن ينساني فكل معاناتنا وكلامنا السخيف عن الحب والحياة والآخر ليست إلا تراهات أمام ما يعانيه الناس في بلادنا .

الجدة وعدنان - 1998

التربية، أصعب مهمة في تاريخ الإنسانية، كأن تمشي على حبل رفيع غير معروف الأطراف، الحدود ولا النهايات، وأي خطوة خاطئة قد تأخذك إلى الهاوية.

يجب أن تتقن التوازن الذكي، أن تمشي على الحبل كالبهلوان فتعرف متى تقفز ومتى تقف على إصبع واحدة ومتى تتوقف عن الحراك أبدًا.

التربية فن، التربية شغف، التربية ألم وحرقة في القلب لأنك حتى وإن اعتدت حركات البهلوان لن تتمكن يومًا من تربية إنسان سوي تمامًا خالي من العقد النفسية، سعيد وراض، لأن الكمال لم يخلق يومًا للبشر مهما حاولنا تحسين شخصيات أولادنا، أفكارهم وقناعاتهم.

ولكن يا ترى أي عيب نرضاه بأولادنا وأي عيب نحارب؟ وهل يمكننا حقًا إصلاح كل العيوب خصوصًا تلك الموروثة منها، أو تلك التي اكتسبها أولادنا من عشرتنا ومن أسلوبنا في تربيتهم، ومن المفاهيم التي زرعناها في عقولهم وقناعاتهم صدفة.

لم يكن ذلك ما يجول في ذهن الجدة يومها، لأنها لم تملك يومًا الوقت لتحلل طريقة تربيتها أو تفكر في الصح والخطأ من منظور غير منظورها، لقد ربت أولادها بالطريقة التي تربت عليها من دون أي تفكير، فطرق التربية موروثة هي الأخرى مهما حاولنا اتباع كلام الأخصائيين أو الإستماع إلى

نصائحهم.

لقد كانت مقتنعة أن على عدنان أن يتزوج من فتاة ناجحة متعلمة، بل إن عليه أن يفكر في الزواج من فتاة من عائلة مرموقة، ترفع من شأنه في المجتمع.

ورغم حديثها الطويل إلى نفسها عن أهمية ما تفكر به إلا أنها لم تتجرأ يومًا على أن تحدث عدنان بذلك فالتزمت الصمت، واستمرت بمراقبته عن كثب وعندما لاحظت زياراته المتكررة الى اللاذقية وكلامه غير المباشر عن رغبته بالزواج، شعرت بالخطر يقترب فقررت التدخل.

وفي إحدى المساءات من عام 1998، كانت الجدة تجلس منتظرة ولدها عدنان أن يعود للمنزل، وتمامًا عند الساعة الثامنة بينما كانت تتابع نشرة الثامنة على التلفزيون السوري، فُتح باب الدار ودخل عدنان، وقفت الجدة سعيدة بوصوله فاستقبلته وسألته عن رحلته

-جيدة ... أجاب باقتضاب

- الحمام جاهز، بإمكانك الإستحمام ريثما أعد لك العشاء

- سأستحم حالًا

دخل عدنان للإستحمام بينما بدأت الجدة بدراسة الجمل التي ستقولها لابنها، هي التي لم تفكر يومًا مرتين فيما تقول، كانت مضطرة اليوم لأن تكون دبلوماسية في حديثها لعدنان لأنه صعب الميراس وسهل التمرد وهي

لا تريد منه أن يتمرد.

أعدت العشاء وجهزت إبريقًا من الشاي وجلست تنتظر ولدها، عندما أنهى عدنان الإستحمام دخل الغرفة وجلس بقرب طبق العشاء الذي تملأه الصحون الصغيرة، صحن بيض مقلي بالزيت، صحن زيتون أخضر، صحن مكدوس وصحن شوربة عدس من بقايا الغداء.

ابتسم عدنان للغداء وقال "أوه كم أني جـائع" فشعرت الجدة بسعادته فهي تعرف أيضا أن شهيته مفتوحة بسبـب الحب لا بسبب الطعام الذي أعدته .

- من قابلت في القرية؟

- أصدقائي الشباب

- لماذا لا يزورونك في دمشق، لماذا تجتمعون في القرية أسبوعيًا

تنهد عدنان وحاول تجاهل السؤال.

صمتت والدته بدورها واندمجت بمشهد للمسلسل الذي كان يعرض على التلفاز، ثم التفتت إليه

- لقد وجدت لك عروس متل القمر، آنسة وابنة عميد متقاعد

تغيرت معالم عدنان ووقفت اللقمة في حلقه

- أعرف أنه يصعب عليكي أن تريني سعيدًا

حاولت الجدة لملمة مشاعرها بعد ما سمعته

- لماذا يا ماما، كل ما أريده هو أن أفرح بك

- لماذا تلفين وتدورين، أعرف ما تنوين إليه

- أرجوك لا تتحدث لي بهذه الطريقة

- تعلمين جيدًا أني عاشق ولهان لابنة أبو ياسر، كما تعلمين باطنيًا أن زياراتي للاذقية إنما لأجلها، ودعيني أخبرك بشيء كي أقتصر عليك الحوارات (أنا لن أتزوج غيرها، سواء رضيتي أم لم ترضي)

وقف عدنان وغادر الغرفة وترك والدته تبربر بالكلام من بعده

- لن تتغير ستبقى كوالدك، تغوى الفقر والتعتير

بعد شهور قليلة تزوج عدنان من تلك الفتاة بعد أن وضع والدته أمام الأمر الواقع، فأجبرها على السفر معه لطلب يد الفتاة التي تزوجها وسكن معها في حي القطيفة، وبمرور السنين ترفع عدنان من رتبة إلى أخرى حتى وصل رتبة عقيد في عام 2012.

الهزة الثالثة - سوريا منذ 2012

عندما بدأت الأحداث في سوريا لم يتوقع أيًّا من النساء الأربع أن سوريا ستعيش ما عاشته مصر وتونس بل كنّ مؤمنات أن سوريا بلد مختلف وشعبها مختلف وقيادتها مختلفة، إلا أن ما حدث لسوريا أصبح أسوأ بمراحل مما حصل لباقي البلدان العربية.

وعاشت النسّاء الأربع ولأول مرة الخوف بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معنى، كانت الجدة تموت خوفًا يوميًّا على وحيدها الذي يتنقل مع الجيش والدبابات من جوبر إلى داريا ويحارب في صفوف الجيش الأولى، وكذلك كانت ليلى خائفة على قيس الذي تم استدعائه لخدمة الوطن فتم فرزه في مطار كويرس في حلب، فبات قلب ليلى معلقًا بذلك المطار والأخبار القادمة من ذلك المطار، بينما سافرت زوجة قيس وأولاده إلى قرية أهلها في حمص حيث قررت البقاء بقرب أهلها ريثما يتحسن الوضع في سوريا، وأما ناجي فقد كان قد انتقل إلى الإمارات قبل عام واحد من بدء الأحداث في سوريا وكذلك لحق به داني الذي تخرج من كلية الإقتصاد وسافر مباشرة للعمل في الخليج، فلم يبق إلا ليلى وحلي التي كانت تسعى لإستكمال أوراق قبولها في إحدى مشافي أوروبا كطبيبة مقيمة.

وبينما غرقت النساء الأربع بالحزن والتشاؤم كان أبو قيس متفائلًا بقدرات الشعب السوري الخارقة وصلابته في وجه الأزمات، وفي الوقت الذي التزم

به كل شخص منزله خوفًا من القذائف والتفجيرات في دمشق، كان أبو قيس ينطلق يوميًا إلى عمله ويعود في آخر الليل كعادته غير آبه بكل الخوف الذي يملأ النفوس والقلوب.

كذلك التحق مدين برجال الدفاع الوطني وبات يتناوب مع الرجال على حراسة رأس الحارة التي يقطن فيها، في حين غادرت أمل وأولادها الحي للعيش في حي المزة مع الجدة حيث كانت الأمور أكثر أمنًا واستقرارًا.

وأما الخال عدنان فقد كان في حالة استنفار دائمة ودائم التنقل من محافظة إلى محافظة مع فصائل الجيش، ومع وقوع الأحداث في سوريا، شعرت الجدة للمرة الأولى بالندم في حياتها، فأعلنت الحداد على الحياة واكتأبت ولبست ثوب العزاء حزنًا على قدر وحيدها الذي يحمل السلاح في أماكن مختلفة بينما يستشهد واحد أو اثنين من رفاقه يوميًا.

..*.*.*

مطار كويرس 2015 – حلب

قيس وسنين الحصار

كنت قد أكملت العام الثاني محاصرًا في مطار كويرس، فمنذ أن تم طلبي إلى الجيش وأنا أخدم في هذا المطار، ولكننا للأسف محاصرون نموت يوميًا دون أن نخدم الوطن بشيء ودون أن يخدمنا الوطن في المقابل.

يتصل بي خالي عدنان بين الحين والآخر، يخبرني أنهم اقتربوا لتحريرنا... وأننا سننجوا... يقول لي كلّ كلماته المفعمة بالثقة والتفاؤل ويطلب مني أن أتفاءل، إن لم يكن من أجل نفسي أو من أجل زوجتي وأولادي فمن أجل والدتي التي اعتكفت الحياة ولازمت الصلاة دعاء لي...

لكني لم أذكر كيف يكون التفاؤل ... هل أبتسم أم أدعو؟! هل أزداد ثقة بالله الذي تزعزت ثقتي به منذ بدء الحرب أم أنتظر بصمت وترقب تحقق الوعود التي أسمعها دون أن أراها ...

جلستُ اليوم بقرب أصدقائي لانتظار ما سيحصل، كان الطقس باردًا فتكورنا بقرب مدفأتنا الصغيرة، تنكةُ زيت قديمة مملوؤة بالحطب المشتعل، أشعلنا النار اليوم ببقايا سرير حطمته الجدران المنهارة عقب سقوط إحدى الصواريخ في المطار ...

رُحت أُحدق في لهيب النار المشتعلة في تنكة الزيت تلك، تخيلتُ أننا قد

ننجوا، فتذكرتُ حياتنا قبل بدء هذه الحرب، تذكرت إخوتي ومشاكلنا القديمة مع والدي وكم تبدو سخيفة أمام ما نعيشه اليوم، تذكرت زوجتي الحبيبة مايا وأولادي وكيف سأحملهم وأهرب بهم بعيدًا إن نجوت من الموت المتربص بنا في هذا البلد.

نظرتُ إلى تنكة الزيت فتذكرت حكايتها، لكلّ شيء حكاية في هذا المطار القابع تحت الحصار، حتى بقايا السرير المشتعل والسقف المهدّم، الشجرة الوحيدة المتآكلة الروح، شواهد القبور الخجولة، وتلك القبور التي لم نضع لها شواهد حقدًا على كل ما قد يربطنا بهذه الحياة بعد موتنا.

لكلّ شيء حكايةٌ هنا، حتى الذبابة الممعوسة على الجدار الوحيد الصامد في هذا المطار.

وأما تنكة الزيت هذه فهي تخصنا جميعًا، حتى أنّ رائحة الزيت لا زالت تفوح منها كلما أشعلنا النار فيها، هذا ما نشُمّه حقًا كلّما اشتعلت النار في تلك التنكة أو هذا ما يخيل لنا جميعًا.

لعلّ مخيلاتنا تختلق تلك الرائحة لتحيي في قلوبنا ذكرى حياة كانت لنا يومًا ما، يومًا ما قبل أن نغادر بيوتنا لخدمة الوطن وقبل أن يتنكر لنا هذا الوطن وتتنكر لنا أشجار زيتونه، يبدو أنّها هي الأخرى تأبى النموْ في بلدنا المتألم هذا.

لقد مرّ علينا عام كامل نعيش على ما يمكن رميه من الطائرة بطاطا،

بصل، أرز، برغل نطبخه بالماء، بدون أي منكهات، وعندما كانت تسألني والدتي عما أريد لم أكن لأخبرها لأني اعتبرت الطعام من الثانويات في التجربة القاسية التي كنا نختبرها، إلا أن أصدقائي ألحوا عَلَيْ بأن أطلب من والدتي زيت زيتون وأن تحاول إرساله إلينا بمساعدة خالي عدنان الذي أصبح له شأنه في هذه الأيام، وفعلًا أخبرت والدتي بأني أريد زيت زيتون، ونزولًا عند إلحاح أحد اصدقائي طلبت منها أن تتواصل مع والدته التي تريد أن ترسل إليه شنتةً ملابس صغيرة.

وبعد طول اشتهاء، جاء اليوم الذي سترمي به الطيارة المؤونة لنا ومن بين الأشياء كانت تنكة الزيت تلك، كنا يومها في شهر تشرين، تشرين الغدار كما يقول معين شريف في أغنيته "شو بيشبهك تشرين" بالنسبة له تشرين فقط غدار وبالنسبة لنا كل الأشهر غدارة . . .

في تشرين الغدار ذاك حامت الطائرة فوق المطار وصلّينا جميعًا بصمت وترقب أن تسقط الأشياء ضمن المطار وليس خارجه كما يحصل في معظم الأحيان، حيث كنا معرضين للقنص في كلّ مرّةٍ نخرج فيها من المطار لجلب الأشياء التي تقذفها الريح خارج أسواره، وفي كل مرة يستشهد المتطوع قنصًا بينما يحمل كيس خبزٍ بيديه أو شنتة بطاطا، هكذا كنا نموت . . . ببساطة . . .

من تخيل أنّه قد يموت يومًا لأجل كيس خبز أو شنتة بطاطا؟!

إننا نعيش هذا الموت يوميًا ويبدو أننا قد تعايشنا معه... ورغم ذلك لم أتمكن يومًا من تصور هذه الحياة أو التفكير فيها، فأنا أعيش دون أن أتصور كيف أعيش لأنّني أعجز عن تقبل فكرة انني أعيش هكذا حقًا...

سنين ونحن عاجزين عن تغيير شيء في قدرنا المؤلم هذا، ورغم كل مآسينا، لم يجرح شعوري شيء في الدنيا كشعوري بأننا لعبة بيد الآخرين وأنهم يومًا ما سيصنعون بطولاتهم على آلامنا، سيختلقون قصصًا عن طرق موتنا وقد يبرعون بتشويه حكاياتنا ومعالمنا.

...نموت كي يحيا وطننا ... وكما يقول "أحمد مطر" يحيا لمن ؟! من بعدنا يبقى التراب والعفن ...نحن الوطن ... نحن الوطن الذي يقتل يوميًّا ...

تقتلني أفكاري كلما أعدت في ذاكرتي ما نعيش ... نرسل أحدنا لجلب الطعام الذي أسقطته الطائرة خلف المطار... يحمل الكيس بينما نترقب عودته جميعًا، كلعبةٍ تمامًا، ككذبة، يُقنص، يسقط، يموت.

نرسل اثنان لجلب الشهيد وثالث يجلب الطعام وهو يلعن الطعام والموت لأجل طعامٍ بلا نكهة... طعامٌ لحياة لا حياة فيها ...طعامٌ لنعيش يومًا آخر نموت فيه ...كل هذه التعاسة ويقول لي خالي "عليك أن تتفاءل" ...

وأما تنكة الزيت هذه فقط سقطت لحسن حظنا في أرض المطار ... هجمنا يومها على الأشياء كالمجانين... ومن بين الأشياء المبعثرة على

الأرض كان هناك كيسٌ أسود كبير بحجم تنكة زيت، ركض صديقي نحوها فالتففنا حوله مبتهلين مهللين للزيت، بينما حاول هو فتح الكيس، يومها ضحك ضحكة كبيرة من القلب ...

في زمن الحصار والموت المحتم ... نضحك من القلب ونبكي من القلب ... نصرخ متى نريد ... وإن تعاركنا نتعارك حدّ القهر ... نختَلف لنعيش ... نفتعل مشكلات بيننا وتكبر لتصل السماء ... وفجأة يموت أحد طرفي المشكلة فنهجم على الطرف الآخر حزنًا، نتخيله العدو، ثم نبكي جميعًا.

ندفن شهدائنا بصمت ... وفي منتصف الجنازة يرمي أحدنا نكتة، فنضحك بصخب تصل أصوات ضحكاتنا الطرف الآخر من الكون، ونغيظ المسلحين المتربصين خارج سور المطار، عندما تأتي الكهرباء نشغل الراديو الوحيد على محطة للأغاني الجبلية وندبك... ندبك... ندبك ... نفرّغ كل آهاتنا ونحن نخبط بأقدامنا على الأرض التي لا تصغي ... نغني ونصرخ مع كلمات الأغاني علّ السماء تكترث وما من أحد يكترث، ويقول خالي "عليك أن تتفائل"...

فتح يومها صديقي الكيس على عجل، لم يهتّم لتنكة الزيت بل كان مشغولًا بما هو أغلى على قلبه منها، فقد كانت والدتي ونزولًا عند نصيحة خالي، قد أحاطت التنكة بملابس صديقي كي لا تتحطم إثر السقوط من السماء، من سيصدق أن السماء حنونة لدينا تمطر زيت زيتون أحيانًا،

وملابس، أكياس بطاطا ومكدوس ورسائل حزن وحب وشوق، وفي أحيان أخرى هي لئيمة تقصفنا بالموت، تقتلنا أو تقتل أجزاء منا لنعيش عاجزين ما بقي لنا من قهر.

كان الطقس مغبرًا يومها ...أصفرًا يشبه الكوليرا ... علمًا أنني لا أعرف كيف كان ليبدو الطقس في موسم الكوليرا ... لكنني أتخيله مغبرًا أصفرًا كما في مسلسل زنوبيا، ووسط ذلك الطقس كان صديقي قد انتهي من فتح تنكة الزيت والتي اتضح أنها كُسرت من أحد أطرافها فراحت تسرب الزيت على الملابس المحيطة بها، ساعدناه في نزع الملابس عنها بينما أسرعنا لإفراغ الزيت في عبوة أخرى قبل أن يملأ أرض المطار ونبكي قهرًا على زيت رأيناه ولم نتذوقه، كان من بين الملابس الجديدة تلك بيجامة أديداس تقليد، كانت بيجامة جميلة وأجمل ما فيها أنها ملطخة بالزيت.

ورغم تلطخها لم يغسلها صديقي بل تركها لتجف ثم ارتداها بعد أن حلق ذقنه وشعره وهندم هيأته ...

أراد أن نلتقط صورة له ببيجامة أديداس وأن يرسلها لحبيبته -هذا كان حلمه - يومها ارتدى البيجامة والتقطنا له صورًا كثيرًا، صور بدون رائحة، بدون رائحة زيت الزيتون التي كانت تفوح من تلك البيجامة فتملأ تلافيف عقلي وقلبنا بالحنين...

انتهت عملية التصوير ولكن رائحة الزيت لم تغادرنا.. لم تغادر تلك

البيجامة التي لم تغسل أبدًا... كما لم تغادر تنكة الزيت هذه ولم تغادر ذاكرتنا أبدًا...

كان لصديقي ذاك حبيبة ... كان لديه حياة وأحلام ... أمٌّ وعائلة ... كان مهندسًا طموحًا ... كان جميلًا ... أراد أن تراه حبيبته بأجمل هيئة فالتقط الصور لها ... تأنق لأجل عينيها ...ثم رحل...

بعد عدّة أيام ...بعد ثلاثة أيام بالتحديد سقطت قذائف على المطار... واستشهد صديقي مرتديًا البيجامة تلك، لقد رحل بعد أن تذوق الزيت وبعد أن التقط صورًا جميلة لحبيبته، أرادها أن تذكره بطريقة جميلة، بذقن ناعم ووجه مشرق ...

كلما أذكر صديقي ذاك وغيره ممن رحلوا كلما أصبت بالاكتئاب ...لقد تلاشت كل قناعاتي خلال السنين التي أمضيتها هنا، وكل تحليلاتي التي كنت أبنيها أملًا بالنجاة، كل تفسيراتي لموت أحدنا قبل الآخر باءت بالفشل، مامن قاسم مشترك بين من استشهدوا، وما من وسيلة لتوقع من التالي في لائحة موت تطول ولا تنتهي....

ومع كل هذا اليأس أكدت لي أمي أن خالي ومعه كتيبة كاملة يخططون لاقتحام المنطقة وتحريرينا، وطلبت مني أن أبقى متفائلًا بالدرجة ذاتها التي أطلب فيها من مايا أن تبقى متفائلة عندما تبكي لساعات طويلة اشتياقًا وخوفًا علي.

نور والشك - 2023

الشك الذي لم يطأ يومًا أرض الثقة والأمان التي حرثتها وزرعتها نور بصبر وذكاء، وطأها أخيرًا فتمكن من إيمانها بزوجها وأطلق في صدرها نوبة من الظنون .

سام ورغم كل المشاعر التي عاشها بقرب حلي، لم تكن قد ظهرت عليه أي من معالم التغيير، فلم يثر الشك بقلب زوجته حتى جاء ذلك المساء الذي عاد فيه مضطربًا إلى المنزل ومشغولًا بهاتفه، وقلقه ذاك لم يكن شيئًا تأهله نور التي تنبهت مباشرة لإصفرار وجهه وحزنه غير المبرر لأيام.

أخذت تراقبه بصمت من دون أن تواجهه بشكها، أمضت وقتها في الغرفة تشتم أعناق قمصانه بحثًا عن رائحة أمرأة أخرى، لكنها لم تجد شيئًا.

في الوقت ذاته كان سام يموت يوميًا من شوقه لحلي التي اختفت من العمل وهربت منه فلم تعد تجب على رسائله ولا على كل محاولاته البائسة للإتصال بها.

لقد نمى الحزن على خديه وأزهر في عينيه، فبات مكسورًا وعاجزًا تمامًا عن فهم ما يجول في عقل وقلب تلك المرأة الحلوة التي خطفت قلبه وعقله واختفت.

خلال يومين من تلك الليلة، لم تملك نور أعصابها فاتصلت بوالدتها في سوريا وأخبرتها بما تخشاه

-أمي، لقد لاحظت تغيرًا في سام، إنه دائمًا مخطوف اللون، مشغول البال، حزين وشارد الذهن، إن سألته يؤكد لي بأنه بخير ولكنه يبدو عكس ذلك تمامًا

- أيعقل أنك تجهلين أحوال زوجك، أصري عليه حتى يخبرك

- سألته أكثر من مرة عن العمل، عن صحته ودايمًا يؤكد لي بأنه بخير ويتهرب من متابَعة الحديث معي

- هل فتشتي هاتفه المتحرك؟ تأكدي أنه ليس على علاقة بامرأة أخرى

- لقد توقفت منذ سنين عن البحث في هاتفه، يا الله أريد أن أعلم ما يحدث مع هذا الرجل

-أنت زوجته وتعيشين معه، ليس بمقدوري أن أساعدك ويجب عليك أن تكتشفي بنفسك ما يخفيه.

في الليل، عندما غرق سام في النوم سرقت نور هاتفه المتحرك وهربت به نحو الحمام، حاولت فتحه لكنها صدمت برؤيته مقفل وبحاجة إلى كلمة سر لفتحه، صدمها أن زوجها يضع كلمة سر على هاتفه الجوال الذي كان لسنين بدون أي قفل أو كلمة سر، اشتعلت نار الشك في قلبها، فعادت إلى السرير دون أن تتمكن من النوم وأمضت الليل كله تحدق إليه محاولة تفسير تصرفاته.

دمشق – 2015

كانت ليلى تجلس حزينة تبكي على ولدها قيس، لا تعرف عن حياته شيئًا، بينما تقرأ يوميًا على الشريط الإخباري أخبار المطار وعدد القذائف التي سقطت عليه.

وبنيما تجلس بملابس الصلاة تبكي، كانت أمل تجلس بقربها ترتب على أكتافها وترجوها أن تبقى متفائلة وأن تثق بالله وتؤمن بأن عدنان سيتمكن من تحرير المطار مع كتيبته المرابطة هناك منذ أشهر.

نظرت ليلى بعيني أمل

- ثقتي بالله كبيرة، لكن قلبي يبكي على عدنان وقيس، يارب أعدهما سالمين لنا، لا أدري كيف قادهما القدر إلى الحرب وكلاهما يعجزان عن قتل ذبابة، ولكنهم اليوم يخوضون حربًا من أبشع الحروب التي عبرت على الإنسانية

- أرجوك يا أم قيس، حافظي على تفاؤلك وثقتك بالله،

نحن نستمد الثقة منك

- يارب ... أرجوك يارب وأدعوك ليل نهار دون أن أيأس من الدعاء، أرجوك يارب أن تعيدهم سالمين

- يارب

عدنان - سوريا - 2015

كل شيء تغير، الهدوء الذي عشناه كضباط لسنين، والأمان الذي اعتبرناه من المسلّمات، الروتين، الحياة بكل معانيها انقلبت رأسًا على عقب والحرب التي توقعناها يومًا مع عدو خارجي، وقعت في صميم الوطن فانقلب الصديق عدوًّا، والجار عدوًّا حتى الحبيب عدوًّا.

هكذا وقعتْ الحرب في السورية، حرب تضاهي في قسوتها أبشع الحروب وأكثرها بطشًا ودمارًا، حرب امتدت لسنين ولم تنتهي يومًا، حرب جعلت الجار يخشى من جاره والأخ يحارب أخاه، والشعب كله يحلم بالرحيل.

وبين من اختبأ ومن هرب ومن هاجر، وجدت نفسي قائدًا لكتيبة تحارب في قلب المعارك، فلم يكن مني إلا أن ألتزم بقسمي العسكري وأن أحارب بكل قوتي، تلك القوة التي تعرفت عليها في هذه الحرب والتي لم تظهر إلى السطح إلا بعد أن استشهد نصف أصدقائي، ما يقارب نصف من خدمت معهم في الجيش منذ دخولي إلى الكلية الحربية قد فارق الحياة، كان علي أن أحارب كي أعيش أولًا وكي أحمي بلدي وعائلتي من المجهول ثانيًا وكي أنقذ قيس ثالثًا.

وشاءت الأقدار أن أترأس إحدى الكتائب التي تحارب لتحرير مطار كويرس، تلك النقطة العسكرية التي سقطت بأيدي التنظيمات الإرهابية منذ

شهور طويلة حتى كاد أن يبدو تحريرها مستحيلًا.

ومن بين كل الأسباب التي دفعتني بشدة للمخاطرة بحياتي لتحرير ذلك المطار، كان هناك سبب لا يعرفه سواي، وهو حلمي بإنقاذ قيس وإعادته لحضن زوجته وأمه وأولاده.

لذلك ورغم كل ما مررت به من لحظات دفعتني للإستسلام واليأس، ورغم استشهاد أصدقائي أمام عيني، ورغم التشاؤم الذي يسيطر على حياة كل عسكري في هذا الوطن، في هذه الأيام، بقيت أنا متشبثًا بالأمل والتفاؤل، التفاؤل الذي لم يكن يومًا من شيمي، ولكنه أصبح صفة تلازمني فرحت أبث الشجاعة في قلب رفاق المعركة إلى أن جاء اليوم الموعود.

بعد شهور من الكر والفر، والمحاولات باسترداد سلطة الجيش على القرى المجاورة للمطار، استطعنا أخيرًا من فك الحصار عن المطار وتمكنا من دخوله تمامًا في 16 نوفمبر في يوم لن أنساه ما حييت، فقد كان أكثر أيام حياتي نشوة وغرابة.

ما إن فتحت أبواب المطار حتى دخلت إليه راكضًا ببدلتي العسكرية الملطخة بكل ما مررنا به بالأشهر الماضية، بالبارود، بالعرق، بتراب سوريا، بدماء أصدقائي، بالألم.

ركضت باحثًا عن قيس، أردت أن أضم صديق طفولتي إلى صدري، وبينما أركض بين العساكر في أرض المطار وأتجول بعيني بين شهيد ملقى

على الأرض ومن ما يزال حيًا باحثًا عن وجه واحد أعرفه منذ الطفولة.

رحت أبكي بحرقة، وللمرة الأولى في حياتي، بكيت، تذكرت قيس عندما كان صغيرًا، عاد لذاكرتي مشهد واحد بين كل ما عشته مع قيس وأولاد ليلى، طفت تلك الذكرى إلى السطح وكأنها حدثت بالأمس.

كنت يومها في عامي الرابع، وفي ذلك اليوم بالتحديد، قررت والدتي فجأة أن تذهب لزيارة ليلى، علمًا أنها لم تكن تزورها في العادة، حملتني والدتي وذهبنا نحو منزلها، ورغم التوتر الباد على وجه والدتي، كنت سعيدًا جدًا لأننا في نزهة إلى بيت ليلى.

عندما وصلنا البيت، الذي لن أنسى تفاصيله ما حييت، كانت أصوات الصراخ تصدح منه، صراخ بكاء وصوت عمار يبوخ ليلى، سارعت ماما خطاها نحو الطابق الثاني، طرقت الباب وأنزلتني على الأرض لأقف بقربها، وعندما فتح عمار الباب، كان الشر يتطاير من عينيه، فكرهته منذ ذلك اليوم، وما إن أبعدَته ماما عن مدخل الباب ودخلنا حتى وجدنا ليلى وقد بدت ميتة للحظات، منهارة من البكاء وخصل شعرها تملأ الأرض وعينيها متورمتان وخدها مزرق. سارعت ماما نحو ليلى التي كانت تحمل ناجي بين يديها، بينما انشغلت بقلبي وعقلي ورحت أجول بعيني بين أرجاء المنزل بحثًا عن قيس.

ابتعدت عنهم ودخلت للبحث عنه، لأجده مقرفصًا خلف زاوية أحد

الأسرة، يبكي بصمت واضعًا يديه على عينيه ويَإِنْ، اتجهت نحوه وما إن رآني حتى عانقني وعانقته، وبقينا متعانقان، طفلان لا يفهمان من الحياة شيء يتعانقان كرجلان سعيدان بإيجاد أحدهما للآخر.

لا أدري كيف اختارت ذاكرتي أن أنسى تمامًا ذلك المشهد لطيلة العمر الذي عشته متحسرًا على حظي العاثر وحظ قيس السعيد لأنه خلق ابنًا لعمار، كما لا أدري لماذا طفت تلك الذكرى للسطح في هذا اليوم بالذات، بينما أبكي وأركض كالمجانين أبحث عن قيس بين أجساد الشهداء والجرحى.

في ذلك اليوم بالتحديد، كانت ليلى قد ختمت قراءة القرآن للمرة الألف ربما، ورجت الله بأن يحمي ولدها وينصر عدنان ويردهم سالمين. في الوقت ذاته كان عمار يجلس متبسمًا أمام شاشة التلفاز يتابع آخر المستجدات على المحطات السورية المؤيدة، في منزلهم الذي تحطم زجاج نوافذه في إحدى التفجيرات لكنهم لم يقبلوا مغادرته.

دمشق – شباط - 2023

عانقتُ والدتي وبكيت على أكتافها، فشعرت بتوترها لزيارتي المفاجأه وبقدر سعادتها لرؤيتي كانت قلقلة وحزينة علي

- أخبريني حلي أكل شيء بخير، زوجك وأولادك بخير، طمأني قلبي يا ماما

أكدت لها أنهم جميعًا على خير ما يرام، لكنني عدت للبكاء بين الحين والآخر لتعود لطرح التساؤلات ذاتها بنبرة القلق ذاتها.

في المساء الذي وصلت فيه إلى دمشق، بقينا مستيقظتين حتى وقت متأخر، وعندما عاد والدي من العمل قبلني ورحب بي، ثم قال مؤنبًا

- أيًا كان السبب الذي جاء بك لزيارتنا فجأة، لا يبرر تركك لزوجك وأطفالك

هززت له برأسي، كما هي عادتي في كل مــرة أتلقى فيها ملاحظة منه منذ كنت طفلة صغيرة. وبعد أن انتهى من إلقاء محاضرته عَلَيْ بدأ يحدثني عن البلد وما آلت إليه البلد.

شردت في معالمه بينما يتحدث، لقد تقدم بالعمر كثيرًا، شعره أبيض بالكامل، أسنانه تركيب، ولكنه مازال نحيلًا طويلًا وواثقًا من نفسه.

وبينما أنظر إليه لاحظت أن نظرته لي لم تتغير، لازال يملك نظرة الشك

تلكَ في عينيه، نظرة تعري الإنسان من نفسه وتدفعه للاعتراف بكل الذنوب حتى تلك التي لم يقترفها بعد.

حاولت الهروب من نظرات والدي، فجلت بعيني بين أمي وأبي، شخصان يتشاركان المنزل نفسه لكنهما يعيشان في حياتين متوازيتين، حتى أن حياتهما لا تتقاطع ولا عند أي نقطة، فهو في العمل منذ الصباح حتى المساء وهي على التلفاز بينما تزور جدتي وخالاتي في زيارات متقطعة إلى اللاذقية.

نفذت طاقة بابا على الخـــــلاف، وهو الشيء الوحيد الإيجابي الذي يحتسب للتقدم بالعمر، فلم يعد قادرًا على خوض الحروب كلها معًا وربما يعجز حتى عن خوض حرب واحدة، لذلك ربما ترك للحياة أن تقوده بدلًا من أن يقودها .

اختلفت أولويات والدي، لأسباب عدة منها الأزمة في سوريا، ومنها تقدمه في السن، فلم تعد ماما في قمة أولوياته، كما لم يعد لوجوده أثر ولا تأثير في حياتها، ببساطة تحولا إلى روحين لا تعترف أحدهما بوجود الأخرى لكنهما تتشاركان فيزيائيًا المكان نفسه.

وأما المنزل الذي اشتعلت فيه نيران الخلاف والشجار والألم لسنين، فقد خمدت فيه النيران ولم يبق منها إلا آثارها الباهتة المعالم، ففي أحد زوايا غرفة الجلوس، تقبع طاولة محطمة الزجاج، كان داني من حطم زجاجها يومًا

ما لينهي خلافًا بدأه والدي. وفي مكان آخر تحت النافذة -التي حطمها تفجير الميدان ثم أعاد بابا إصلاحها- لا يزال حوض الورود - الذي رماه والدي على ناجي فتسبب بكسر أحد أصابعه في إحدى الخلافات - صامدًا رغم انقسامه لقسمين تربطهما الأتربة وجذور تلك النبتة المنزلية، وقد كانت والدتي قد وضعت صحنا زجاجيًا تحت الوعاء المكسور كي يبقى متوازنًا من جهة وكي تمنع المياه من التسرب في كل مرة تسقي فيها تلك النبتة.

كل زاوية لديها حكايتها في ذلك المنزل، وأما بطلا الحكاية فيجلسان معي الآن وقد نسيا تمامًا ما مرّا به حتى وصلا هذه الدرجة الغريبة من اللامبالاة.

ورغم كل شيء، لا تزال الروح تنبض في ذلك المنزل، فقد ملأته والدتي ورودًا ونباتات زينة، ولوهلة ما تكاد تشعر أن السنين لم تمر بك وبأنك عدت ذلك الطفل الصغير الذي لا يعرف عن الحياة شيئًا.

في صباح اليوم التالي وحالما غادر والدي المنزل، ذهبت مع والدتي في نزهتنا المعتادة نحو الحارات القديمة، وسرنا في شوارع دمشق، حدثتها كثيرًا عن أولادي وحياتنا وعن العمل، وكانت سعيدة بحديثي كما كنت سعيدة بحديثي معها.

عالجتني شوارع الشام القديمة وحاراتها وأعادتني أمي لبرائتي القديمة حتى نسيت تمامًا أني الدكتورة حلي التي حققت أحلامها وتعيش ما تحلمه

نساء سوريات كثيرات من جيلها، ونسيت مشاعري المضطربة ومعاناتي في السنين الأخيرة، ونسيت سام، وبدى كل شـــيء تافه ولا يستحق الذكر .

استغربت والدتي قلة التواصل بيني وبين زوجي، فلم تتردد في سؤالي

- حبيبتي، لقد اعتدت أن تخبريني بكل شيء يحدث في حياتك، هل علاقتك بزوجك جيدة أم أن هناك ما يشوب صفوها

تأفأفت من سؤالها

- لماذا تصرين على وجود مشاكل بيني وبينه، لقد أخبرتك أن كل شيء بخير

بررت ماما نفسها

- لأنك ومذ وصلتي لم تتكلمي معه ولا مرة، رأيتك فقط تحدثين الأولاد

كذبت عليها قائلة:

- لا تقلقي نحن نتواصل على الواتساب

- أيكفي الواتساب؟

- ماما... أتصدقين أن هناك رجل يعشق زوجته كل حياتهما الزوجية

- أها، ها أنت تعترفين بوجود مشكلة، أخبريني كي أساعدك في حلها

- اطمأني ماما أمورنا جيدة، ونحن بخير، لقد مضى على زواجنا عشر

أعوام فاختلفت أولوياتنا ولهفتنا ونحن نعيش بسلام متصالحين مع ذلك

- أتمنى أن تكونو بخير . . .

لم تقتنع ماما بكلامي ولكني تجاهلت مشاعرها وحاولت تغيير الحديث .

بعد يومين من وصولي إلى دمشق، حزمنا حقائبنا أنا ووالدتي وسافرنا لزيارة جدتي وخالاتي في اللاذقية.

عدنان - مطار كويرس -2015

لحظة واحدة، اختصرت عمرًا كاملًا، هو العمر الذي قضيته منتظرًا اللحظة التي أبدوا فيها الأفضل في نظر الآخرين، الأفضل في عيني والدتي وأخواتي، وربما في عيني نفسي. وكانت تلك هي اللحظة التي حلمت بها منذ جئت لهذا العالم .

وسط الدمار والخراب، بينما تملأ غمامة من الغبار والتراب الجو، كنت أبحث عن قيس، وبعد أن يأست من البحث عنه، اتجهت لزاوية من زوايا المطار، أسندت ظهري المتعب إلى الجدار، وما إن سندت ظهري إلى الجدار حتى انزلقت بجسدي جالسًا على الأرض، ولحظتها فقط، لمحته من بعيد، في الطرف الآخر من المطار في زاوية فارغة بعيدة، يجلس مقرفصًا ويديه تغطيان وجهه.

انتصبت مسرعًا وركضت باتجاهه ورحت أصرخ بأعلى صوتي "قيس، قيس"

فأزال يديه ونظـــر اتجاهي فلمحـــت عينيه تمتلئان بالدموع، تعانقنا وبقي جسدينا متلاصقان مطمأنًا أحدنا الآخر.

تعانقنا مرة ومرتين

- كم أنا سعيد لإيجادك يا قيس، لقد وعدتك ووفيت بوعدي

أجهشَ قيس بالبكاء ورحت أبكي معه، ثم أمسكت بكتفيه بيدي الاثنين ونظرت بعينيه

- استعِد لنعود إلى والدتك وجدتك وخالتك، جميعهم بانتظارك

كان عدنان يبدوا رجلًا حقيقيًا في تلك اللحظة، بطلًا كأبطال الروايات، بوجه عريض مسمر بالشمس، وحنك عريض ويديين متصلبتان كجذع شجرة، شعره شاب قليلًا وظهرت الكثير من التجاعيد حول عينيه، وأما بشرته فأصبحت سمراء غامقة بفعل الشمس والمعارك.

راح قيسًا ينظر إلى خاله ويبكي لله حمدًا وشكرًا.

عدنا في سيارة إلى دمشق، وبينما تسير بنا السيارة بين القرى المدمرة، كنت أعاتب نفسي لأني كنت مخطئًا عندما عشت حياتي كلها أغار من قيس متجاهلًا الظلم الذي عاشه مع والده، متناسيًا كم كان والدي حنونًا ودافئًا، صحيح أنه لم يورثني مالًا ولا جاهًا لكن يكفيني أنه أورثني ذكريات طيبة أمضيتها بقربه.

عندما وصلنا دمشق، استقبلتنا ليلى وأمل ووالدتي بالزغاريد والدموع، كانت سعادتي لا توصف عندما عانقتني والدتي باكية وقالت " إنت أرجل زلمة بالدنيا وأنا فخورة فيك يا عدنان فخورة فيك، ياريت أبوك عايش ليشوف عدنان البطل"

ثم عانقتني أمل التي كانت تقف وراء والدتي كعادتها منتظرة دورها

بصمت " عيني ربك يا خيي، الله يحميك ويطول بعمرك"

وتعانقنا جميعًا قبل أن يأتي عمار راكضًا من محله ليرحب بنا، وما إن انتهى من تقبيل قيس بحزم كعادته، نظر في عينيّ وقال " لن أنسى معروفك يا عدنان البطل" وكانت تلك الجملة تفوق بجمالها أعظم خيالاتي.

في ذلك العام قررت والدتي أن تترك منزلها في المزة وتنتقل للاذقية، وكذلك انتقلت أمل مع أولادها للعيش في منزلهم في القرية بينما أصرّ عمّار وليلى على عدم مغادرة دمشق مهما ساءت الظروف..

اللاذقية - 2023 - حلي وليلى

اللاذقية وما أدراكم ما اللاذقية . . .

بالنسبة لعائلة ساحلية تقطن في دمشق، كانت نزهاتنا إلى اللاذقية في العطلات والمناسبات هي أسعد ما نعيش على الإطلاق.

لقد عشت أحلامي كلها على الطريق بين دمشق واللاذقية، ماما وبابا سعيدان وكأنهما زوجان من عصر آخر، عصر لا هموم ولا مشاكل ولا خلافات فيه، ناجي وداني يتحكمان بالأغاني التي نستمع لها والتي غالبًا ما كانت أغان رائجة في ذلك الزمان، بينما يغرق قيس في صمته.

لطالما أعجبني مظهرنا كعائلة سعيدة لكل من يعبر بسيارتنا على الأتستراد الدولي بين دمشق واللاذقية، نبدوا كعائلة متمدنة، تستمع بإجازتها العائلية، ولا نظهر حقيقتنا كعائلة كثيرة الشجار والخلافات.

اليوم أسافر مع والدتي إلى اللاذقية، والطريق الذي عشقته للحدود القصوى، مايزال هو نفسه الطريق لم يتغير من معالمه شيء، رغم الدمار والبيوت المهجورة التي تظهر بين حين وآخر، إلا أن اللون الأخضر ما زال يغطي الطرقات، أشجار وسهول ومرتفعات .

ما إن وصلنا اللاذقية حتى تركت والدتي في منزل جدتي، وذهبت لمفاجأة خالتي أمل، أنزلني التاكسي بالقرب من منزلها، وما إن نزلت من السيارة حتى رأيتها تجلس بمفردها على شرفة منزلها الأرضي تحتسي القهوة

وتداعب وردة جوريَّة على يمينها.

ابتسمت لرؤيتها وصرخت بأعلى صوتي " خالتوا"

فرفعت عينيها ونظرت نحوي وابتسمتْ ابتسامتها العريضة التي كانت من أجمل الإبتسامات لقلبي.

تعانقنا وبكت لرؤيتي، وحاولت بدوري أن أحبس الدموع " مابتتغيري "قالت لي ثم راحت تضحك

فضحكت معها " سنكبر يومًا ما"

- لن أراك إلا ابنة الإثنا عشر عـامًا، ولن أتخيلك إلا عائدة من المدرسة سعيدة بعلاماتك التامة

- ابتسمت لها

- تعالي نجلس

مسكتني بيدي وساعدتني على الجلوس بقربها

جلست بقرب خالتي الجميلة أمل، وبينما راحت تسألني عن الحياة في فيينا، رحت أنظر إلى الزمان وما فعله بتلك الأنثى التي كانت تضج بالحياة يومًا، لقد شاب شعرها، وكثرت تجاعيد وجهها حتى بدت أكبر من والدتي بكثير، عدًا عن عينيها الحزينتان اللتان لم تضحكا منذ دهور. شعرها مصبوغ بالعسلي، قصير ومجعد، وجسدها متواضع لم يعد ذلك الجسد

المستقيم بالأكتاف المفرودة.

- يا الله يا حلي، كم أسعدتني بزيارتك، أكثري من زياراتك فنحن نشتاق لك ولكن أحضري معك أولادك في المرة القادمة

ضحكت لكلامها

- من الجميل أن يسافر المرء بمفرده بين الفينة والأخرى، خالية من المسؤوليات كطفلة لا تعـــرف عن الحياة شيئًا

- حبيبتي ستبقين للأبد طفلتنا المدللة ، هاتي حدثينا عن فيينا

رحت أحكي لخالتي عن فيينا، وبينما أثرثر لها بالكلام السطحي مبتعدة عن الحقيقة التي أرغب بشدة بأن أحكيها لها، رحت أتخيل خالتي أمل زوجة الدكتور محمد الأستاذ في جامعات فيينا، تخيلتها تزورني في فيينا برفقته بينما ترتدي أجمل الملابس وأشيكها، تخيلتها تحتسي القهوة برفقتنا في قهاوي فيينا وتحدثنا عن الأدب والحضارة والحياة، تخيلتها تنام بين ذراعي ذلك الرجل الجميل وتمارس الحب معه .

وفي اللحظة التي جمح بها خيالي ووصل لما أبعد من الخيال، دخل مدين زوجها ورحب بي، فقطع عَلَيّْ سلسلة أحلامي، ابتسمت له، كان متواضعًا بطريقة تجعلك تكره التواضع.

قلت لنفسي بينما أصافحه "التواضع جميل ولكن بحدود، إن زاد عن حده زالت قيمته وجوهره ومعناه "

اللاذقية – 5 شباط 2023

في صباح الخامس من شباط، طلبت من خالتي أن تقبل دعوتي لتناول الكابتشينوا على كورنيش جبلة، وهو طلب لم تكن لتقبل به لولا إصراري عليه.

فأنا أعشق الطقس الشتوي على كورنيش جبلة، حيث البحر له لون أزرق جميل، والسماءُ مثقلة بالغيوم والنوارس، والهواء يملأ القلب والروح بالذكريات والحياة.

أخبرتها بأني أرغب بأن أحكي لها شيئًا لن أتمكن من الحديث عنه بالقرب من أحد، وفعلًا طلبنا تاكسي أجرة ونزلنا إلى قهوة الزوزو وهي القهوة الأولى التي حفظت اسمها والقهوة الوحيدة التي لن أنسى اسمها ما حييت، فلي معها ذكريات لا تعد ولا تحصى، ذكريات مع أخوتي الشباب، مع أقاربي ومع أصدقاء الجامعة ومع كل من أحببت.

جلست مع خالتي على الكراسي البيضاء، المطلة على الشاطئ الصخري الجميل، كانت الغيوم تملأ السماء منذرة بالمطر ولكن السماء لم تمطر بعد، طلبت لنفسي كابتشينوا بينما طلبت لها قهوة، كانت فيروز تصدح في المكان عندما بدأت حديثي

- خالتو، هل أنتي سعيدة بحياتك؟

استغربت خالتي من سؤالي، جذبت معطفها إليها، وجالت بعينيها نحو

- الحمدلله، ما الغاية من هذا السؤال؟

- أتساءل أحيانًا إن كنتي قد ندمت من زواجك من رجل لا تحبينه؟

ضحكت خالتي من قلبها فغارت عينيها

- لقد أفقدتك الغربة عقلك، لقد مضى على زواجي عشرون عامًا، وأنا أفهم تلميحاتك جيدًا، وأما الشخص الذي تستفسرين عنه فتأكدي أنّ لا وجود له لا في قلبي، ولا في خيالاتي.

شعرت بغباء سؤالي فاستفسرت

- فعلًا لا يخطر على بالك أبدًا

هزت أمل رأسها

- آه يا حلي، الحياة ليست كما تتصورين، أنا أم ولديْ ولدان جميلان رائعان، كلما أراهما أشكر الله عليهما ألف مرة، وليس هناك في بالي إلا هم، عقلي وقلبي وتفكيري كله منصب عليهما، ومؤخرًا بدأت أحلم بأن أرسلهم للدراسة في الخارج فالحياة هنا لا تطاق.

راح صوت فيروز يصدح في القهوة ..يا ورق الأصفر عم نكبر عم نكبر... الطرقات والبيوت عم تكبر عم تكبر .... وتخلص الدني ومافي غيرك يا وطني ... يا وطني "

شردت في الأمواج التي تتراطم على الشاطئ، فقاطعتني خالتي

- هل هناك أي شيء آخر ترغبين بإخباري به؟

زممت شفتاي، وأبعدت عيني عنها

- في الحقيقة أنا مترددة من الحديث بالموضوع، أخجل من التفكير بالموضوع فكيف الحديث عنه

تفاجأت خالتي من نبرة صوتي

- يبدو أن الموضوع خطير، هيا تكلمي

قصصت لخالتي القصة كلها، قصتي مع زوجي، قصتي مع سام، وما آلت إليه الأمور قبل أن أهرب منه وآتي إلى سوريا، وبينما أُحَدث خالتي رحت أراقت معالم وجهها التي رغم التزامها الصمت إلا أنها نطقت بالكثير من خلالها صمتها .

وبعد أن أنهيت الكلام، انتظرت منها أن تعلق على كلامي، لكنها بدت كمن بلع لسانه فلم تنطق حرفاً.

طلبت الحساب ومشينا على الكورنيش دون أن أسمع أي تعليق منها، وبينما نتمشى وهواء الشتاء يرتطم بوجوهنا سمعت صوتها العذب

- أنا فخورة بك يا حلي، فخوة لأنك لم تسترخصي من نفسك لترضي مشاعر عابرة ستزول ولن يبقى بعدها إلا الندم، الندم لا يموت إلا بعد أن

ينهش صاحبه فيميته مرّات ومرّات، الحب جميل ومشاعره أجمل، أما الخيانة فهي أسوأ ما يفعله الإنسان بنفسه هذا إن تجاهلنا الأذى الكبير الذي قد يلحقه بالآخرين. . . أنتي جميلة وناجحة وذكية ولا تحتاجي لحب أحدهم كي يثبت لك ذلك. وأريدك أن تتأكدي أنّ مامن زواج خال بالمطلق من المشاكل، ففي الزواج، نبكي نعاني ننهار ونيأس في كثير من الأوقات

لكننا لا نخون مهما كان دافعنا للخيانة قويًا وواضحًا.

جاء كلام خالتي كبلسم الآلام لقلبي التائه والحزين، سألتها " وماذا أفعل الآن؟"

- الحل بسيط جدًا وواضح، أولًا عليك أن تجلسي مع زوجك جلسة مودة بقلوب مفتوحة، ناقشيه بما تعانينه معه ودعيه يحكي لك معاناته من دون صراخ أو مشاكل وتذكري يا حلي أن به من الحسنات ما يفوق سيئاته وبأنه كان فتى أحلامك يومًا مَا

سألتها " وسام؟"

تنهدت قبل أن تجيب

- عليك أن تكلمينه اليوم وتنهين كل شيء بينكما بشكل قاطع ونهائي، يجب أن تعودي إلى فيينا بروح جديدة، أم وزوجة وطبيبة ناجحة وفقط وأعتقد أن ذلك ما تحلم به كل الفتيات . . . غدًا عندما تتحسن علاقاتك مع

زوجك ستذكريني وستشكريني لأنك لم تدمري حياتك لأجل تجربة عابرة لن تضيف لحياتك شيئًا.

عندما عدنا إلى منزل جدتي، أعطيت خالتي الروايــة التي أعطاني إياها محمد وطلبت منها أن تقرأها، ثم اتفقنا على أن تعود لإمضاء الليلة معنا في منزل جدتي.

وفي انتظار المساء، أمسكت بهاتفي المحمول، وسرت بين أشجار الليمون المحيطة بمنزل جدتي، استجمعت قوتي واتصلت بسام، كان صوته حزينًا ومختلفًا علي.

- كيفك

- اشتقت لك ... إنتي منيحة

- ممتازة – أنا أتصل بك لأخبرك ...

لم أتمكن من متابعة الكلام

- تابعي، علمًا أني أعرف جيدًا ما ترمين إلى قوله

لم أتمكن من الكلام، فبادر هو

- أسمع بقربك أصوات دجاج وعصافير، أين أنتي؟

- في منزل جدتي في اللاذقية

- واو بهذه السرعة سافرتي إلى سوريا

رغبت بأن أجلس على إحدى الصخور المترامية بين أشجار الليمون لأحدثه طويلاً عن اللاذقية وعن الشام وعن سوريا وأهلها ولكنني تذكرت بأني أحدثه لأنهي شيئًا لا لأكمل شيئًا.

- لقد اتصلت بك لأخبرك بأننا وصلنا لنهاية الطريق وأن على كل منا أن يعود لحياته السابقة وأما المشاعر الجميلة التي عشناها فستبقى بذاكرتي فقط ولن يكون لها أثر في حياتي

لم يتكلم سام، لقد فاجأته نبرة صوتي، جرأتي وقوة قلبي وأعصابي ولأنه صمت سألته

- أتريد أن تقول شيئًا قبل أن أغلق الخط

لم ينطق فقلت وداعًا، أقفلت الخط وأجحشت بالبكاء.

حل المساء في تلك الليلة، كان مساء شتويًا باردًا، أشعلت جدتي مدفأتها الحطبية وجلسنا أربعتنا بالقرب منها، انشغلت خالتي أمل بإعداد الشاي ثم وضعت فستقًا أخضر على المدفأة ليتحمص ببطىء، فانتشرت رائحته الشهية في غرفة الجلوس الصغيرة.

استلمت جدتي سيدة الحديث، جدتي التي تجاوزت السبعين من عمرها لكنها ما تزال بكامل قوتها، بل إن شغفها للحياة يفوق شغفنا جميعًا، فراحت تحدثنا عن ذكرياتها وعن كل من عشقت يومًا، تذكرت الجميع وتنهدت لذكراهم إلا جدي لم تذكره في حديثها أبدًا وكأنه لم يكن، ضحكت

في قلبي، فجميعنا النساء، نبحث عن الحب الذي لم نعشه أو الذي عبر بحياتنا عبور الكرام، بينما ننسى السنين والذكريات التي عشناها بقرب شركاء حياتنا لسنين، وكما يقال فإن الشهاب العابر في السماء يغرينا بمروره أكثر من الشمس القابعة فوق رأسنا طول النهار.

وتكورت جدتي على الكنبة التي لا تجلس إلا عليها، مسترسلة في الحديث، وبينما تحدثنا، التفتَتْ خالتي لي وهمست

- سأعتمد عليك في إيجاد منحة لأولادي، لا أريدهم أن يبقوا في البلد ولا للحظة أخرى

- أعدك أن أفعل جهدي

وبينما تتكلم جدتي عن ذكرياتها، نظرت نحو والدتي التي كانت تستمع بإمعان لحديث والدتها، فسألت ماما

- ماما، ألن تحدثينا عن قصص الغرام في حياتك قبل أن تتزوجي بابا

ضحكت جدتي وكأنها سمعت دعابة

- لقد خطفها والدك وهي طفلة، قبل أن تعرف حتى معنى الحب

فقاطعت ماما جدتي وقالت:

- دعونا من قصص الحب، لدي ما هو أجمل من الحب

أعجبتني نبرة الصوت في حديث ماما وانتظرت منها أن تخبرنا بما يهم

- وأخيرًا حققت حلمي وسجلت في الجامعة قسم التعليم المفتوح

توسعت حدقتا عيني وركضت باتجاه والدتي وغمرتها

- يا الله يا ماما كم أنك رائعة وعظيمة، ستحققين حلمك أخيرًا

انضمت أمل لعناقنا

- يا الله يا ليلى كم أنك عظيمة لم تيأسي حتى حققتي حلمك

بكت ماما كعادتها ثم استجمعت قواها وقالت مبررة

- قلت لنفسي بما أن الأولاد قد كبروا وأصبحت وحيدة لم لا أحقق حلمي وأسجل في الجامعة

- أنت أجمل قدوة في حياتنا

وفي منتصف انشغالنا بتهنئة ماما، كانت جدتي تهز برأسها

- لن تتغيري في حياتك يا ليلى وستستمرين بعيش الحياة بطريقة خاطئة، أتعتقدين أنك قادرة على الدراسة في هذه السن؟

فنظرت ماما باتجاه جدتي

- لماذا تعشقين تحطيمي؟

- لأن مافات لن يعود ولن يصلحه الزمن

- وما أدراك بالزمن، أنا لا أطلب منك شيئًا إلا أن تفرحي لي وتقولي مبروكًا لك يا ليلى، لماذا يصعب عليك أن تقولي مبروك؟

- يا ابنتي، إن كانت كلمة مبروك ستريحك ف مبروك

الزلزال - صباح 6 شباط 2023

عند الساعة الثانية صباحًا، وبعد أن تسلّل النعاس إلى عيونهن، وخمد الحطب في المدفأة فانطفأ وميضه، قررن الخلود للنوم، قامت أمل لمساعدة والدتها بالوصول إلى سريرها وكذلك تبعهتا كل من حُلي ووالدتها ليلى.

كان لغرفة النوم التي يزيد عمرها عن ستين عامًا رائحة رطوبة عذبة، وهي رائحة تسكن عقولهنّ وقلوبهنّ جميعًا فلطالما زُرْنَ منزل القرية هذا في مواسم الزيتون والليمون وفي العطل الربيعية والصيفية، رائحة تحمل شيئًا من رطوبة الساحل ورطوبة الأرض المنخفضة والمحاطة بأشجار السرو والتي اختيرت ليبنى عليها بيت القرية هذا منذ ما يزيد عن نصف قرن.

استلقت الجدة على السرير الحديدي الوحيد في الغرفة بينما افترشت حلي ووالدتها وخالتها أمل الفرش الإسفنجية الموجودة في أرض الغرفة، تلحَّفْن جميعهن جيدًا دِرءً للبرد، فاقتربت حلي من خالتها أمل وعانقتها من الخلف كي تتدفئ بجسدها أو كي تعبر لها عن حبها وامتنانها، وبينما هنّ يغرقن في غفوتهن الأولى، اهتزت الأرض، هزة .. هزتان وثلاث . . .

استيقظت حلي مذعورة وراحت تصرخ "زلزال" بينما راحت المروحة السقفية التي لم تستخدم منذ سنين لانعدام الكهرباء ترقص جيئة وذهابًا، قفزن جميعهن هلعًا باتجاه الباب، إلا ليلى التي اتجهت لمساعدة والدتها في النهوض من السرير، راحت أجزاء من السقف تنهار والأحجار تتكسر

متطايرة شرقًا وغربًا، وبينما تسارع حلي لفتح باب الغرفة للهروب، اهتزت الأرض بقوة أكبر رافضة هروبهن من قدرهن الذي ينتظرهن في هذه الغرفة، وقعت الجدة على الأرض ووقعت ليلى فوقها ووقع السقف الذي يحمل طابقين فوقه، عَلَتْ الاستغاثات وكلمة واحدة راحت ترتفع " يا الله" بينما ينهار الكون كله فوق رؤوسهن.

حُشرت أملِ وحلي تحت إطار الباب الذي انهار أيضًا فوق رؤوسهن، مصيبهنّ بجروح بالغة، فأصبح هناك جبل ركام كبير فصلهن تمامًا عن الجدة وليلى اللاتي سقطتا قرب التخت الحديد، امتلأت الغرفة بالحطام، وأما الجدران التي سترت لسنين سكانها، فقد كانت الخنجر الذي نحر أعناقهم في ذلك الصباح ...

غابت حلي عن الوعي لثوان، ثم فتحت عينيها لتجد الكون وقد انهار تمامًا من حولها، مستلقية على الأرض وفوق صدرها وأكتافها يقبع حمل ثقيل لطابقين من الأحجار والباطون، حاولت التحرك دون جدوى، سديم ملأ المكان شعرت وكأنها دفنت في سابع أرض، راحت تسعل لإزالة الأتربة التي علقت بحلقها، لم تستطع أن تميز إن كان ما تعيشه كابوسًا أم حقيقة، فتملكتها رغبة عتيقة بالبكاء حتى الموت، فراحت تبكي. وبعد أن استجمعت صوتها أو بقي منه حاولت الكلام، بصوت منخفض في البداية ...

ماما..خالتو...تاتا إنتو مناح؟

ماما. . . خالتو . . .تاتا إنتو مناح؟

ثم راح صوتها يرتفع بينما تشهق بالبكاء. . .

ماما خالتو تاتا قولولي إنكون مناح؟

ماما خالتو تاتا أمانة ردوا عليي

وراح صوت النحيب يعلوا حتى صار صراخًا يملأ الأرض

يا الله ... طمني إنوا ماما وتاتا وخالتو مناح ... بترجاك يا الله تطمأني..

فيينا - 6 شباط 2023

استيقظ كل سوري في الكوكب على خبر زلزل إيمانهم أو مابقي لهم من إيمان، حطم جدران الأمل التي رغم السنين الإثني عشر التي خاضوها في الحرب لم يكن ليتحطم بكامله، فهشمته اليوم أخبار سوريا التي صدحت في فضاء الكون.

رغم عجز سام عن النوم بعد ما سمعه من حلي في الليلة السابقة إلا أنه غفى قليلًا، وعند الصباح استيقظ، وفتح هاتفه الخلوي على محادثات الواتساب بينه وبين حلي، تأمل صورتها التي حدثتها بعد أن وصلت سوريا، وهي صورة لها مع والدتها بالقرب من باب الجامع الأموي، وبينما يتأمل صورتها، دخلت عليه زوجته، فوضع هاتفه جانبًا.

- صباح الخير حبيبي

- صباح النور

- حبيبي، هل سمعت بما حدث في سوريا؟

أجاب من غير أن يعير اهتمامًا كبيرًا لكلامها

- كلّا ماذا حدث؟

- هناك زلزال قد ضرب البلاد، لكن لا تقلق فأهلك في دمشق بخير، لقد كانت شدة الزلزال عالية في اللاذقية وحلب وإدلب

شعر سام بصعود الدم نحو دماغه، وكأنه صدم بتيار كهربائي عالي الفولت، فوقف مسرعًا، حمل الموبايل وخرج نحو غرفة الجلوس

تبعته زوجته

- لا تخف الحمدلله الشام تأثرت بشكل خفيف، الكارثة حدثت في اللاذقية وحلب، يقولون بأن هناك مايزيد عن 600 فقيد بحصيلة أولية

حمل سام هاتفه واتصل مباشرة بحلي، لم يكترث بوقوف زوجته بقربه، أراد فقط أن يسمع صوتها فيطمأن عليها، لكنها لم تجب.

راحت نور تحدق في زوجها " حبيبي أتتصل بوالدتك"

فقال وكأنه حصل على جواب لها " إي" ثم سارع لارتداء ملابسه، فأمسكت زوجته بهاتفها واتصلت بوالدة سام " إي خالتو، صباح الخير والحمد لله عسلامتكن، حبينا نتطمن عنكن مرة تانية، إنتوا بخير؟"

وبينما أفكاره تتسارع ويعجز عن التصرف، وجد زوجته ممسكة بهاتفها وتقدمه له "حبيبي هي أمك، حكيها"

أخذ سام الهاتف المتحرك من زوجته واطمأن على والدته، ثم أغلق الخط ولكن معالم التوتر والقلق لم تزول، بينما تقرأ زوجته تصرفاته بعيني محقق يسعى للإيقاع بالمجرم.

خرج مسرعًا من الباب دون حتى أن يقول لها وداعًا .

جلست نور مصدومة، بتصرفات هذا الرجل الذي بدا غريبًا عنها .

ركب سيارته، دون أن يقودها لأي وجهة، محاولًا مرارًا وتكرارًا الإتصال مع حلي دون جدوى، وعندما يأس فتح الأخبار لينصدم بمشاهد الدمار، لم تكن هزة أرضية خفيفة بل زلزال دمر مُدُنًا بأكملها، راح يبحث عن أخبار اللاذقية علّه يجد ما يبرد قلبه، ولكن الأخبار كلها تحدثت عن أبنية مدمرة وضحايا بالمئات، فأمسك برأسه الذي راح يطرق بقوة وبدأ بالبكاء.

أخذ يستجمع أفكاره دون أن يدري، أين يذهب ولا لمن يتكلم، وبعد مرور ساعتين على جلوسه في السيارة، قرر أن يتصل بخاله محمد

- خالوا، صباح الخير

- أهلًا خال، صباحك سعيد

- هل سمعت الأخبار عن سوريا

- لقد مللت سوريا وأخبارها، ما الجديد؟

- لقد حدث زلزال كبيرة وهناك عائلات كاملة تحت الأنقاض

- يالطيف، لا ينقص سوريا إلا زلزال، والله فاجأتني بهذا الخبر، ولكن طمني هل العائلة بخير

- جميعهم بخير، لكني سأجن سأفقد عقلي لأن الإتصال مقطوع بحلي وهي في سوريا

- انشالله خير، استهدي بالرحمن، أين أنت الآن؟

- أجلس في السيارة

- تعال إلي وسنفكر في طريقة للوصول إليها، أعرف صديقًا في السفارة السورية قد يساعدنا في الوصول إليها

الزلزال – اللاذقية –

صباح ستة شباط 2023

لم تعرف حلي إن كان ما تعيشه وهما أم خيال، وما إن أشرقت الشمس حتى تسرب ضوء خفيف بين الركام، فسمعت ضجيجا وصراخًا بدا لها من كوكب آخر، لكنها عجزت عن الكلام. كما استصعبت التنفس بعد أن ملأ هواء الركام بغباره وأتربته رئتيْها فراحت تسعل بشدة، بدَا لها الأمر على أنه كابوس وأن عليها أن تستيقظ في الثوان القليلة القادمة، لكنها لم تستيقظ لأن كابوس ذلك اليوم كان حقيقة .

كان هناك ما يثبت حركتها، شيء ثقيل يثبت أكتافه، فجالت فقط بعينيها في المشهد الذي لم تتخيل يومًا بأن تكون جزءً منه، وبينما تجول بنظراتها بين الركام أوقفها وجه تعرفه جيدًا هو وجه خالتها أمل تغطيه الدماء، فشهقت واقشعرَّ شعر بدنها، وبكت بصمت فراح صوت أنينها يملأ المكان إلى أن تحول إلى عويل وبكاء.

هنا بدأ الضجيج المحيط بها بالاقتراب فاتضحت الأصوات قليلًا، ومن بعيد سمعت من يقول "إنتوا عايشين، في حدَا هون، علُّوا صوتكون لنسمعكون"

وسمعت امرأة تنوح " يا ويلي عليكي يا سوريا، يا ويلي عليكي يا هالبلد شو صار فيكي"

فيينا - 6 شباط 2023

تأخر زوج حلي في معرفة الخبر، فهو لا يتابع الصفحات السورية على السوشال ميديا، ولكنه وتمامًا عند الساعة الثانية عشر ظهرًا، وبينما كان يعبر بالسوبر ماركت لشراء بعض الحاجيات للمنزل، فتح حساب الفيس بوك الخاص به، ليجد صورة زوجته، والدتها، خالتها وجدتها وقد كتب تحتها كلمات بالعربيةِ، لم يكن ليفهم معنى تلك الكلمات، إلا أن الإموجي المرافق للكلمات العربية كان وجها دامعًا، قد كانت ابنة خالة حلي التي لا يعرفها شخصيًّا ولكنها واحدة من أصدقاء الفيس بوك لديه قد حملت تلك الصورة على الموقع، فاستعان ب جوجل وترجم تلك الجملة العربية إلى الألمانية ليفهم معناها "يارب احمهم وطمأن قلبنا عليهم".

صدمته الصورة التي انهالت عليها التعليقات المتبوعةَ بقلب أحمر محطم أو إيموجي يدمع، فبدأ البحث من تعليق إلى آخر ومن صفحة إلى أخرى حتى وصل لخبر الزلزال الذي دمر مدنًا سورية.

ترك عربة مشترياته، وحاول جاهدًا الإتصال بزوجته دون جدوى، بوالدتها كذلك دون جدوى، ثم حاول الإتصال عبر الماسنجر مع ابنة خالة زوجته ولكنها لم تجب أيضًا.

فركب سيارته واتجه مسرعًا نحو السفارة السورية في فيينا، فقد شعر بأنها المكان الوحيد الذي قد يحصل منه على إجابة .

كان هناك حشدًا من السوررين الذين يتجمعون أمام باب السفارة، وفي داخلها، ولكنه لم يعرف لمن يتكلم منهم، فتوجه نحو أحد الموظفين، الذي أرسله إلى آخر فآخر حتى وجد نفسه أمام باب غرفة نائب السفير وقد نفذ صبره.

كان زوج حلي، يعرف مسبقًا ما ينتظره داخل تلك السفارة، فقد عايش خلال سنين زواجه منها ما يعنيه أن تزور السفارة السورية لإتمام أي ورقة، الروتين، انعدام النظام، وكثرة الإنتظار لمعرفة ما يتطلبة إتمام ورقة ما ناهيك عن الوقت الحقيقي اللازم لإتمامها، هذا إن كان إتمامها ممكنًا أصلًا، ولطالما شعر باليأس لإصرار زوجته على تجديد جواز سفرها السوري بينما تملك جوازًا أوربيًا أكثر أهمية.

لذلك ولأنه متزوج من سورية ويعرف مسبقًا أن انتظاره بصمت لن يحقق له شيئًا، قرر أن يفتح باب غرفة نائب السفير ويدخل غير آبه بشيء فزوجته مفقودة وهو مضطرب وقلق ونادم على كل تصرف خاطئ تصرفه يومًا بحقها، بل حتى أنه يشعر بشوق قاتل لرؤيتها وضمها، وبينما هو يندفع نحو غرفة نائب السفير، تحركه عواطفه ومشاعره لم يكن يعرف بأن ما ينتظره في تلك الغرفة أكبر بكثير من أكبر تخيلاته وبأن أحد الأسرار الأكثر خطورة في حياته على وشك الظهور.

داخل تلك الغرفة، التي تعكس سوريا في كل تفاصيلها، بدءً من صورة الرئيس التي تتوسط الجدار، انتهاء بطاولة المكتب الخشبية الكبيرة التي

... - 6 شباط 2023 - صفحه 396/ 407

يجلس خلفها نائب السفير، مرورًا بأربع كنبات من الجلد البني، والكثير من قطع الموزاييك المشغولة باتقان، أحدها حفر عليها علم سوريا، وأخرى حفر عليها قلعة حلب وثالثة نقش عليها الجامع الأموي، ومن بين علب الموزاييك تقبع علبة حلويات مهنا على طاولة الشاي التي تتوسط طقم الكنب الجلد البني.

كان يجلس نائب السفير، يتحدث لضيفيه عن رغبته الشديدة بمساعدتهم وبأنه سيتواصل مع محافظ اللاذقية تحديدًا ليعرف مصير السيدة التي جاؤوا إليه ليطمأنوا عليها بعدما انقطعت أخبارها منذ الصباح إي تمامًا عند وقوع الزلزال .

وفي اللحظة التي كان يؤكد فيها رغبته بالمساعدة، فتح الباب ودخل رجل طويل عريض المنكبين، أربعيني الهيئة بملامح أوروبية وشعر بني يتخلله بعض الشيب.

استغرب نائب السفير من دخول ذلك الرجل وبينما يستعد للوقوف، اعتذر القادم من دخوله المفاجئ ولكنه أكد متوترًا أنه يريد أن يطمأن على زوجته السورية التي قطعت أخبارها عنه، فنظر نائب السفير نحو ضيفيه واعتذر منهما وطلب منهما البقاء جالسين ثم نظر نحو الرجل الأوروبي وقال له بلغة ألمانية

"ما اسم زوجتك وفي أي محافظة هي؟"

" حلي، اسمها حلي، موجودة في منزل أسرتهـــا في دمشق "

استغرب نائب السفير لسماعه ذلك الاسم بينما ارتفعت على عيون ضيفيه نظرة من التوتر

"دكتورة حلي سالم" أكد زوج حلي اسمها

فنظر النائب باتجاه ضيفيه وقال بالعربية " هي نفسها الدكتورة حلي يلي عم تسألوني عنها، عم يقول إنها بالشام وإنتوا عم تقولو إنها باللاذيقية، معقول وحدة تانية "

ارتبك سام وخاله وتغيرت معالم وجهيهما، وتنبه زوج حلي لما يحدث في الغرفة فهو ورغم عجزه عن الحديث بالعربية إلا أنه يفهمها فقد حاول جاهدًا في سنين حبه الأولى لحلي أن يتعلم العربية كما كانت تتمنى ولكنه لم يتمكن من تكلم تلك اللغة الصعبة ولكنها علمتها لأولادها فباتت العربية جزءً من جو المنزل لذلك هو يفهمها جيدًا إن كان لا يتحدث بها .

تلعثم زوج حلي ولم يعرف إن كان ما فهمه من الكلام العربي صحيحًا وكي يتأكد سأل

- هل يعرفان شيئًا عن زوجتي؟

وكي لا يضطر نائب السفير للكذب، تدخل ســام الذي كان يجلس مع خاله في تلك الغرفة فوقف واقترب من زوج حلي وبادر بالسلام عليه باليد

- أنا الدكتور سام، زميل حلي بالمشفى وعندما سمعت بالزلزال أتيت لزيارة سعادة السفير للإطمئنان عليها

هز زوج حلي رأسه دون أن يقول شيئًا، بل غابت أفكاره عن رأسه بينما يحدق في سام ، رجل سوري جميل ، هذا هو الشيء الوحيد الذي رآه في ذلك الآخر الذي ظهر من العدم.

طلب نائب السفير من الرجل الانضمام إليهم للجلوس، إلا أن سام وخاله وقفا واعتذرا لاضطرارهم للذهاب نحو موعد ما وتشكرا نائب السفير وطلبا منه أن يبقيهم على إطلاع كي يتمكنوا من طمأنة زملائها في العمل.

وبينما يغادرا المكتب لم يتمكن سام من منع نفسه من رمق زوج حلي بنظره سريعة، تعرف فيها على الرجل الذي حظي بألطف نساء الأرض، وكذلك لم يرفع زوج حلي عينيه عن سام بل استمر بالتحديق فيه حتى غادر الغرفة .

نظر نائب السفير وقال للرجل "أترغب بأن تشرب شيئًا؟"

"شكرًا"

- سوف أتصل مباشرة بمحافظ اللاذقية، لعلني أعرف أخبارًا عنها

استفسر زوج حلي متعجبًا

- لماذا ستتصل بمحافظ اللاذقية، هل أخبروك بأنها هناك؟

التزم نائب السفير الصمت لأنه شعر بأنه في موقف لا يحسد عليه فقال " سأتصل بمحافظ اللاذقية ودمشق"

الزلزال - 6 شباط 2023

غبت عن الوعي، واستيقظت لأجد نفسي مستلقية على أحد الأسرة في المستشفى وبقربي يستلقي العديد من الجرحى، بدا لي المشهد وكأن المشفى كبير بدون جدران وهناك أسرة تملأ المكان ومرضى يأنون وأطفال يبكون ورجال يلطمون رؤوسهم، بحثت بعيني أنظر بمن حولي فلم أتعرف على الوجوه، جميعها بدت غريبة.

شعرت بموجة ألم تتسلق كتفي اليمين ورقبتي فصرخت " آخ" وعندها اقترب مني وجه مألوف يبدو عليه الحزن، كان ذلك وجه خالي عدنان " الحمدلله عسلامتك يا خالوا"

لم أتمكن من الكلام ولكن وجهه الحزين بعث في قلبي موجة كآبة وتشاؤم.

بلعت ريقي الجاف، ونظرت في عينيه، استجمعت قواي كلها وسألته " بدي مَيْ "

فسارع لإحضار الممرضة ليسألها الإذن بإعطائي الماء.

رشفت رشفة صغيرة من كأس الماء البلاستيك، فشعرت بالماء كسكين يطعن أحشائي فتوقفت عن شرب الماء وعدت للتحديق بالمشهد المأساوي الذي يحيط بي.

أردت الاطمئنان على والدتي وخالتي وجدتي، فأشرت بيدي نحو خالي الذي فهم بالإشارات بأنني أسأله عنهم فقال " الحمدلله عكلشي ياخالوا"

لم يعجبني جوابه، فقلت " ماما منيحة"

فقال " الحمدلله أمك وستك بالغرفة التانية عم يتعالجوا"

فقلت "أمل"

وهنا أشاح وجهه عني وبدأ بالبكاء، ورحت أبكي معه، حتى تحول بكائي المكبوت إلى عويل ممتزجًا بعويل كل سوري شهد مأساة ذلك الصباح.

العزاء – 17 شباط – القرية

في صالة العزاء في قريتنا في جبلة، أقيم عزاء خالتي أمل بعد عشر أيام على الزلزال وبعد أن تحسنت صحتنا الجسدية نوعًا ما دون أن يعني أي منا تحسن صحته النفسية.

كان صوت الشيخ يصدح في صالة العزاء، يتلوا القرآن بينما تتوزع الكراسي متراصّة وموازية لجدران الصالة الأربعة حيث تجلس النساء المعزيات بلباس أسود يبعث القشعريرة في القلوب، وأمامهم تتموضع طاولات خشبية عليها فناجين من القهوة المرة.

كنت أجلس بقرب والدتي التي أصرت على مغادرة المشفى مبكرًا رغم حالة كسورها الصعبة، فقد كسر ضلعين من أضلاعها أثر سقوط السقف عليها ولكنها رغم الألم الشديد شكرت الله لأن جدتي لم تصب بأي كسر فقد حماها التخت الحديدي الذي سقطت بقربه من جهة وجسد والدتي من جهة أخرى من الجدران المتساقطـــة، كما أن حزنها على خسارة أختها أمل أنساها كل الآلام.

جلست جدتي في صدر الصالة مكسورة القلب والروح، صحيح أن جسدها معافى إلا أن الجرح في روحها كان عميقًا جدًا، فقد خسرت قرة عينها أمل، ابنة روحها وصديقة لياليها ومؤنس وحدتها، رحلت مهندستها الجميلة، الابنة البارة التي لم تقل لها يومًا لا ولم تجرحها بكلمة.

بقرب جدتي جلست لميا ابنة أمل باكية منهارة، كان لتلك الصبية العشرينية جمال والدتها وبراءتها، ذات العينين العسليتين والوجه المستدير والشعر المموج.

لقد كانت نسخة عن والدتها في صباها.

نظرتُ في عيني لميا وتذكرت وعدي لخالتي بمساعدة والديها على السفر، وهو وعدٍ اتخذت قراري بأن أنفذه بكل ما أوتيت من إرادة.

أصر زوجي على القدوم إلى سوريا ليرافقني في رحلة العودة إلى النمسا، فترك الأولاد في منزل والديه وقدم إلى سوريا خصيصًا ليرافقني على طريق السفر.

ودعت والدتي ووالدي وجدتي وخالي عدنـان وكل ما يربطني بسوريا، قبّلت لميا وعلي وبكينا جميعًا ووعدتها أن أعمل جهدي لتحقيق حلم والدتها، وغادرت سوريا في 18 شباط عائدة إلى النمسا بقلب مكسور وعقل فقد عقلانيته وربما اكتسبها، وروح تخشى المزيد من الخسارات.

الحقيقة الوحيدة التي عشتها وأنا أسند رأسي على كتف زوجي في الرحلة الجوية التي أقلتنا من مطار بيروت إلى فيينا هي أنني لن أتخلى عنه ولا عن أولاده مهما حييت، لقد كان ما جرى عقابًا قاسيًا لي وربما استحققته، لقد كان صحوة من الوهم الذي أغرقت نفسي به.

وأما عن تفاصيل ما حدث فقد تمنيت أن أحكيها لزوجي وأن يوبخني،

يصرخ بي، يتركني، إلا أنه قرر أن ندفن الموضوع معًا وننساه ونستمر بحياتنا كأن شيئًا لم يكن.

ظهيرة الخامس من شباط 2023 –

اليوم الأخير ل أمل في هذه الحياة

أنهت أمل وجبة الغداء مع زوجها، وانتظرته أن يعود للعمل في البستان كعادته يوميًّا بعد الغداء، ثم فتحت الكتاب الذي أعطتها إياه حلي وهو رواية محمد الأولى في غُربته واسمها "بين الأمل والخذلان"

لم تكن أمل ممن يتلهفون للأشياء ولا ممن يستمتعون باللحظات السعيدة المسروقة من ساعة الكون البخيلة، ولكنها كانت فرحة في تلك الظهيرة.

أعدت فنجانًا من القهوة وجلست على طرف الكنبة الخشبية في غرفة الجلوس، وأمسكت الكتاب، تلمست غلافه كأنها تداعب خدي طفل صغير ثم سارت بأصابعها على حروف اسمها المطبوع على الغلاف "أمل "، ابتسمت وفتحت الكتاب بكل هدوء وكأنها ترغب بأن تذوب في اللحظة وراحت تقرأ . . .

كان لعينيها لون السكر المحروق . . . .

هو سكر لا شك ما عجن قلبها قبل أن تحرقه عادات وطني البالية

كان لشعرها تمرد الأمواج في بحر جبلة . . .

لكنها لطالما جذبته للخلف خشية عليه من نسمات الريح . . . الريح التي قد تهب من جهة الغريب فتثير الشهوة في أمواجه

كان لروحها لطف وحياء . . .

وياريتني قتلت الحياء فسرقت روحها من بين مخالبه. . .

كانت جميلة كوردة، ومن يعتني بالورود؟

كانت وردة جُورِيَّة جميلة كُتِبَ لها الذبول . . . .

وما مِنْ وردةٍ في وطني إلا وَخُلقت للذبول . . .